سلسلة العلوم الاجتماعية



ثقافة الفقراء

دراسة في بنية وجذور الثقافة المصرية

إعداد: مركز دراسات قناة النيل الثقافية



ثقافة الفقراء

دراسة فى بنية وجذور الثقافة المصرية



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام
د. ناصر الأنصارى

تصميم الغلاف
د. مدحت متولى

الإشراف الطباعى
محمود عبد المجيد

الإشراف الفنى
على أبو الخير
ماجدة عبد العليم
صبرى عبد الواحد

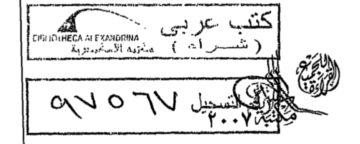
الجهات المشاركة
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

ثقافة الفقراء

دراسة فى بنية وجذور الثقافة المصرية

إعداد: مركز دراسات قناة النيل الثقافية



ثقافة الفقراء/ دراسة فى بنية وجذور الثقافة
المصرية. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،
٢٠٠٧.
٢٦٠ ص ؛ ٢٤ سم . (مكتبة الأسرة «علوم اجتماعية»).
تدمك: ٦ - ٩٠٠ - ٤١٩ - ٩٧٧.
١- الأدب الشعبى.
أ - تاريخ ونقد .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩١٨٦ / ٢٠٠٧
I.S.B.N 977-419-900-6
ديوى ٣٩٨,٢

توطئة

تعتبر القراءة منذ فجر التاريخ أول وأهم أدوات المعرفة، وعنصرًا لا غنى عنه من عناصر بناء الحضارة، فمنذ نقش حكيم مصرى قديم وصية لابنه على ورق البردى: «يا بنى ضع قلبك وراء كتبك، واحببها كما تحب أمك. فليس هناك شىء تعلو منزلته على الكتب»، ومذ أطلق د. طه حسين مقولته: «إن القراءة حق لكل إنسان، بل واجب محتوم على كل إنسان يريد أن يحيا حياة صالحة» ومذ كتب العقاد جملته الآسرة: «إنما أهوى القراءة؛ لأن عندى حياةً واحدةً فى هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفينى»، ومذ قررت السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** تحويل الحلم إلى واقع مؤكد منذ ستة عشر عامًا: «إن الحق فى المعرفة يتصدر أولويات العمل، ولا يقل عن الحقوق الصحية والاجتماعية»، ومسيرة القراءة للجميع تمضى بخطوات ثابتة وواسعة لتحقيق أهدافها فيلتف القراء حول أضخم مشروع نشر فى الوطن العربى، ويطالبون خلال السنوات السابقة باستمراره طوال العام، وها هو المشروع يقرر الاستمرار طوال العام بعد انتهاء فترة العطلة الصيفية ليتحقق شعاره بالفعل.. **القراءة للحياة.**

لقد استطاعت **مكتبة الأسرة** خلال مسيرتها تمكين الشاب والمواطن من الاطلاع على الأعمال الأدبية والإبداعية والدينية والفكرية، التى شكلت وجدانه وحضارته، وعملت على إشاعة الأفكار التنويرية الحقيقية، التى عكست جهود

التنوير للشعب المصرى فى العصر الحديث، وحرصت على تقديم أحدث الإنجازات العلمية بنشر أحدث مؤلفات العلماء التى تواكب التطور العلمى والتكنولوجى فى العالم، وأقامت جسرًا مع الحضارات الأخرى من خلال إعادة طبع كلاسيكيات ودرر العالم المترجمة، التى تعرض إنجازات الشعوب الأخرى فى المجالات الأدبية والفكرية والعلمية، وعملت على تأكيد الهوية القومية من خلال نشر التراث المستنير العربى والإسلامى، الذى مَثَّل نقطة انطلاق مضيئة فى مسيرة الإنسانية.

لقد أعادت **مكتبة الأسرة** للكتاب أهميته ومكانته كمصدر مهم وخالد من مصادر المعرفة، وأحدثت عبر عطائها المتميز وبنائها الدءوب الحقيقى صحوة ثقافية بالمجتمع المصرى تؤكدها المؤشرات العامة والأرقام، التى يتم رصدها وتحليلها منذ بداية المشروع، فالأرقام تسجل ارتفاعًا ملحوظًا فى نصيب المواطن المصرى من القراءة، وإصدار ملايين النسخ من الكتب ونفادها الفورى من الأسواق، وازدياد العناوين المطروحة عامًا بعد عام.

لقد بلغت عناوين **مكتبة الأسرة** أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عنوان فيما يربو عن واحدٍ وأربعين مليون نسخة، كنتاج فكرى وإبداعى لعدد من الكُتَّاب والمترجمين والرسامين يزيد عن ألفى مبدع ومفكر.

وما زالت **مكتبة الأسرة** التى أصبح لها فى كل بيت ركن مميز تواصل تقديم إصداراتها للعام الرابع عشر على التوالى، كرافد رئيسى من روافد القراءة للجميع، وصرح شامخ فى المكتبة العربية، يفتح نوافذ جديدة كل يوم على آفاق تنشر الخير والمعرفة والجمال والحق والسلام.

مكتبة الأسرة

تقديم

عدد الفقراء فى العالم يتنامى بمعدلات متسارعة، ويعنى ذلك زيادة أعداد من يعتبرون عالة على النظام العالمى؛ لأنهم غير منتجين - أى يقعون - خارج نطاق الدورة الاقتصادية فضلا عن أنهم غير مستهلكين، ويبحث هذا الكتاب فى أسباب فقر الدول، وهل هى السياسات العالمية التى ينظمها الكبار أم قصور فى الفكر والأداء فى هذه الدول.

والموضوع الأساسى فى هذا الكتاب هو أن ثقافة البسطاء التى تكتسب أهميتها من حيث إنها الموروث الشعبى الذى تكون عبر أزمنة متعاقبة، فهى ميراث تاريخى ممتد من أعماق التاريخ الفرعونى ومازالت آثاره باقية حتى الآن فى لغتنا وعاداتنا وأمثالنا الشعبية، التى توضح الكثير من المعتقدات المتوارثة كالتفاؤل والتشاؤم، والخوف من السحر والحسد.

ويبين الكتاب تأثير الحقبة اليونانية والرومانية على لغة المصريين وفنونهم مثل استخدام الأشكال الزخرفية والنقوش على المبانى أو الملابس أو الأطباق، كما يوضح الكتاب أن المكوِّن الدينى هو عنصر أساسى فى ثقافة الفقراء والأغنياء على السواء؛ لأنه مرتبط بالفطرة، وأن الشعب المصرى بطبيعته متدين بالفطرة سواء كان مسيحيًا أو مسلمًا، وأن الدين هو العامل الأساسى فى استنهاض الهمم وتحفيز الشباب والحفاظ على القيم.

وقد صدر هذا الكتاب سنة ٢٠٠٦ واختارته مكتبة الأسرة ليكون ضمن إصداراتها هذا العام.

المحتويات

ثقافة الفقراء: بنية وجذور الثقافة المصرية

المكوّن الدينى

المكون الاقتصادى والمعمارى

اللغة والمجتمع وثقافة الفقراء

مؤثرات سياسية وإعلامية

مفتتح

لماذا ثقافة الفقراء

تقديم: جمال الشاعر

الفقر أحد الأسرار الكبرى فى التاريخ الإنسانى، بين رسالات الأنبياء والمصلحين والفلاسفة والساسة والاقتصاديين، ظل المعادلة الأصعب والسؤال المحورى الذى توقف التاريخ عنده، ولم يشفع غالبًا بإجابة بليغة أو وصفة ناجعة للإجابة عليه من حيث أسبابه ونتائجه وخطورته وطرق التعامل معه، وعلى الرغم من تنامى التوجه نحو فقراء العالم، وهو ما تداعى كأثر من آثار العولمة أكده معارضوها فى مناسابات مختلفة عبر اجتماعاتهم والتقائهم الدائم كممثلين للفقراء من الشمال والجنوب على السواء، إن قضايا الفقراء تشهد عولمة أخرى موازية أو مضادة وهو ما يدعونا للالتفات إلى قضايا الفقراء من منظورات أخرى ثقافية محلية وعالمية.

فالمؤشرات تشير إلى تنامى الفقر عالميًا، والذى يتوقع أن ينمو ليهدد ٨٠ ٪ من سكان الكرة الأرضية، وهم أربعة أخماس البشر والذين سيتحولون بالتدريج إلى عالة على النظام العولمى فلا ينتجون ولا يملكون ما يشترون به المنتجات العولمية. أى لا يصلحون كمستهلكين ولا يصلحون

كعمال وموظفين لدى الشركات المديرة لزمن العولمة فى ذلك الأفق العولمى الرهيب.

والأرقام التى تعبر عن واقع الفقر فى العالم، ومدى التفاوت بين فقراء وأغنياء العالم لها دلالات تتجاوز بلاغة البلغاء، وهى وفق تقرير الأمم المتحدة للتنمية خلال العقد من ١٩٩٥ إلى ٢٠٠٥ والذى يشير إلى أن أغنى ٥٠٠ شخص فى العالم لديهم نفس دخل أفقر..٥ مليون نسمة فى العالم وأن نسب الفقراء تزداد باطراد، واحتياجات الناس تزداد أيضًا باطراد، والأسعار لكل السلع تضاعفت والطبقات المتوسطة تتآكل فى معظم الدول، فمازال ٢,٥ مليار إنسان يعيش الواحد بأقل من دولارين فى اليوم كما تباطأ تخفيض الفقر فى تسعينيات القرن العشرين ويموت كل عام ١١ مليون طفل دون سن الخامسة بسبب أمراض يمكن الوقاية منها مازال أكثر من مليار إنسان محرومين من المياه المأمونة؛ و٢,٦ مليار مفتقرين إلى الصرف الصحى ومازال ١,٢ مليار نسمة أى قرابة خمس سكان العالم يعيشون بأقل من دولار يوميًا.

وأن مئات الملايين من الناس لا يحصلون على طعام يكفيهم ليعيشوا حياة طبيعية ونشطة. وهناك حوالى ٣٢٥ مليون من الجنسين لا يتعلمون فى المدارس، وأن ٢,٤ مليار شخص محرومون من الرعاية الصحية.

هذه مؤشرات على نفوذ الفقر المتنامى على كرتنا الأرضية البائسة فى الحاضر لكن استخدام البعد الزمنى لتقييم هذه الأوضاع يبدو أكثر إيلامًا وبخاصة محاولات الاقتصاديين رصد مدى اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء. فكما يقرر أنجوسى ماديسون؛ إنه فى عام ١٨٢٠م كان أكبر اقتصاد متقدم فى ذلك الوقت أكثر غنى بخمس مرات عن أفقر اقتصاد، وبعد قرن من الزمان تضاعفت نسبة الفقر وأصبحت بحلول عام ١٩١٣، بنسبة ١٣-١ ثم تضاعفت ثلاث مرات خلال أقل من نصف قرن ووصلت النسبة إلى ٣٣- ١ فى عام ١٩٥٠م، وبعد خمسين عامًا أو أكثر قليلاً تضاعفت النسبة أيضًا ثلاث مرات وأصبحت ١٠٠ - ١.

أى أن الفقر فى العالم فى تضاعف تراكمى، إذ تحول من ٥ -١ إلى ١٠٠ -١ أى عشرين ضعفًا.

أما المؤشرات على تغير واقع فقراء العالم فهى تدعو إلى اليأس أكثر مما تدعو إلى الأمل بكثير.

فمن ناحية بخل الأغنياء فحدث ولا حرج، فالرئيس الأمريكى جورج بوش الذى طالب الدول الغنية فى ٢٠٠٢ بزيادة معونات الدول الفقيرة إلى ٧٠ سنت لكل مائة دولار من الدخل القومى قرر أن يتراجع إلى معدل ١٠ سنتات فقط واليابان لم تتجاوز البخل الأمريكى إلا بمعدل الضعف.

ولكن اليأس ربما تمكن من الفقراء إزاء الإحسان العالمى أو العولمى بعد تولى ذئب اليمين الأمريكى الجديد «ودلفوويتز» رئاسة البنك الدولى حتى أن أحد المتشائمين الفرنسيين وهو «جورج مونبيوت» يقول «تعيين ولفوويتز هو أمر طيب لأنه يسلط الضوء بشكل عميق على الطبيعة غير الديمقراطية والظالمة لعملية اتخاذ القرار فى البنك. فرئاسة البنك سوف تقوم بمثابة تذكير مستمر بأن هذه المؤسسة، التى تدعى وسط الأمم أنها تضغط من أجل ممارسة «حاكمية خيرة وتحول ديمقراطى» تدار كأنها مقاطعة ملكية من العصور الوسطى».

وهو معنى يتردد فى أذهان الاقتصاديين فى العالم الثالث منذ فترة متسائلين عن سبب فقر الدول الفقيرة هل يعود إلى سياسات عالمية ساهمت فى إفقارهم أم يعود إلى قصور فى أدائهم وفكرهم وثقافتهم هم تحول دون تجاوزهم عتبة الفقر وبخاصة وأن العديد من الدول الفقيرة انتهجت النظام الرأسمالى منذ عقود لكنها لم تتطور وكأنما كتب لها أن تبقى موردًا للمواد الخام وسوقًا للمنتجات الصناعية للدول الغنية.

وحتى وفق المعادلة الأخيرة بقى أن هناك عدالة غائبة فى هذا التبادل وفق شروط وضعتها الدول الغنية وفرضت على الدول الفقيرة بخست سعر المواد الخام على الرغم من عدم تجددها وغالت فى سعر المنتج

الصناعى المتجدد فالسعر العادل للبترول أنعش الدول المنتجة له لكن ذلك ينبغى أن يحدث للفوسفات والنحاس والقهوة والكاكاو والبوتاس وغيرها من الأصناف التى تعيش على إنتاجها الدول الفقيرة فالأردنيون يضحكون بألم لأنهم يشترون رابطة العنق الأوروبية بثمن طنين من الفوسفات.

وهو المعنى الذى دعى إلى قيام تكتل من الدول الفقيرة داخل منظمة التجارة العالمية للمطالبة بتنازلات أكبر بشأن الإصلاح الزراعى فى ضغط أكبر على الدول الغنية فى محادثات التجارة العالمية.

ولا نترك هذا الاستعراض لأوضاع الفقراء فى العالم حتى نرصد بعضًا من آثاره على الثقافة فى هذه المجتمعات الفقيرة وبخاصة فى مجال الكمبيوتر والإنترنت.

إذ تشير الدراسات إلى أن ٤٠٪ من كمبيوترات العالم تقع فى أمريكا واحد من كل ثلاثمائة إفريقى يمتلكون خط هاتف، ثلث الرجال فى ثمانية بلدان غنية، ممن هم فى العشرينيات من عمرهم، يمتلكون هواتف محمولة، وترتفع هذه النسبة لتصل إلى ١٠٠٪ فى الدول الإسكندنافية.

إن أربعة أخماس مالكى الهواتف الخلوية على الأرض هم فى العالم الغنى، فى بنجلادش هناك خط هاتف واحد لكل ٢٧٥ شخصًا ٩٠٪ من قرى البلد البالغ عددها ٨٦ ألف قرية ليس لديها أية وسيلة للوصول إلى خدمة الهاتف على الإطلاق إن عدد أجهزة الكمبيوتر فى الدول المتقدمة هو ٣١٥ جهازاً لكل ألف فرد. عدد الأجهزة فى إفريقيا جنوب الصحراء هو أقل من الواحد الصحيح لكل ألف فرد وبالنسبة للإنترنت فقد نمى عدد المستخدمين خلال العقد الماضى من ٤٠٠ مليون إلى مليار مستخدم ٨٠ ٪ منهم الدول الغنية ونصيب إفريقيا جنوب الصحراء أقل من ١ ٪ وقبل هذا كله يوجد فى العالم ٨٥٠ مليون بالغ يعيشون فى القرن الحادى والعشرين.

إن العالم وفقًا للأرقام والإحصاءات سوف يقودنا إلى يأس لا فكاك منه لكنه ربما كان يأسًا مضللا فرضته المعايير العالمية (الغربية) وهى

معايير وضعتها مؤسسات دولية ارتكنت على ظروف ورؤى العالم الغربى الغنى، ومن حقنا أن نضع المعايير التى تتناسب مع طبيعتنا وحاجاتنا الاقتصادية والسياسية ومعطياتنا الاجتماعية والبيئية فكما يقول إدوارد جولد سميث: «إن المجتمعات ما قبل الحضارة الغربية كانت تحاول أن تكيف نمط حياتها على حسب محيطها وبيئتها، وعندما جاءت الحضارة الغربية أرادت أن تكيف المحيط والبيئة وفق نمط حياتها».

لأن تعميم النمط الغربى مستحيل علميًا فالبحث عن الخصوصيات الثقافية وإحيائها هو إثراء للثقافة الإنسانية والشعب المصرى على عمق تجربته التاريخية والإنسانية يستحق التوقف والبحث والتدقيق فى منظومته الثقافية والتى كابد بها المعايش وغالبها، واستمر عبر أقدم تجربة للعمران الإنسانى جسدها فى موروثه الشعبى وتركها حية فى لغته وأمثاله فالفقراء فى مصر، وهم طائفة من فقراء العالم، متميزون بحكم التاريخ والتجربة الإنسانية والحضارية الطويلة وتناول ثقافتهم هو محاولة للإمساك بالخيط الإنسانى الضائع وبسر من أسرار بقاء الإنسان حيا على هذه البسيطة على الرغم من كل ما يمكن أن يرميه به الدهر من عوز وعنت وحاجة مسيسة.

ويبقى التحدى أمام دراسة جديدة فى حقلها تحاول أن تمسك بآليات فقراء المصريين فى التعبير والتنفيس والامتصاص لما يواجههم عبر وسائل مبتكرة خلفت وراءها الأمى المصرى الذى يختلف عن كل الأميين فى العالم فهو ليس غبيًا ولا متخلفا ولا ساذجًا هذا الأمى هو الذى مارس السياسة قبل أكثر من خمسين عاما وخدع المرشحين وآكل رشاهم وصوت لمن يريد وكانت الحركة الوطنية منذ ثورة ١٩١٩ تعتمد على حصافته التى لا تخطئ والتى لم يتمكن أبدًا فى أى انتخابات نزيهة أن ينجح الموالون للاستعمار الإنجليزى أو القصر أو من هم ضد مصالح الشعب.

كيف إذًا تألفت منظومة الوعى لديهم؟ وكيف تناقلوا الحكمة والقدرعلى المناورة والتكيف الرهيب مع كل المتغيرات عبر موروث لا

ينقطع من الحيل والآليات المطورة؟ كيف يمكن حساب موقف فقراء المصريين السياسى؟ وكيف يمكن أن نتوقع ردود فعلهم واتجاه تطورهم فى عصر الانفتاح الثقافى الكاسح؟ إلى أين سيذهبون؟ وهل تصمد أدواتهم المخفية فى أعماقهم أمام أدوات الإعلام العالمى والمحلى التى تصنع ثورة جديدة فى العالم بأثره.

لعل كل هذه التساؤلات تشرح لماذا ندرس ثقافة البسطاء؟.

* * *

مدخل إلى ثقافة الفقـراء

بقلم: ياسر القاضى

إيمانًا بوجود تمايز واضح بين ثقافة النخبة والثقافة الرسمية من جانب، وبين ثقافة الجماهير من جانب آخر على مستوى البنية وآليات التغير والمضامين القيمية والمعرفية والفنية وغيرها..

تم اختيار موضوع ثقافة البسطاء وهو مفهوم جديد يحاول اكتشاف بنية ثقافة الجماهير العربية وهو بذلك يستوعب ويتجاوز مفهوم الثقافة الشعبية انطلاقًا من التقدير الكبير لهذه الثقافة التى تشكل ثقافة عموم المصريين وبذلك أصبحت المداخل الفلكلورية والأنثروبولوجية غير معبرة عن رغبة المركز فى محاولة بناء نموذج يفسر ثقافة الجمهور من خلال مدخل علمى جديد يتم اكتشافه من مجريات العمل فى دراسة مكونات الثقافة ووفق طبيعتها الخاصة بمعنى أن تقدم الثقافة نموذجها العلمى بدلا من صبها فى النماذج المتداولة والمستخرجة من التنظيرات الجاهزة والمنقولة باعتبارها دراسة كيفية تغير مناهجها وفق سير الدراسة انتهاء إلى المنهج المناسب:

على أن يكون المستهدف من الدراسة مبدئيًا هو:

١- محاولة تأسيس مفهوم ثقافة البسطاء كمفهوم علمى جديد يعبر عن ثقافة الجماهير العامة فى إطار من التقدير لهذه الثقافة على

المستوى العلمى والأدبى متجنبًا المداخل المعتادة والتى تعامل ثقافة الفقراء كحفريات أو طرائف:

٢- الكشف عن جذور ثقافة البسطاء.

٣- الكشف عن المؤثرات المختلفة فى ثقافة البسطاء.

٤- الكشف عن مكونات ثقافة البسطاء.

٥- الكشف عن تجليات الفقراء فى المجالات الآتية:

أ- الأمثال الشعبية.

ب- العمارة.

ج - الفنون الشعبية.

د- العادات والتقاليد.

هـ- منظومة القيم والمعايير والسلوك.

و - الملابس.

ز- المأكولات.

ح - اللغة.

وقبل الخوض فى شرح المصطلح كما قصد إليه إصدارنا، فإننا نؤكد أن التسمية إنما ترتكز على مرتكز متناقض فى ظلاله الدلالية كل منهما الأول هو المعيار الدولى للفقر، والذى يجعل كل من تنخفض دخولهم عن دولارين للفرد يوميًا من الفقراء، وهو معيار يجعل نسبة كبيرة من الشعب المصرى بمعلميهم ومثقفيهم ومبدعيهم من الفقراء بالمعيار الدولى. وهى مفارقة لأن هذا الاحتياج الذى يجعل المرء وفقًا للتقديرات والتنظيرات الدولية فى حاجة إلى دعم ومساعدة، فإن المواطن فى مصر وممن يشملهم هذا التقدير بالفقر مبدعون ومنتجون ولهم أساليبهم المبتكرة التى تضاف إلى رصيد الإنسانية فى رحلتها للتكيف مع هذا العالم بحلوه ومره

وإن منتجى الثقافة فى مصر هم فى الغالب الأعظم ممن تعتبرهم التقديرات الدولية من الفقراء والأكثر أن المجتمع يعيش ثقافيًا على إنتاج الفقراء.

وتكتسب ثقافة البسطاء أهميتها من جوانب عدة فمن حيث الموروث يعد الفقراء بثقافتهم الشعبية غير النخبوية هم الرصيد الحى للتراث الشعبى الذى تكون عبر ترسبات من أزمنة متعاقبة تمثل الحقب التى مر بها المصريون وتركت بصمتها على مكونات ثقافة الفقراء فيما يكشف عن الجوانب الأصلية والفرعية فى تكوين الشخصية المصرية.

وأهمية ثقافة البسطاء تمثل أيضًا نموذجًا لثقافة محلية ذات مغزى إنسانى إذ إنها ثقافة تكونت عبر تجربة تاريخية طويلة جدًا مما يعطى الاطلاع عليها قيمة علمية مهمة إلى جانب أن الاطلاع على ثقافة المصريين له أهمية خاصة فى التنبؤ بالسلوك المجتمعى إزاء المتغيرات المختلفة.

وإنه من الأهمية بمكان أن نفض الالتباس الكبير بين مفهومنا لثقافة البسطاء الذى نسعى إلى تأسيسه وبين مفهوم ثقافة الفقر على ما بينهما من تداخل وتمايز فمفهوم ثقافة الفقر والذى تم إطلاقه مؤخرًا بدا منذ عقود على يد أوسكار لويس فى دراساته عن المجتمع المكسيكى، والتى تمحورت حول حياة الشعوب الريفية فى البيئات الحضرية حيث يذهب لويس إلى أن الفقر ليس مجرد حرمان اقتصادى وتفككًا اجتماعيًا لكنه يخلق أسلوب حياة له صفة الانتظام والرسوخ النسبى ويحدد خصائص ثقافة الفقر بأنها:

نقص مشاركة الفقراء فى النظم الاجتماعية الرئيسية ووجود أنماط خاصة للحياة العائلية بينهم وللعلاقات الجنسية ولأساليب تنشئة الأطفال إلى جانب اللامبالاة والاستسلام للواقع وللمستقبل المنبثق عنه

وعند لويس أيضًا فإن ثقافة الفقر تنهض على العديد من العوامل الاقتصادية فى المحل الأول يليها عوامل اجتماعية نتيجة تفاعل الفرد مع

مجتمعه ثم عوامل نفسية تتعلق بتوافق الفرد مع نفسه ومع مجتمعه اجتماعيًا ونفسيًا، وهى عوامل ليست منفصلة ولكنها متداخلة وتؤدى لشعور الفرد بالتدنى وضياع قيمة التفاعل وثقافة الفقر، تستلزم بعض الشروط: ارتفاع نسبة البطالة، وانخفاض الأجور، وعدم توافر المنظمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وتأكيد بعض القيم لدى الفئات القادرة، مثل أن الوضع الاقتصادى المنخفض يرجع لعدم الكفاءة الشخصية.

ونتيجة رواج تلك الثقافة، تصاحب أفراد المجتمع حالة من الإحباط العام، مع رواج الحلول الفردية؛ ولذلك فهو يرى أن إلغاء الفقر أسهل من إلغاء ثقافة الفقر، وبالتالى فلا حيلة إلا إعادة النظر فى الهياكل الاجتماعية، كى تصبح أكثر تنظيمًا أو مشاركة فى المنظمات الاجتماعية، بالإضافة إلى التمسك بقيم المشاركة والترابط بداية من الأسرة إلى المجتمع.

ويذهب عبد الرحمن سعد إلى أن ثقافة الفقر تجسد واقعًا يائسًا أهم خصائصه: انخفاض المستوى المعيشى وما يستتبعه من جوع وعرى وأمية وجهل ومرض، واضطراب الحياة الاجتماعية وتعاظم اللاوعى والمعاناة وتفشى البطالة خاصة فى القوى القادرة على العمل والتشغيل.

أما حامد عمار فإنه يرى أن ثقافة الفقر هى نتاج مؤثرات عولمية على الطبقات الدنيا التى يتشكل منها ثقافة الفقر لما تفرضه من تزييف وعى الطبقتين الوسطى والعليا وفرض خضوعها لنتاج برامج ووسائل الاتصالات والمعارف الحديثة، ومن هذا النتاج تخلخل مقومات التماسك الاجتماعى، والدخول فى حومة الصراع بين الأجيال، وظهور ثقافة العوز المادى والنفسى والاجتماعى، وتفسخ القيم المكتسبة من الدين كقوة دافعة للنهوض بالمجتمع.

وهنا نلاحظ أن ما طرحه أوسكار لويس وتم تداوله حول مفهوم ثقافة الفقر هو نمط سلبى من الثقافة يطبق مفهوم العنف الثقافى الذى طرحه

بيير برديو ويتمثله تجاه طبقة من المهمشين العاطلين الذين يعانون من ضيق الفرص للحياة والرفاهية ثم أنهم يواجهون منظومة فكرية ترسخ هذه الحالة فى ممارسة لعنف ثقافى تجاههم ليتم إعادة إنتاج بنية التفاوت الطبقى فى المجتمع .

ومن هنا جاء مفهوم أوسكار لويس حول أن الفقراء فى العالم الثالث يختلفون عن الفقراء في الدول المتقدمة إذ إن فقر الثقافة فى العالم الثالث هو الفاعل الأهم من الفقر المادى وهو الأكثر تأثيرا ولذ فهو يقول:«إن إلغاء الفقر أسهل من إلغاء ثقافة الفقر».

ومن هنا فإن مفهومه لثقافة الفقر يمثل العلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع، وبين الفرد وتوقعه المستقبلى لأمور حياته وحياة أبنائه من بعده.

ورغم أن جانبًا كبيرًا من أسباب إعادة طرح مفهوم ثقافة الفقر يعود إلى نقد مضمر أو صريح من جانب فصيل من المنظرين الاقتصاديين فى العالم الثالث لصندوق النقد والبنك الدوليين ولترويجهما لسياسات اقتصادية تقوم على التنافس الحر وآليات السوق باعتبارها الوصفة الوحيدة للعلاج تقدم لدول العالم الثالث بشكل عام ودون تمييز أو مراعاة لعدم تمكن هذه البلاد ثقافيًا من مواكبة ذلك وعدم الإفادة من رصيدها الثقافى الذى يشجع التعاون والتكامل بدلا من التنافس ومن هنا نجد رينيه ريمون يقول«إن البنك الدول ما فتئ يرثى الفقر المطلق لهذه البلدان بدون أن يرسم أية علامات استفهام بشأن مسئولياته فى ذلك».

وهذا المفهوم لثقافة الفقر ليس مفهومًا شعبيًا بل هو مفهوم تنظيرى يرصد السياسات والفكر الاقتصادى ويكشف عما اعتراها من عوار تمثل فى إغفال معطيات ثقافية محلية فى بعض بلدان العالم الثالث ولعل هذا هو الاستخدام الأكثر شيوعًا لمفهوم ومصطلح «ثقافة الفقر» وهو ما يؤكده عادل سعد إذ يرى أن من أخطر مكونات ثقافات الفقر، الإيحاء بأنه لا يمكن النهوض بالاقتصاديات الوطنية إلا فى إطار منافسات ربحية

وإشاعة اقتصاد السوق بوصفه المحفز الذى لا بديل له إذا أريد لأى اقتصاد أن ينهض، وقد أخذت هذه الثقافة أبعادها فى أكثر الاقتصادات الوطنية عوزًا، الأمر الذى عطل العديد من التطلعات التعاونية التى هى أساس نجاح للتنمية لو طبقت أخلاقياتها بصورة جذرية، ومن خلال قوانين اجتماعية معتمدة كعرف وليس كتشريعات للعقوبة والثواب.

وبمعنى أوضح إن إهمال ثقافة الفقر طوحت تلك التطلعات واستبدلت المعرفة الاقتصادية التضامنية بالمعرفة الاقتصادية التنافسية الصراعية، الوضع الذى ترتب عليه على الصعيد العالمى الدخول فى خصومات اقتصادية دموية.

وهنا ينبغى التأكيد على أن مفهوم ثقافة الفقر يختلف عما تهدف إليه دراستنا حول مفهومنا الجديد «ثقافة الفقراء» إذ إن ثقافة الفقراء يطلق للتعبير عن منظومة ثقافية متكاملة وحية لدى الجماهير المصرية منظومة متفاعلة ومتجادلة مع الواقع والتاريخ والبيئة والمعتقد والمتغيرات الأخرى فى الساحة المصرية.

هذه المنظومة المركبة لا ندعى أننا على قدرة تامة على الإحاطة بكل مفرداتها وأبعادها إذ إنها منظومة من أكبر وأعقد المنظومات الثقافية الشعبية؛ لأنها تخص شعب هو أقدم المجتمعات المنظمة على وجه الأرض وإنما نسعى إلى تقديم محاولة ومقاربة منهجية لأضلاع ومعددات هذه الثقافة إلى جانب مساحة من ملامحها المميزة باعتبارها إرشادات مهمة لمن يعبر معنا أو من بعدنا على طريق دراسة منظومة ثقافة المصريين.

ولأن اكتشاف منظومة القيم المعتمدة والشائعة لدى المجتمع المصرى يحتاج بعد هذا الاستطلاع لاراء الخبراء والمنظرين حول روافده إلى مسح ميدانى موسع نأمل أن نتمكن من القيام به فى الدراسات القادمة عن ثقافة الفقراء والتى سوف تختص بجانب من جوانب هذه الثقافة مثل منظومة القيم الشائعة فى دراسة ميدانية موسعة.

ويبقى فارق جوهرى بين مفهوم ثقافة البسطاء كما نطرحه وبين المفهوم السابق لثقافة الفقر إذ أن المنظرين لثقافة الفقر انطلقوا من رؤية مرجعية تتمثل فى نموذج الثقافة العام أو الشائع أو «ثقافة الوفرة» باعتبارها مرجعيات يمكن كشف ما يمكن اعتباره سلبيات فى ثقافة الفقر مقارنة بثقافة الوفرة.. وهو منطلق يضع ثقافة المجتمعات الغنية (فى الغرب غالبًا) فى وضع معيارى بالنسبة لثقافة الفقر التى سوف تتكشف مساوئها تلقائيًا بمقارنتها بالثقافة المرجعية.

بينما تختلف المنطلقات فى مفهومنا لثقافة الفقراء حيث لا توجد حالة مرجعية أو معيارية من خارج النموذج وبالتالى فإن الوصف العام كان أبرز أهداف الدراسة للكشف عن المكونات والعلاقات داخل النموذج الثقافى ذاته وكذلك اكتشاف الجذور المختلفة للظاهرة الثقافية دون أن نرهق أنفسنا فى ملاحقة نموذج مرجعى مستمد من ثقافات أخرى واكتشاف بنية ثقافة الفقراء طبيعة المجتمع المدروس حيث إن فهم البنية الثقافية هو مقدمة طبيعية لفهم توجهات ومواقف المجتمع المختلفة من أى ظواهر تواجهه.

ومن هنا فإننا نجعل نموذج ثقافة الفقراء فى المجتمع المصرى هو النموذج المرجعى لذاته ولدراسته دون الحاجة إلى صبه فى قوالب التحليل الجاهزة ودون رده قصرًا نماذج الوفرة كنماذج معيارية ولثقتنا فى التجربة التاريخية الطويلة التى عاشها المجتمع المصرى والتى تشتمل وفق منظومته الثقافية على تجارب وإبداعات كبيرة فى مواجهة الكوارث والمجاعات وضيق العيش فإن ثراء هذه التجربة وتاريخيتها يمكنها من أن تكون مرجعية على الأقل بالنسبة لدراسة تتناول «ثقافة البسطاء».

ومن علامات الاستفهام التى تثار حول مفهومنا لثقافة البسطاء المنطلق والتوجه الأيديولوجى إذ مال معظم من سمع المصطلح إلى وقوعنا فى أثر النموذج الماركسى باعتباره الأميل إلى قضايا الفقراء والعناية بها واعتمادها كعامل فاصل فى التحليل والحقيقة أننا لم نقع فى أثره أو فى

أثر أى من التوجهات التاريخية وإنما نحن أيضًا لسنا فى حالة قطيعة مع النموذج الماركسى الإسلامى أو الليبرالى أو أى من التوجهات الفكرية لأننا نظن أننا قادرون على الإفادة من الجوانب المضيئة فى كافة التيارات وباعتبار انتمائنا إلى جيل مختلف عن لحظات الصدام الشهيرة بين هذه التوجهات فإن لنا الحق فى الارتكاز عليها جميعًا دون خصومة مفتعلة أو صداقة مفروضة مع أى منها.

ومن هنا فإننا نلفت النظر إلى أن العناية بقضايا الفقراء ليست هدف هذه الدراسة فهو مجال آخر لدراسات أخري ليست بجديدة وإنما ما يعني به هذا الإصدار هو الاهتمام بثقافة الفقراء وليس قضاياهم أو قضايا الفقر أو الإفقار في مصر إلا إذا كان هذا الفقر أو هذه القضايا قد أدمجت في المنظومة الثقافية.

إننا إذًا معنيون من منطلق ثقافي بثقافة البسطاء، وليس بقضاياهم وهذا الإشكال من أهم الإشكاليات وأكثرها إثارة للالتباس إذ يظن الكثيرون إننا قد هدفنا إلي الدفاع عن الفقراء والمطالبة بالعدالة الاجتماعية ومكافحة الفقراء والإفقار وتردى الأوضاع المعيشية وهذه أشياء مهمة لكن لا علاقة لإصدارنا هذا بها إن هذا الإصدار يطلق مصطلحًا جديدا ليعبر عن تصور جديد يحاول أن يقدم رصدًا جديدًا لثقافة المصريين إذًا نحن نحاول أن نمسك بمنظومة ثقافة المصريين من حيث الجذور والمكونات والمؤثرات والتجليات المختلفة

لماذا الفقراء؟ لأن عمق التجربة المصرية حضاريًا وثقافيًا ارتكز على هؤلاء الفقراء فصار الفقراء بثقافتهم غير النخبوية هم المعين الأوضح للرصيد الثقافى والحضارى المتوارث حيث المؤثرات الوافدة الحديثة أقل تأثيرًا من شرائح المجتمع الأخرى والتى تكونت لاحقًا بفعل التطورات الاقتصادية والسياسية عبر النصف قرن الماضى كما أن تمثل النماذج الغربية لم يكن متجذرًا على المستوى الشعبى إذ مال الشعبى دائما إلى الاختلاف عن النخبوى فى جملة من القضايا والإشكاليات مثل الموقف من

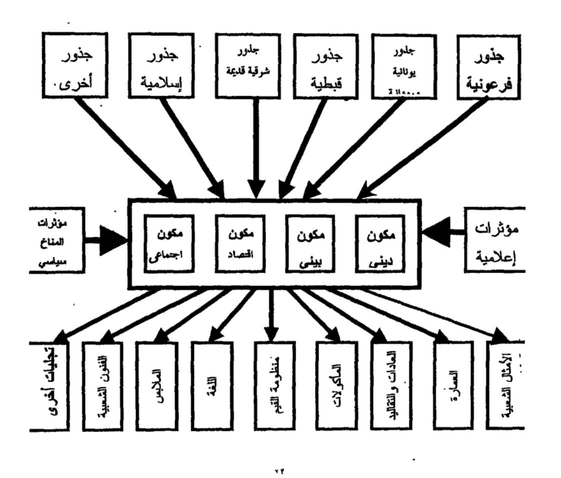
الهـوية أو التـراث أو الوافـد أو الـدينى أو الاقـتـصـادى أو غـيـرهـا من المتغيرات.

ومن هنا كان نموذجنا المفترض لتفسير الثقافة الشعبية يقوم على جملة من العوامل المتداخلة بدءًا بالجذور التى قدمت ميراثًا شعبيًا مازال حيا فى نفوس المصريين وفى ممارساتهم وهنا لا يعنينا من الجذور إلا ما بقى فى نفوس المصريين الأحياء فليست هذه الدراسة موجهة لدراسة الآثار الفرعونية أو القبطية أو غيرها ولكننا نهدف إلى الوقوف على التراث المترسب فى الشخصية المصرية وجذور هذا التراث من كل حقبة تاريخية عاشها المصريون وتركت بصمتها على التكوين المصرى الحالى، ويفترض أن هذا الشعب الذى عاش على هذه الأرض عبر آلاف السنين ومرت عليه حقب من الحكم والاقتصاد والدين متنوعة أشد التنوع وتعرض للحروب والمجاعات وشيد الصروح الزاهرة والمعجزات اللافتة فى العمران الإنسانى عبر تاريخه، فإننا نسعى للوقوف على ما تركته هذه العصور حيًا داخل نفوس المصريين يمارسونه بوعى منهم أو بغير وعى.

كما أن رصد مكونات ثقافة البسطاء يقدم مستوى تالى للتحليل يقوم على رصد ملامح ثقافة الفقراء وردها إلى مكونات رئيسية مثل المكون الدينى والمكون الاقتصادى والمكون الاجتماعى ثم البحث عن تجليات ثقافة الفقراء أشكال التعبير عن ذاتها سواء فى العادات والتقاليد أو فى الفنون الشعبية أو فى الملبس والمأكل أو فى اللغة ذاتها التى يستخدمها الجميع كما حاولنا أن نقدم رصدًا لإشكاليات مختلفة حول ثقافة البسطاء مثل علاقة ثقافة البسطاء بالمشاركة السياسية وتأثير الإعلام فى ثقافة الفقراء.

ويبقى أن نقرر أن هذا النموذج المقترح نموذج مفتوح على إسهامات مختلفة تصدر عن مركز دراسات قناة النيل الثقافية أو عن أية جهة أو مؤسسة فى المجتمع العلمى العربى ونحن نضع نموذجنا غير النهائى لنستكمله فيما بعد بمزيد من الدرسات التى تتناول التفاصيل المختلفة فى

نموذج لبنية ثقافة الفقراء



جذور أو مكونات أو تجليات ثقافة البسطاء ويبقى أننا نسجل تجاربنا على المداخل المطروحة لدراسة المجتمعات والثقافات الشعبية الحية باعتبار أنها مداخل صممت لأغراض مختلفة عن أهدافنا وتحيزاتنا التى نسجلها فى المقدمة إعلانًا لانتمائنا للمدرسة النقدية والتى كفلت لنا منهجيًا التخلى عن إدعاء الموضوعية الوهمية إزاء الذات وإنما التزامًا بإعلان التحيزات والمسلمات المسبقة وإعلانها للقارئ ليتمكن من اكتشاف تناقضاتنا إن وجدت كما سنعمد نحن إلى كشف تناقضات الآخرين مع الواقع ومع المعلن ومع أنفسهم.

* * *

• جــذور

الجذور التاريخية

صبرى العدل

المفهوم اللغوى للعامة

كريمة محمد

التراث الفرعونى فى وعىّ الجماهير

صلاح الخولى

تأثير الحقبة اليونانية والرومانية

أحمد عثمان

الجذور التاريخية

صبرى العدل

ثقافة أى مجتمع هى محصلة الأفكار السائدة بين أعضائه، وتظهر هذه الثقافة فى السلوك الجمعى للمجتمع، والمظاهر الاجتماعية المختلفة، بالإضافة إلى درجة ومحصلة التعليم فى هذا المجتمع، ومدى اتساق هذه الثقافة مع البيئة الجغرافية والمجتمعية التى يعيشها.

ولكل ثقافة مظاهر وأبعاد تختلف من جماعة إلى أخرى، حيث تؤثر فيها عوامل عديدة، لكن لكل ثقافة جذور ضاربة فى أعماق التاريخ تختلف من شعب إلى آخر وفق الظروف والأحداث التاريخية التى مر بها كل مجتمع، حيث إن هذه الظروف والأحداث تشكل العديد من مكونات ثقافة أى مجتمع.

وإذا كنا بصدد دراسة جذور ثقافة البسطاء، فإن أول سؤال يتبادر إلى أذهاننا هو: هل يمكن اعتبار الثقافة الشعبية مصدرًا معرفيًا لدراسة التاريخ؟. بالطبع لا يمكن بحال من الأحوال اعتبار الثقافة الشعبية مصدرًا من المصادر المعرفية لدراسة التاريخ، حيث إن توظيف هذه الثقافة كمصدر معرفى لدراسة التاريخ يوجه إليه العديد من الانتقادات منها: أولا، أنه يصعب تحديد النشأة التاريخية لبعض عناصر الثقافة الشعبية،

وبالتالى يصعب إيجاد ربط منطقى مقبول بينها وبين فترات أو مراحل تاريخية بعينها يمكن اعتبار هذه العناصر انعكاسًا وتصويرًا لبعض أبعادها الاجتماعية والحضارية، لكن هذا لا ينفى أنه يمكننا تحديد بعض عناصر الثقافة الشعبية التى ترجع إلى حقب زمنية بعينها، فثمة عناصر ثابتة ومتغيرة نسبيًا يمكن إرجاعها إلى مراحل تاريخية بعينها كالعصر الفاطمى أو العثمانى أو الاستعمار الأوروبى. ثانيًا، مدى صدق وموضوعية البيانات التى يمكن الحصول عليها من مكونات الثقافة الشعبية وعناصرها، ويذهب البعض إلى أن هذه البيانات تعانى من التداخل والتأثير بدرجات متفاوتة فى بعض العناصر الثقافية، إلا أنه تأثير ليس قاصرًا على الثقافة الشعبية، بل إن هذا التفاوت قد يوجد فى المصادر التاريخية الأخرى.

ويؤكد د. عبد الباسط عبد المعطى فى كتابه حول التدين والإبداع: الوعى الشعبى فى مصر، على أن الثقافة الشعبية بخصائصها وإنتاجها، وبما تحمله مضامينها من معلومات اجتماعية وسياسية وحضارية واقتصادية، حول الجماعة التى أنتجتها أو تبنتها، يمكن أن تثرى وعينا التاريخى بما تعطيه من معلومات تعين فى دراسة التاريخ الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والحضارى للمجتمع ككل، كما إنها تسهم فى صياغة فرضيات علمية حول الشخصية الجماعية العربية بصفة عامة، يساعد اختبارها علميًا، خاصة ما يصدق منها، فى توفير معلومات واستخلاصات ضرورية لفهم التاريخ العربى.

فبالإضافة إلى المصادر التاريخية المعروفة والمألوفة مثل الحوليات التاريخية وكتب المؤرخين وكتب التراجم والطبقات، هناك مصادر تاريخية أخرى للثقافة الشعبية وثقافة الفقراء منها كتب الرحالة سواء الأجانب أو العرب، والكتب الأدبية والملاحم والسير وكتب الأمثال، هذا بالإضافة إلى ما تناقله الناس من مأثورات وسلوكيات تعبر عن مضامين هذه الثقافة.

والمجتمعات والحضارات التى ظهرت على مدى التاريخ فى سائر أنحاء العالم كان بينها نوع من التأثير والتأثر والتواصل فى الوقت نفسه، فكل

حضارة تُبنى على ما سبقها من الحضارات؛ لذلك نرى العديد من المؤثرات فى كل حضارة، وهذه المؤثرات غالبًا ما تكون من حضارات سابقة إضافة إلى المؤثرات المحلية والإقليمية.

فمنذ بدايات التاريخ وتأسيس نظام الأسرات فى مصر، وجد نظام طبقى فى مصر القديمة، فشكلت طبقة الحكام الطبقة العليا فى هذا النظام، بينما كان الكهنة وكبار الموظفين والكُتَّاب فى مرتبة تلى الحكام،ثم بقية الشعب فى طبقة واحدة، وكان الفقراء يشكلون شريحة مهمة من شرائح هذا الشعب، ولكن فى معظم الفترات كانت الطبقة العاملة أو الفقيرة تؤمن بأن الملك الجالس على العرش هو القائد؛ وهو صاحب السلطة فى إدارة شئون حياته بالكامل ويثق فيه ثقة كبيرة، وبالتالى نجد أنه كان من الأفضل للملك أن تكون سلطته مطلقة، ولكن عليه أن يعمل لصالح شعبه، ويسند النظام له مسئولية كبيرة، فكان المصرى يخلص لهذا الحاكم إخلاصًا كاملاً، ويضحى بكل شىء، ويعمل كل شىء لهذا الحاكم، طبعًا هناك فترات كان يحدث فيها خلل اجتماعى نتيجة استغلال الطبقة العليا للفقراء والكادحين فيحدث نوع من الاضطرابات وشكل من أشكال الثورة، مثلما حدث فى نهاية عصر الدولة القديمة، حدثت ثورة اجتماعية أيضًا فى نهاية عصر الدولة الحديثة؛ نتيجة خلل أو عدم قيام الدولة بواجباتها، فحدثت السرقات التى تعرف باسم «سرقات المقابر»، إذ إن المصرى يقدر السلطة الحاكمة طالما تعمل لصالحه ومخلصة له، وبالتالى يعطى عطاءً بلا حدود، وهذا بالتالى يفسر الإنجاز الضخم الذى قام به المصريون القدماء، فقد كانت الإدارة إدارة منظمة وقوية وحاسمة ومخلصة فى الوقت نفسه، وترتب على هذا إنجاز العديد من المشروعات الضخمة، التى كانت شيئًا عاديًا بالنسبة للمصرى القديم وليس كما يقال بإن أناسًا من عوالم أخرى هى التى أتمت هذه الإنجازات أو غيرها، وإنما كان وراء ذلك جهد منظم ومخلص، وحقق ما حققه المصريون القدماء، والواقع أنه يمكن بالفعل تحقيق العديد من الإنجازات فى أيامنا هذه،

شـريطة توفـر الإخـلاص والعـزيمـة القـوية والتنظيم والعلم القـائم على المعرفة والذى كان يمتلكه المصريون القدماء.

ومن أكثـر فتـرات التاريخ المصـرى القـديم بروزًا من حيث التـغـيـيرات السياسية والاجتماعية هى فترة الهكسوس، فقد تعرضت لهجمة قوية وشرسة لم تكن تتوقعها، وهى هجوم جنس غاز قوى يمتلك كل مقومات القوة، جاء فى شكل جحافل بأعداد ضخمة، وقد عرفوا بعد ذلك باسم الهكسوس، ويبدو أنها كانت هجرة شعوبية من أواسط أوروبا، وقد اجتاحت تقريبًا كل منطقة الشرق الأدنى القديم وخربتها تقريبًا، ونزلوا مصر واحتلوها؛ لأن مصر كانت من أغنى دول المنطقة، وقد استقروا فى منطقة شرق الدلتا، وبدءوا تدريجيًا فى الاستيلاء على المدن المصرية واحدة تلو الأخرى حتى وصلوا إلى طيبة»، التى كانت إمارة مستقلة منفصلة، فقاومت أمام الهكسوس، ويبدو أن أهل طيبة بعد فترة من الفترات جاءتهم النزعة الوطنية ورأوا أنهم لابد أن يحرروا مصر ويخلصوها من هذا العدو الأجنبى، وبدءوا بالفعل يستعدون ويحملون السلاح ويقوون أنفسهم تدريجيًا حتى شعر الهكسوس بذلك فتحرشوا بهم، وأرسل ملك الهكسوس رسالة فيها نوع من الاستفزاز فيها فكرة خبيثة تقول لهم «إن أصوات أفراس النهر تزعجنى ولا أستطيع النوم «ويطلب التخلص منها، وحاول حاكم طيبة أن يتفادى هذه المشكلة بشكل ودى وأكرم رسول الهكسوس، لكن لم يكن هناك شك فى أن الهكسوس كانوا ينوون الحرب، ويذكرنا هذا بإسرائيل ومحاولاتها لاستفزاز مصر وغيرها من جيرانها للدخول فى حرب ربما لا تكون فى توقيتها، وهذا هو ما حدث بالفعل، ولكن المرحلة الأولى انتهت بالهزيمة.

وبعد وفاة حاكم طيبة حمل أبناؤه لواء الكفاح ضد الهكسوس، فبرز منهم حاكم يدعى «كاموس» أو «أحمس» بعد ذلك، الذى استطاع تشحيذ همة المصريين فى التخلص من الهكسوس، وتحقق لهم هذا الأمر، وتم القضاء على الهكسوس وتدمير عاصمتهم، ثم مطاردتهم خارج بلاد الشام

أى خارج فلسطين، حاصروهم فى فلسطين ثم قضوا عليهم، لكن المهم فى هذه الحرب أو معركة التحرير، كما يطلق عليها، أنها بالفعل خلقت نوعًا من الوعى القومى لدى المصريين، وأكدت لهم أن خير وسيلة لحماية مصر ـ التى كانت مستهدفة بشكل مستمر بسبب رخائها وثرائها ـ هو التوسع خارج حدودها، وبدأت بالفعل ما نطلق عليه اسم عصر الإمبراطورية، هذه الفترة خلقت نوعًا من الوعى الاجتماعى، ونوعًا من الوطنية الشديدة ظهرت فى أسماء ثلاث ملكات من ملكات حرب التحرير، حيث لعبن دورًا غير عادى فى هذه المعركة، والملكات هن الملكة الأم أو الجدة الأم المعروفة باسم «تيتى شيرى» وهى أم جدة الملك أحمس؛ ثم أمه الملكة «ياحتب» التى عمرت ما يزيد عن مائة عام تقريبًا، وزوجة أحمس نفسها واسمها «أحموسا نفرتارى»، والثلاث سيدات لعبن فى الحقيقة دورًا كبيرًا وبخاصة الملكة الثانية «ياحتب»، ويبدو أن المرحلة الأولى من الهزيمة أن مصر تعرضت لهزة لسبب ما؛ حيث ذكرت بعض النصوص أنها التى جمعت شتات الفارين، وأعادت مصر مرة أخرى لقوتها، وهناك أوصاف كثيرة وصفت بها هذه المرأة، مما يدل على أنها لعبت دورًا غير عادى فى حرب التحرير. وبالفعل يبدو أنه مع أية معارك هناك أناس يتملكها اليأس والقنوط، وربما يحدث نوع من الهروب، وهى التى استطاعت أن تجمع شتات المصريين، ودفعت ابنها «أحمس»، لخوض حرب التحرير، التى كانت بالفعل غير متوقعة، وعقب القضاء على الهكسوس فتحت مصر على العالم الخارجى، وعلى بلاد الشام وبلاد الرافدين، ومن هنا نهضت الإمبراطورية المصرية، وزاد وعى المصريين واعتزازهم بمصرهم، وأحسوا بالفعل أنها صانعة الحضارة وأنها دولة قوية، حتى فى تعاملها مع الدول الأخرى كان تعاملاً به نوع من التحضر والرقى، فسكنت جاليات مصرية بالبلاد التى تم فتحها وتعايشت مع سكان المناطق التى وجدوا بها، وهذا بالفعل خلق نوعًا من التفاعل، لدرجة أنه عندما كان يحدث غزو لتلك المناطق على سبيل المثال من الآشوريين أو غيرهم، كان هؤلاء الحكام يلجئون إلى مصر طلبًا لعونها ومساعدتها.

على أى الأحوال، فقد كان عامة الشعب المصرى (ومن بينه شرائح الفقراء) فى هذه الفترات من تاريخه القديم لم يكن لهم وزن كبير، فعلى المستوى الدينى كانوا أيضًا أدوات، فهم الذين يحاسبون فى الدنيا وفى الآخرة أيضًا، فالآلهة تحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا، أى أن يوم الحساب عندهم هو يوم محاسبة الشعب أو الفقراء، بينما الملك الذى أحيانا ما يكون إلهًا أو ابن إله وبالتالى فهو الذى يحاسِب ولا يُحاسَب، وهو الذى يستطيع أن يتحدث مع الإله ويقوم على خدمته فى الدنيا، وهو الذى يعبر عن مشيئة الإله، ويتمتع بالامتيازات والنعم الإلهية، أى أن المشيئة الملكية صارت هى المشيئة الإلهية.

ومن الملاحظ أن هذه الفترة كانت من أهم فترات التاريخ المصرى التى حفظها الشعب فى الوعى الجمعى له، فظهر ذلك جليًا فى التراث الحضارى والعادات الاجتماعية التى وضحت صورتها والسلوكيات الأخلاقية التى حفظها لنا أدب الحكم والنصائح، كما سنرى.

فنشيد إخناتون الشهير به بعض الفقرات التى تشبه ما جاء فى المزمور الرابع لداود عليه السلام، حول فكرة التوحيد التى آمن بها إخناتون. كل هذه الإرهاصات بدأت فى تلك الفترة، فالوعى الاجتماعى قد وصل إلى حد رفض الظلم، فبعض العمال الذين كانوا يعملون بالمقابر الملكية فى تلك الفترة تعرضوا لبعض المتاعب الاقتصادية، فتوقفت الدولة عن دعمهم بالمرتبات سواء النقدى منها أو العينى، فوصل الأمر بهؤلاء العمال أن يعلنوا إضرابًا عامًا فى شكل ثورة، وهى نقطة مهمة إذ للمرة الأولى فى تاريخ مصر القديم يهب الشعب للدفاع عن مصالحه فى شكل احتجاج على الظلم الذى تمارسه الدولة.

العادات الاجتماعية كثيرة جدًا فى تلك الفترة عرفناها عن المصريين القدماء منها بعض القصص التى ذكرتها سابقًا، الحقيقة مرتبطة بتلك الفترة التى نطلق عليها اسم فترة «الرعامسة» أو عصر الدولة الحديثة

التى هى بالفعل أكبر فترة وأشد فترات الحضارة المصرية تأثيرًا فى المصريين القدماء.

ومن الملاحظ أن أبرز سمات مجتمع الفقراء فى مصر القديمة هو الشكاية، والتى لا تزال ممتدة إلى عصرنا هذا فى صور متعددة كان منها العرضحالات والشكاوى وغيرها. ولدينا نسخ من كتاب أطلق عليه علماء الآثار والمؤرخون اسم «شكاوى» الفلاح الفصيح، ويرجع تاريخه إلى الدولة الوسطى. ويتلخص موضوع هذا الكتاب فى شخص فصيح يدعى «حنيت» ألقى تسع خطب فى ثوب شكاوى تعد من أبدع وأروع ما قيل بسبب حادث ظلم وقع عليه. وتقع حوادث الكتاب فى عهد الملك «نب كاورع» أحد ملوك مدينة هراكليوبوليس (أهناسيا الحالية)، وهذه الشكاوى توضح لنا النظرة المتبادلة للطبقة الحاكمة والفقراء، حيث تشكى الرجل من أنه وجد مخازن قريته خاوية من الغلال، فحمل محصول القرية واتجه إلى أهناسيا وفى الطريق قبض عليه أحد موظفى البيت الكبير واستولى على حميره بحجة أن هذه الحمير أكلت بعض سنابل القمح، وكانت هذه سببًا فى ضربه واغتصاب حميره، ومكث أمام بيت الموظف أربعة أيام ليرد له حميره دون جدوى. وقد سمع حنيت بعدالة كبير موظفى البيت الكبير ويدعى رنزى، فذهب إليه وقص عليه القصة، فاجتمع رنزى بكبار موظفيه الذى وقفوا إلى جانب زميلهم، فلما علم حنيت بذلك قرر الذهاب إلى رنزى والتحدث إليه بفصاحة، كقوله: يا عظيم العظماء، يا حكما على ما قد فنى وما لم يفنَ... إنك أب لليتيم، وزوج للأرملة، وأخ المهجورة، ومئزر لذلك الذى لا أم له.. دعنى أجعل اسمك فى هذه الأرض فوق كل قانون عادل».

وقصة الفلاح الفصيح على الرغم من بساطتها فهى تعطى صورة مهمة عن رؤية الفقير للطبقة الحاكمة، فهو يقول مثلاً: «ليس الخوف منك هو الذى يجعلنى أشكو إليك... إنك تملك أرضًا فى الريف، ومكافأتك فى ضياع الملك وخبزك فى المخبز والحكام يعطونك... ومع ذلك تغتصب فهل أنت لص؟». فالقصة تصور لنا المجتمع من وجهة نظر أحد الفقراء الذى

يرى فى رجال السلطة مجموعة من اللصوص، لا يشبعون مهما امتلكوا من أملاك.

ونرى نموذجًا آخر من الشكاية فى نصائح بتاح حتب يجسد لنا رؤية المصرى القديم للواقع التعيس الذى كان يعيشه البعض من الفقراء الذين يتعرضون لظلم الطبقة الحاكمة، فلا يجدون ملاذًا سوى استحضار آلام الماضى وكيف انتهت على الرغم من شدتها، كما يرى أيضًا أن الموت هو الخلاص من هذه المظالم، ونرى فى هذه الرؤية إنعدامًا للتطلع إلى مستقبل أفضل، أو على الأقل تمنيه، فهو يستحضر الماضى للتأسى به ويرى فى المستقبل موتًا يخلصه مما هو فيه، بينما لا يرى فى المستقبل شيئًا يستحق الحياة، لهذا يشكو الإله فى الآخرة من المظالم التى تعرض لها.

ولاتزال نصيحة أمنموبى المصرى التى تقول: «لا تئن من الفقر فإن قارب الشره يعوقه الطين»، موجودة فى السلوك اليومى للفقراء، ويقول أيضًا: «لا تتبرم من الفقر فإن رامى السهام إذا اندفع إلى الأمام هجرته حين الخطر». وهناك كلمات تؤدى المعنى نفسه فى وقتنا الحاضر كقولهم: «يا مستعجل عطلك الله»، «فرجه قريب» أو «الصبر مفتاح الفرج».

كما نجد أيضًا العديد من الأفكار المصرية القديمة لاتزال تعيش فى حياتنا المعاصرة، منها مثلاً فكرة (الإكثار من الأولاد والنسل)، خاصة فى الريف والتجمعات الفقيرة، فالحكيم المصرى القديم «أنى» يوصى ابنه فيقول: «اتخذ لنفسك زوجة وأنت صغير حتى تعطيك ابنا تقوم على تربيته وأنت فى شبابك.. إن السعيد من كثرت ناسه وعياله فالكل يوقرونه»، وهذه العبارات هى نفسها التى نسمعها فى الريف من أفواه المسنين من الفلاحين.

أما فكرة التمسك بوظائف الحكومة (الميرى) والمثل الشهير «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه» هذه الفكرة ذات جذور مصرية قديمة، ففى إحد

الرسائل من أب إلى ابنه يقول له: «بلغنى أنك أهملت دراستك وسرت وراء ملاهيك، فهل تريد أن تكون فلاحًا تشقى وتكدح، فلا تكن فلاحًا ولا جنديًا ولا كاهنًا، بل كن موظفًا يحترمك الجميع ويمتلئ منزلك خدمًا وحشمًا وتتربع فى مجلس الثلاثين إلى جانب الملك».

كما نلاحظ أمثلة أخرى من الأفكار التى لها جذور تاريخية ترجع إلى العصر الفرعونى، ففكرة الموسمية التى تتسم بها حركة البيع والشراء لها جذور تاريخية، فحياة المصرى القديم كانت معظمها أعياد ومواسم منها ما هو مرتبط بالسنة المصرية نفسها والتقويم المصرى القديم كعيد رأس السنة، وعيد بداية الشهر وعيد منتصف الشهر وعيد النسىء، وأعياد القمر... إلخ، ومنها ما هو مرتبط بالحوادث الزراعية مثل البذر والحصاد والفيضان، وعيد الحريق الكبير والصغير وقت الدفء وعيد خروج الإله مين فى وقت الحصاد...، ومنها ما هو مرتبط بالملك مثل عيد تتويج الملك والأعياد الدينية، وكانت الحياة الاقتصادية تنتعش فى هذه المواسم والأعياد.

فهذا الميراث التاريخى الممتد من أعماق التاريخ الفرعونى القديم مازلنا نجد آثاره فى حياتنا اليومية، وامتدت المؤثرات الفرعونية فنراها فى لغتنا وأمثالنا وعاداتنا، فهناك تأثير الكتابة الهيروغليفية فى كثير من الكلمات الفرعونية التى لا تزال باقية حتى الآن - حتى أن باحثين قاموا بعمل دراسة على الأمثال الشعبية فوجدوا أن (٢٥٠) مثلاً مصريًا من أصل فرعونى، من حيث المتن والفكرة، وأيضًا من حيث موضوع المثل، فمثلاً نجد مثل يقول (إن حبتك الحية اتلفح بيها - أو حبك تعبان اتلفح بيه) وهذا مثل فرعونى لفظًا ومعنى.

* * *

كما يمكننا القول بأن اللهجة المصرية أقرب ما يكون إلى اللغة العربية، لكن بها اشتقاقات من لغات أخرى متأثرة بما مرت به مصر خلال

تاريخها الطويل، فنجد اللهجة العامية فيها الكثير من الكلمات الفرعونية من مفردات أو أمثال شعبية. على سبيل المثال: بعبع - بخ - أوأ - رخ - بيصارة - تاتا - بشبش - كانى ومانى - صهد - نُقرة... إلخ.

وقد كان مناخ التأثير والتأثر بين مصر وجيرانها أو حتى مستعمريها، موجودًا بين الجانبين إلى حد كبير، فالرومان والإغريق تأثروا بالحضارة المصرية القديمة وأثرت فيهم هذه الحضارة، وهناك الكثير من الدلائل على ذلك.

وقد ترك اليونانيون أثرهم فى الكلمات التى لاتزال مستعملة إلى الآن، الإغريق بالذات لم يجلسوا فى المدن الكبيرة فقط مثل الإسكندرية ولكنهم ذهبوا إلى أبعد فقد ذهبوا إلى الريف والأقاليم والقرى، ونحن نرى العديد من القرى والمدن التى تحمل الأسماء الإغريقية حتى يومنا هذا، يقال مدينة (أبوتيج) وهى أصلاً كلمة يونانية، والإسكندرية نفسها كلمة يونانية، والمدن التى تنتهى بالمقطع (بوليس) هى يونانية بمعنى مدينة مثل هليوبوليس (عين شمس).

وفى اللاتينية أيضًا هناك مؤثرات حضارية فيما يتعلق بالحضارتين المصرية القديم واللاتينية، فنجد العديد من الكلمات اللاتينية فى اللهجة المصرية، منها على سبيل المثال لا الحصر، كلمة «بساريا» المستخدمة فى العامية لتمييز نوع صغير من السمك وهذه الكلمة لاتينية، وتعنى السمك، أما كلمة «فالصو»، التى تستخدم فى العامية للدلالة على المعدن المزيف أو المقلد، فهى كلمة لاتينية.

وهذا الخط نفسه مختلط بالحضارة المصرية القديمة، فقد أتى الإغريق الذين عبدوا إيزيس فى الحضارة المصرية القديمة، لذلك نرى إيزيس موجودة إلى يومنا هذا فى الحياة المصرية مع العلم أن إيزيس الموجودة فى يومنا هنا تجمع ما بين عناصر مصرية فرعونية قديمة وعناصر إغريقية قديمة.

فالشخصية المصرية بصفة عامة شخصية حضارية منفتحة على جميع الحضارات، ولديها قدرة رائعة على المزج والتوفيق بين الأفكار، ولهذا فإن الحضارة المصرية القديمة احتضنت الحضارتين الرومانية والإغريقية القديمة، وأيضًا أثرت فيهما تأثيرًا قويًا، لكنهما مع ذلك قد ذابا فيها وليس العكس، تلك هى سمة الشخصية المصرية، أنها تؤثر وتتأثر ولا تتغير. فالحضارة المصرية القديمة أثرت على الحضارة اليونانية، والحضارتان المصرية القديمة واليونانية أثرت على الحضارة اللاتينية وهكذا.

ومن التأثيرات القوية مثلاً إيزيس المصرية قديمة ولكن دخلت فيها بعض العناصرُ اليونانية أى بعض التجديدات فيها حيث قام الرومانيون ببناء معبد خاص لها فى أسوان اسم هذا المعبد «أنس الوجود» وسوف نلاحظ اختلاطًا فى الحضارات الثلاثة (الفرعونية - الرومانية - الإغريقية) فى هذه القصة (إيزيس وأوزريس).

ولم تتأثر من الرومان واليونانيين فى مجال الزراعة لأن مصر كانت رائدة فى هذا المجال، بل إن المصريين القدماء قد أعطوا الحضارة اليونانية والرومانية الكثير فى هذا المجال منها الأبراج الفلكية، والتى لاتزال مستعملة إلى اليوم، فهناك برج الدلو والثور وغيرهما، وهى كلها أبراج مرتبطة بمواسم الزراعة المصرية، فبرج الدلو مثلاً كان علامة على موعد الرى، بينما الثور للدلالة على موسم الحرث وهكذا.

ومن الغريب أن اللهجة المصرية يوجد بها العديد من التعبيرات الإيطالية رغم أن الطلاينة لم يحتلونا، فمثلاً (كاتينة - سلسلة - أسكله أو سقالة - بوليصة تأمين - خرطوش - رصاصة)، لكننا يمكن أن نفسر ذلك فى إطار بعد البحر المتوسط لمصر، حيث كان هناك تبادل تجارى بين الموانئ المصرية والموانئ الإيطالية خاصة جنوة والبندقية، كما كانت هناك جالية إيطالية تسكن فى الإسكندرية والقاهرة، وغيرها من المدن المصرية.

كما نجد أيضًا فى لهجتنا المصرية مؤثرات فارسية وتركية، وهى من بقايا الوجود العثمانى فى مصر، والذى استمر حتى أوائل القرن العشرين، وبالطبع فإن اللغة التركية العثمانية نفسها بها بعض المؤثرات الفارسية التى انتقلت إلينا عبر اللغة التركية، فهناك مثلاً الكلمة العامية المصرية «الاضيش» لتدل على زمرة معينة، وهى كلمة فارسية «يولداش» بمعنى الصبى أو المتدرب.

كما نجد العديد من المؤثرات السامية فى الأدب الشعبى المصرى، ولعل من أهم هذه المؤثرات هى خرافات الجن والشياطين والعفاريت، فترجع أغلب معتقداتنا وتصوراتنا التى لاتزال تتواتر فى مجتمعاتنا المعاصرة، عن الجن ومواطنهم ومصاهراتهم للإنس وقبائلهم، وكذلك الغيلان والسعالى - أو السلعوة - والعفاريت والرياح والنداهات والنفرات وسكان ما تحت الأرض.. إلخ، هى تنحدر بكاملها من العرب البائدين - الألف الرابع قبل الميلاد - وبشكل خاص سكان اليمن الجنوبيين القحطانيين.

وحكاية الجن برمتها هى فكرة عشتورية بمعنى أنها جاءت من الحضارة السومرية، كما أنها متصلة بفكرة الإلهة الأنثى القمرية، والتضحية بالأب الذكر، وكان الجن من معبودات العرب، لهذا كانوا يحرمون أماكن شاسعة لا يقربون منها، اعتقادًا منهم أن هذه الأماكن كانت موطن الأسلاف من الجن مثل «وادى برهوت» و «يبرين» و «صيهد» التى اعتقدوا أنها أماكن عاد وثمود، ومن هنا جاءت فكرة اعتبار القبور والأماكن المهجورة والخرابات عامة، مواطن الجن والعفاريت.

وفى قصيدة جلجامش والعالم الآخر نجد أن الشيطانة «ليليث» تسكن الخرائب والأماكن المهجورة، وليليث كلمة بابلية آشورية معناها أنثى العفريت أو الريح. وقد تحولت الكلمة بعد ذلك إلى «ليل»، لتدل على العفريتة التى تسكن الخرائب والأماكن المهجورة ليلا، ويبدو أن ليل هى الاصطلاح الغريب المنتشر فى الغناء الشعبى «ياليل ياعين».

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الجذور العربية والإسلامية لثقافة الفقراء فى مصر، نجد أن أهم ميزة تميزت بها الحضارة العربية ـ الإسلامية هو استفادتها من المنابع الحضارية التى عاشت فى المواطن التى كونت أجزاؤها إمبراطورية العرب والمسلمين. فالإسلام الذى كشف عن مميزات العنصر العربى قد استلهمت موجته الحضارية الشابة خير ما فى حكمة الصين وفلسفة الهنود وسياسة الفرس، بل وتراث اليونان، ثم أخذ يضيف إليها من نواحى عبقرية المصريين القدماء.

وهذه الميزة التى امتازت بها الحضارة العربية ـ الإسلامية مردها إلى الطابع التحررى الذى حكم بناء الدولة العربية منذ الفتوحات الإسلامية الأولى، وهو طابع جعل من هذه الدولة الوارث الشرعى لثمرات الأمم المقهورة، فلم تكن كبيزنطة قوة قاهرة تفرض طابعها الحضارى ومذهبها الدينى على الآخرين؛ حيث غلب على المسلمين الموقف الوسط الذى يرفض التطرف، ويقبل التعددية والقيم المتنوعة، مما أتاح مناخًا للتفاعل والائتلاف حتى صارت بناءً حضاريًا متميزًا.

وعلى هذا يمكننا أن نقول إن الحضارة العربية ـ الإسلامية احتضنت الفقراء والمستضعفين، الذين كانت تعتبرهم أهم أولوياتها، فوفرت لهم سبل العيش الكريم، وكان لهذا الاحتضان جذور دينية، فقد أتى الإسلام وحرر العبيد، وحض على مساعدة الفقراء، ووضع الزكاة كركن أساسى من أركانه، وهذه الزكاة هى شكل مهم من أشكال التكافل الاجتماعى، لمساعدة الفقراء، وعلى هذا فإن مساعدة الفقير هى بعد مهم وأساسى للحضارة الإسلامية.

وحينما كانت الدولة الإسلامية قوية، كان الفقراء ينظرون إلى الخليفة باعتباره الأب الروحى لهم، فهو القابض على زمام الأمور ويستطيع أن يرد الحق إلى أصحابه.

وهناك الكثير من الموروث الثقافى للفقراء يرجع فى جذوره إلى العصور الإسلامية المختلفة. ففى العصر الفاطمى وفى عام ٣٩٨هـ بالتحديد، اختلت الأحوال الاقتصادية فى مصر نتيجة الاضطراب فى أسعار العملة ونقص فيضان النيل، وانتشر الفقر بشكل كبير فى مصر، فاجتمع الفقراء البؤساء بين القصرين واستغاثوا بالحاكم بأمر الله الفاطمى أن ينظر فى أمورهم، فما كان منه إلا أن أقسم لهم بالله إنه سيمر بالشوارع بحماره، وإذا وجد موضعًا يطؤه حماره مكشوفًا من الغلال ليضربن عنق من يقال إن عنده شيئًا منها ويحرقن داره وينهبن أمواله. فخاف الجميع وكل من فى بيته شىء من الغلال شونه فى الطرقات.

وهذه القصة تجرنا إلى سلوك مازلنا نحرص عليه، وهى فكرة «التخزين»، بمعنى تخزين الحبوب والمواد الغذائية بكميات تكفى لعدة شهور، فهذه الفكرة أيضًا لها جذور تاريخية ترجع إلى العصر الفرعونى، أو ربما أقدم من ذلك حيث إنها مرتبطة بفيضان النيل، ونحن نعرف قصة رؤيا فرعون والسنوات العجاف، فنحن نخاف من الغد، أو بمعنى آخر نخشى غدر النيل، فنقوم بتخزين السلع التموينية لمجرد إشاعة، فربما لا نجدها غدًا.

لكن مع ضعف الدولة العربية الإسلامية، وبداية الأطماع الأجنبية بداية من الحروب الصليبية، والتى كانت نتيجة لحالة التشرذم التى كانت عليها الدولة الإسلامية، فطمع فيها الآخرون، وبدأت أولى مراحل الاستعمار بالاستيلاء على عدد من الإمارات الإسلامية فى العراق والشام، ثم توالت الحملات الصليبية، وحاولت غزو مصر، لكنها فشلت فى ذلك.

لكن وجود محتل أجنبى على الأرض العربية الإسلامية، أوجد فى العقل الجمعى لهذا المجتمع، فكرة ورثوها عن العرب وهى فكرة، عنترة، أو المخلص الذى سيخلصهم من هؤلاء الغزاة. وحينما ظهر صلاح الدين الأيوبى وخلص بيت المقدس من أيدى الصليبيين، صار فى أعينهم عنترة جديدًا!

لكن المثير للتساؤل هنا هو أنه على الرغم من أن صلاح الدين كان شخصية تاريخية مهمة، إلا أننا لا نجد له صدى فى السير الشعبية، فنجد سيرة الظاهر بيبرس، بينما لا نجد سيرة صلاح الدين.

وفى مصر العثمانية كانت الفجوة واسعة بين الفقراء والأغنياء لهذا يمكن اعتبارها نقطة وقوف مهمة فى دراسة ثقافة الفقراء، حيث تبلورت العديد من محددات هذه الثقافة فى هذا العصر. فيرى المؤرخ الفرنسى أندريه ريمون أن الفجوة بين الفقراء والأغنياء فى القاهرة كانت واسعة، لذا رأت الطبقة الحاكمة أنه من الضرورى أن توجد مجموعة من المؤسسات يكون من شأنها تخفيف المعاناة عن هؤلاء الفقراء، على الأقل، فى أوقات الأزمات الاقتصادية.

ففى أثناء المجاعات كان الباشا يحمل على عاتقه إطعام عدد معين من الفقراء ويحض الأمراء على أن يحذوا حذوه، ولم يكن هذا السلوك ابتكارًا عثمانيًا بل سوابق فى العصر المملوكى وما قبله. ففى مجاعة عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م أطعم إسماعيل باشا ١٠٠ فقير، وأطعم كل أمير ما بين ١٠٠ و ٢٠٠ شخص من الفقراء، كما أعطى كل صبى يتيم قطعة ذهبية ومجموعة من الملابس.

وكان للشحاتين فى القاهرة تجمع يشبه النقابة فى العصر العثمانى، وأشهر العلاقات التى نشأت بين تجمع من الفقراء وأحد الأغنياء، هى تلك العلاقة التى نشأت بين أحد الأمراء المماليك وهو إبراهيم بك أبو شنب وبين الشحاتين، فقد كان هذا الأمير يعرف هؤلاء الشحاتين جميعًا تقريبًا، ويعرف مقدار ما يمنحه لكل منهم يوميًا، وففى أحدى المرات بعد أن عاد هذا الأمير إلى القاهرة من رحلة طويلة خارجها حضر شيخ الشحاتين ورجاله ورحب به، وقدموا له حصانًا أصيلاً بتجهيزاته الغالية، وفى المقابل منح إبراهيم بك جميع الشحاتين هبات من النقود والملابس وعقد لهم وليمة خاصة، وهذه القصة تعطينا صورة واضحة لأهم فئة من فئات الفقراء فى القاهرة، وكيف كانت علاقاتها بالطبقة الغنية الحاكمة.

وعلى عكس هذه الصورة التى نجد عليها الفقراء فى العصر العثمانى، نجد المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتى يصف بعض الفقراء بأوصاف لاذعة فهو يصفهم أحيانًا «بالصراصير» و «الحشرات» بينما يصفهم أحيانًا أخرى «بالحرافيش» و «الزعر». وهى أوصاف ربما عبر بها الجبرتى عن رؤيته الذاتية لهذه الطبقة من المجتمع التى تأتى بتصرفات ربما لم تكن تعجبه أو تتماشى مع طبقته الاجتماعية، حيث كان الجبرتى يمثل الطبقة المتعلمة الثرية، ومن ثم كان يرى فى هؤلاء الفقراء والمعدمين أناسًا لا يستحقون العيش فى المجتمع المتحضر بما يأتونه من سلوكيات تعبر عن فقرهم.

وقد عبر يوسف الشربينى فى كتابه: «هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف» عن طبقة الفقراء ويكاد يكون الكتاب وصفًا دقيقًا للفقراء وحياة الفقر فى مصر العثمانية.

فطبقة الفلاحين المصريين هم أصل سكان مصر، عاشوا دائمًا فى بؤس وشقاء، فانتشرت بينهم الأوبئة والمجاعات، ويصف الرحالة الفرنسى فولنى Volney هؤلاء الفلاحين فى القرن الثامن عشر بأنهم كانوا يعاملون معاملة سيئة، فإذا أراد شخص تحقير شخص آخر يطلق عليه لفظ «فلاح»، وكان هذا الفلاح لا ينعم بثمرة جهده فتراه منصرفًا إلى العمل كارهًا له، ويعيش فى فقر مدقع غذاؤه ردىء، يصنع خبزه من الذرة، وطعامه الرئيسى من الخبز والبصل، وكان يسعد إذا تخلل طعامه العسل والجبن واللبن الرائب أما اللحم فلا يتذوقه إلا فى المواسم والأعياد، ويعتمد على روث الحيوان لإشعال النيران. وقد وصف المترجم الفرنسى ديجون الفلاحين الفقراء فى مصر فى القرن الثامن عشر بأنهم «عبيد لديهم انحطاط ولا يثورون ضد أسيادهم الذين ينظرون إليهم كحيوانات لازمة ولا يعاملون معاملة إنسانية». وهذا يعنى أن النظرة إلى الفلاحين بأنهم يسكنون إلى الخنوع للحكام هى نظرة لها جذور تاريخية وليست وليدة اليوم.

ويواصل الرحَّالة الفرنسى فولنى وصفه للفلاح المصرى فيقول: «كان ملبسه قميصًا من الخام الأسود، وعلى رأسه قلنسوة (طاقية) من الكتان يلف حولها منديل من الصوف الأحمر، ويظهر فى الحقول عارى الذراعين والساقين والصدر، وأغلب الفلاحين لا يلبسون سراويل، ومساكنهم من الطين يضيق صدر المرء من غرفها لأنها غير صحية وتكثر بينهم الأمراض الصدرية».

وخلال القرن التاسع عشر ورغم التغيرات الحضارية التى شهدتها مصر، سواء فى عهد محمد على أو فى عهد خلفائه من بعده، لم يتغير حال الفلاح كثيرًا، بل إزداد حاله فقرًا، نظرًا لأن الحكام الجدد ابتدعوا الكثير من النظم التى ضيقت عليه حلقة الفقر، حيث كان من السهل على الفلاح فى العصر العثمانى أن يتهرب من الضرائب أو ظلم الفئة الحاكمة، فكان يلجأ إلى الهروب أو ما عرف وقتئذ «بالتسحب».

وللحالة السيئة التى كان عليها الفلاح فى مصر فى القرن التاسع عشر، شبههم الرحالة الفرنسى شولشيه Scholcher بالهنود الحمر فى المكسيك ومنطقة الكاريبى، بينما شبههم رحالة آخر «بأنهم خلية نحل تعمل لغيرها»، ليدلل على العمل الكثير الذى ينجزه الفلاح المصرى على الرغم من سوء حالته ووضعه فى المجتمع.

ومازالت مظاهر الفقر على الفلاح المصرى هى نفسها التى كنا نجدها إلى وقت قريب وربما لا يزال بعضها إلى اليوم.

وعلى العكس من الفلاحين نجد أن البدو على الرغم من أنهم مصنفون ضمن طبقة الفقراء إلا أننا نجد أن فقرهم هذا اختيارى، حيث يصرون على اختيار حياة الخشونة كما وصفهم الرحالة الفرنسى سافارى Savary فى القرن الثامن عشر، وقد برر ذلك بأنهم يعشقون حياة الحرية والترحال، ويكرهون الانصياع لسلطة مركزية، ورغم ذلك فقد وصفهم سافارى بأنهم لصوص ومتشردون ويعشقون الإغارة على القوافل التجارية التى تمر بأراضيهم.

أما الفقراء فى المدن المصرية فقد كانوا يشكلون شريحة كبيرة من المجتمع، ففى نهاية القرن التاسع عشر أحصت مصلحة الصحة - التى كانت تهتم برصد بؤر الأوبئة فى مصر - المساكن العشوائية فى القاهرة وحدها فبلغ تعدادها حوالى ١٦٢٠٠ عشة، تشغل ١٠٪ من المساحة العمرانية للقاهرة، وتعداد سكانها حوالى ١٢٠ ألف نسمة، وهو عدد كبير يمثل ربع سكان القاهرة فى نهاية القرن التاسع عشر، والعشش هى مساكن غير صحية بالمرة، حيث يمكن تصور أسرة كاملة تعيش فى كوخ مكون من غرفة واحدة لها فتحة واحدة ومسقفة بالقش، وبلا نافذة فى كثير من الأحيان.

* * *

وفى دراسته عن مدينة القاهرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يشير جان لو أرنو إلى تركز مناطق العشش فى القاهرة فى ثلاث مناطق رئيسية هى: بولاق، والسيدة زينب، ومصر القديمة، كما يخرج بنتيجة مؤداها أن تركز العشش فى هذه المناطق دون غيرها كان مرتبطًا إلى حد كبير بالتوسع فى النشاط الصناعى فى هذه المناطق، حيث زاد الطلب على الأيدى العاملة، وكان حى بولاق وحده يضم ثلثى سكان العشش فى القاهرة لتزايد النشاط الصناعى فى ميناء بولاق، وكان هذا الحى يضم السكان الأشد فقرًا فى القاهرة.

أما ظاهرة سكن المقابر (الأحواش) التى بدأت تتضح بصورة أكبر فى نهاية القرن التاسع عشر، فهى ترجع إلى العصر العثمانى، ويذكر كتاب وصف مصر العديد من الأكواخ والمساكن المتداعية التى تدل على إسكان شديد الفقر، ومن الواضح أن التوسع العمرانى على النمط الحديث فى أحياء مصر القديمة ثم بولاق قد طرد العناصر الأشد فقرًا إلى خارج المدينة.

ولا شك أن سكان العشش والأحواش فى الأحياء التى ذكرناها فى القاهرة لم يكونوا يتركزون بكثافة فى أماكن بعينها، وإنما كانت هذه

المساكن متناثرة بشكل عشوائى، حتى لا يمكن أن يقال إن هذه التجمعات تشكل تجمعًا جغرافيًا واحدًا. لكن طبيعة هذه الفئات والمهن التى كانوا يمتهنونها، بالإضافة إلى حالة الفقر التى كانوا يعيشونها، قد فرضت شكلاً معينًا من المعيشة ذا سمات تختلف عن باقى الأحياء التى يعيشون فيها.

وإذا ما انتقلنا إلى البحث عن جذور ثقافة الفقراء فى الاحتفالات والمواسم والأعياد، نجد بداية أن السمة الغالبة على المجتمع المصرى هى عشقه للاحتفالات، فكل مناسبة جعل منها احتفالاً فهناك احتفالات بالإنسان نفسه بداية من ميلاده (السبوع) وختانه وزواجه ووفاته، واحتفالات ذات طابع دينى كالأعياد الدينية والموالد والحضرة، كما ورث احتفالات وأعياد النيل وأعياد الحصاد وغيرها، فقد كتب الرحالة الفرنسى بول لوقا Paul Lucas مصر فى القرن الثامن عشر: «لا يوجد بلد فى العالم مغرم بالاحتفالات مثل مصر». فهذه المقولة إلى حد كبير تصف جزءًا من الحقيقة، وتعبر تعبيرًا ضمنيًا عن طبيعة الحياة الموسمية التى يعيشها المصريون، فتنتعش الأسواق وتروج السلع قبيل الأعياد والمواسم، فى عيد الفطر والعيد الأضحى، والموالد المحلية كمولد الحسين والسيد البدوى والسيدة زينب وغيرها، وهذا الميراث الموسمى فى حياتنا لا يزال موجودًا، حيث تنتعش الأسواق أيضًا قبيل الأعياد والدخول إلى المدارس، فتقام مهرجانات التسوق والتخفيضات الحقيقية والوهمية.

ففى الموالد بصفة خاصة - حيث تعبر بشكل واضح عن ثقافة الطبقات الفقيرة - تنتشر مواكب الدراويش ونترك ب. س. جيرار أحد علماء الحملة الفرنسية يصف لنا موكب مولد الحسين فى نهاية القرن الثامن عشر فيقول:

«وتنتشر مواكب الدراويش التى تطوف بشوارع القاهرة وهى تحمل الأعلام والرايات والطبول والموسيقى، وعندما يمرون بأحد أضرحة المشايخ يكفون عن عزف الموسيقى لقراءة الفاتحة وتلاوة بعض الأدعية،

ثم يستمرون فى المسيرة إلى المسجد الحسينى، وفى الليلة الكبيرة تكثر حلقات الدراويش فى المسجد التى تقوم بالذكر، وبعضها يؤدى بعض طرق الشعوذة مثل بلع الجمرات المشتعلة أو أكل الزجاج، أو التهام الثعابين».

إلى هنا ينتهى كلام جيرار، ويمكن أن نخرج منه بعدة ملاحظات. أولاً: التزاوج الواضح بين الفقر والدين، بمعنى إلباس الفقر لباسًا دينيًا، أو العكس، إلباس الدين ثوب الفقر ومظاهره وثقافته. ثانيًا: الجانب العلمانى للموالد، المتمثل فى الأشكال الكرنفالية المصاحبة للاحتفالات، والاختلاط وأشكال السفور التى كانت تصاحب الاحتفال. ثالثًا: البعد الاجتماعي المهم للمولد المتمثل في الإحسانات التى يقدمها الأغنياء لإطعام الفقراء.

والمهم أن هذه الثقافة التى تجمع بين المصريين هى ثقافة عامة، لا تقتصر على المسلمين فقط، بل تمتد إلى الأقباط الذين شاركوا فى هذه المظاهر التى توصف بأنها خاصة بالمسلمين، حيث يستكمل جيرار كلامه عن الموالد فيقول فى معرض حديثه عن المولد النبوى:

«فالأقباط حريصون على حضور الاحتفالات الدينية، كما أن المصريين (يقصد المسلمين منهم) يسعدون بمشاركتهم فى هذه الاحتفالات والموالد، كما أن أثرياء الأقباط يتبرعون للإنفاق على تجديد أضرحة بعض الأولياء والمشاركة فى الاحتفالات».

إذًا القضية ليست خاصة بالمسلمين وحدهم، وإنما بالمصريين ككل مسلمين وأقباط، فهذا الميراث الاحتفالى واضح تمامًا فى الأغلبية والأقلية، خاصة الاحتفالات التى تحمل مظاهر وثقافة الطبقة الدنيا من المجتمع. وقد نجد تفسير ذلك لدى إدوارد وليم لين فى كتابه الشهير عن عادات المصريين وشمائلهم، حيث يذكر المصريين يتميزون بحبهم للدعابة والسخرية، كنوع من التنفيس عما يتعرضون له من ظلم، وربما أيضًا يمكننا تفسير الغرام بالاحتفالات لدى الطبقات الدنيا بنفس المنطق، فهى نوع من التنفيس عما يعانونه من فقر وسوء الأوضاع الاجتماعية.

تبقى قضية مهمة هنا وهى قضية تقديس الأولياء، وهى ظاهرة مرتبطة بالدين الشعبى، إذ إن الإسلام لا يعترف بوجود الأولياء (الواسطة بين الله والبشر)، وقد انتشرت هذه الظاهرة بشكل واضح فى مصر خلال العصر العثمانى، وإن كانت موجودة قبل ذلك بشكل جزئى، وللشيخ عبدالوهاب الشعرانى مؤلف بعنوان: «ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى»، وهو فى هذا المؤلف يحاول أن ينفى حق الادعاء بالولاية الكبرى عن الفقراء.

وقد لاحظ أحد المؤرخين الأتراك وهو رضوان باشا زاده ظاهرة تقديس الأولياء فى مصر، فأشار فى النصف الأول من القرن السابع عشر إلى تفشى ظاهرة الادعاء بالولاية، وفسر ذلك بأن هذه الظاهرة مرتبطة بالفقراء الذين يدعون الولاية للحصول على الطعام، وأنهم جهلاء يدعون العلم بالأسرار الإلهية.

فالمصريون يوقرون المجانين الذين لا ضرر منهم، باعتبارهم أولياء طبيعيين، يسمح لهم بالتسكع فى الشوارع، وكان الملاماتية وهم نوع شاذ منهم سيئ السمعة، نظرًا لمظهرهم وسلوكهم الغريب. فكان طبيعيًا أن يتحول المجانين إلى «مجاذيب»، لكن بمجرد أن يبدأ الولى فى جذب الجماهير ويحدث هياجًا واضطرابًا اجتماعيًا أو يتحدى أركان الإسلام، يبدأ اصطدامه بالسلطة التى تستجيب لشكاوى العقلاء لإيقاف هؤلاء المجاذيب عن ممارسة المخالفات.

المفهوم اللغوى للعامة

كريمة محمد

أجمع الكثيرون على إطلاق مسمى العامة على الجموع الغفيرة لأنهم كثيرون لايحيط بهم البصر فهم فى ستر عنه، ولهذه الكثرة نعتوا بالدهماء وأيضا الغوغاء الذى كان يطلق على الجراد حين تظهر أجنحته فيموج بعضه فى بعض ولايتجه جهة» ولذلك «قال عبدالله بن عباس «ما اجتمعوا قط إلا أضروا ولاافترقوا إلا نفعوا «قيل له قد علمنا ما ضر اجتماعهم فما نفع افتراقهم قال يذهب الحجام إلى دكانه والحداد إلى كيره وكل صانع إلى صناعته «والغوغاء أيضا هم أهل السفه والخفة وهذا التعبير معناه السقاط من الناس والساقط من ليس له فعل موصوف ولانسب معروف.

كما أطلق على العامة السوقة والأوباش والذعار والشراذم وقد اختلفت الآراء حول تعريف مفهوم السوقة فيعتبرها البعض بأنها مشتقة من سوق الناس بضائعها، والبعض يعتبرون أن ليس المقصود به أهل الأسواق وإنما سموا السوقة لأن الملوك يسوقونهم إلى إرادتهم.

أم الأوغاش هم الجماعات المختلطة من الناس والكثرة من الناس، قال الزبيدى « : جاء من الناس البوش» و البوش أى الكثرة والغوغاء أما الزعار والزعرة والزُعر جمع زاعر، وهم اللص والمحتال والعيار والحر

الحرفوش والمشرد والذعر بالسقم الخوف والفزع ورجل مذعور منذعر وامرأة ذعورة تذعر من الريبة وذعر الرجل قل خيره، والزعارة شراسة الخلق، وأهل الزعار العيارون الذين يترددون بلا عمل ويخلون النفس وهواها فهى تقترب من كلمة ذعر التى تعنى الخوف والفزع والتخويف أما الشراذم فهى تأتى من الشرذمة أى القطعة من الشىء أو القليل من الناس.

كما دمغت العامة أيضًا بالحرافيش والعياف والشطار. وقد ظهرت هذه الجماعات بسبب الانهيار السياسى والاقتصادى وخاصة أوقات الصراع الداخلى بين الجماعات العسكرية خاصة إبان الانقسامات بين الأمراء المماليك وتزايدت هذه الجماعات مع مرور الوقت بسبب أن الفلاحين لا يملكون،أيضًا ولكثرة الضغوط والإغارة عليهم هاجروا إلى المدينة لتحسين أحوالهم ولكن لم يساعدهم الحظ فوجدوا كثرة الأوبئة والمجاعات فانهارت أحلامهم فقد أدت هذه لأزمات إلى تدهور الوضع الاقتصادى فى الصناعات الحرفية فلم يجدوا أمامهم سوى الانضمام إلى هذه العناصر دون وعى - بحثًا عن الرزق.

ومن معانيها الفقراء الذين يملكون فرسا للأوبة والجماعات ومفردها حرفوش وهو ذميم الحلف والخلق وهو المقاتل والمصارع واللص، وحرفش xxxx الرجل إذا تهيأ للقتال.

أما عن الحرافيش فهى جموع حرفوش وهو الجانى الغليظ المهيًّأ للشر السافل والحرافيش كانوا فى بدايتهم فى العصر الأيوبى (٥٦٩ - ٦٤٨ هـ) فرقة قتال شعبية فى الجيش الأيوبى اشتهرت بالشجاعة والمروءة و الإقدام، ولكن بمرور الوقت لم يجدوا دورهم فى الحياة العسكرية فتحولوا إلى أعمال البطالة، ويذكر السبكى «أن كثيرًا من الحرافيش اتخذوا السؤال صنعة، يقعدون على أبواب المساجد يشحذون ولايدخلون لتأدية الصلاة «كما وصفهم ابن بطوطة بأنهم أهل صلابة وقوة.

وكان للحرافيش سلطان ففى حوادث (٧٩٣هـ / ١٣٩٠) توفى السلطان على بن على الجعيدى سلطان الحرافيش، الذى كانت له كلمة مسموعة على الحرافيش لم تتوافر لأحد من بعده.

وقد تزايد عدد الحرافيش فى شوارع القاهرة بصورة واضحة فى أواخر العصر المملوكى يغطون أجسامهم بالأتربة و الهلاهيل، ويتبادلون الصيحات والشتائم العنيفة، ويتفرقون دون نتائج، وانتهى الأمر لهم بالإلحاق بالخوانق والربط والزوايات بحثًا عن الطعام والمأوى والملبس وإن ذلك عطلهم كثيرًا عن ممارسة أعمالهم اللصوصية.

أما العياق: عاق فلان صدفة، بما أراد العائق الذى يعوق الناس من عمل الخير. ورجل عوق (الجمع أعواق) الرجل الذى لاخير عنده وهو المانع الذى يعوق الطريق ويقطعه على الناس.

والعياق لغويًا: الكثير التجول والطواف، الذى يتردد بلا عمل يخلى نفسه وهواها والمعار بالكسر الفرس الذى يحيد الطريق براكبه والعيار، ذهب كأنه منفلت يهيم على وجهه لايثنيه شىء فهو عائد أى متردد، جوال والعيارون رجال ذو بأس وشجاعة إن كانوا يسلكون طريق اللصوصية وقطع الطريق على الناس.

أما المشطار مفردها شاطر والجمع شطار وهو المتصف بالدهاء والخبث والحيلة والذكاء واللص الشاطر الذكى الذى يستخدم الحيلة فى موضع الحيلة والقوة فى موضع القوى، والشاطر لغويًا من أعيا أهله خبثًا، ويقال شطر على أهله، بمحنة نزح عنهم والشطارة: الانفصال والابتعاد. وهو أيضًا من أهل الدعارة واللصوصية، كان لهم شارة خاصة على صدورهم يعرفون بها وكانوا يستولون على أموال الأغنياء زكاة للفقراء، كما تمتاز هذه الفئة بالمرح والفكاهة والنوادر الطريفة.

وعن مأوى الشطار والعيارين فكانت الحمامات والمساجد والطرقات

وبالإضافة إلى الأسوار فى العصور الحديثة كانت المقابر، كما اتسموا بالصبر على الشهوات وتحمل الأذى والضرب وألوان التعذيب.

وكان لهذه الفئات دور بارز فى إثارة الفتن، كما استخدمها الكثير من الأمراء والسلاطين فى بعض الأحيان أداة للغدر ببعضهم، وهذه الفئات جميعها تعنى العامة من الناس لأنهم يشتركون فى كثير من الصفات كتدهور أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية وممارسة أعمال السلب والنهب إبان الفتن والأزمات التى تحدث بين الفلاحين والأمراء أو بين الأمراء بعضهم وبعض وكذلك اشتركت هذه الفئات فى التسول فى الشوارع وأمام المساجد.

وإذا أردنا أن نعرف ثقافة البسطاء لابد أن نتعرف على عدة عوامل أنتجوها بمرور الزمن وتأثروا بها على مر العصور.

- المعتقدات.

تمسكت الأسرة المصرية وخاصة العوام بكثير من المعتقدات التى توارثتها جيلاً بعد جيل حتى أصبحت بمثابة التقاليد الثابتة عند الكثير منهم يمارسونها فى حياتهم ومنها:

- إن معظم العوام «قدريون» يعرفون جيدًا أن «الحذر لايمنع القدر والمكتوب ما فيه مرهوب» ولهذا فهم كثيرًا من الوقت يرضون بحالهم لأنهم يؤمنون أن توزيع الأرزاق بين الناس قضية غيبية شأنها شأن الموت المقدر على الإنسان ولكن عليه ألا يستسلم لهذا الإحساس بل يسعى للرزق والمرء يسعى ورزق الله مقسوم.

- كما تخوف العامة من الحسد والسحر وخاصة المرأة كانت أقرب للاعتقاد بالقوة الخرافية للسحر على مر عصور التاريخ؛ فكانت تذهب للساحر لتكيد ضرتها أو لتطلب أحجبة لتسهيل زواج البنات أواستجلاب محبة الزوج وغيرها من الأغراض التى تريد تحقيقها، ويرى العوام إبطال

شر الحسد والسحر بالبخور وخاصة يوم الجمعة بعد صلاة الظهر والأحجبة التى تكتب بها التعاويذ والآيات القرآنية وغيرها من الأعمال الغريبة التى تقى المريض من شر العالم السفلى .

كما ساد لدى العامة التطير والتشاؤم ببعض الأفراد والرموز والأرقام والكائنات مثل البومة؛ فهم يعتقدون إذا وجدت فى مكان جلبت الخراب والموت.

وغيرها من المعتقدات الغريبة والخاطئة التى زالت بزوال عصرها، ففى العصر الأيوبى نجد على الحائط الغربى للقلعة نحت «نسر ناشر جناحيه ومخالبه » اعتقد العامة بأن لهذا الطائر قدرة على التنبؤ بالغيب وإذا ما صفق بجناحيه ونفخ حوصلته فيعنى هذا الخير سيصيب المدينة أما أن أطلق صرخة فأل سيئ للموت أو لكارثة وشيكة.

ولكن إذا أردنا أن نعرف الحقيقة وراء هذه المعتقدات فنرجع إلى الوراء بعصور التاريخ (حديث ـ عثمانى ـ مملوكى ـ إسلامى ـ رومانى ـ فرعونى) سنجدها كما نجد غيرها زال واندثر ولكن البعض منها أصيل يرجع إلى زمن أصيل معتقداته راسخة حتى الآن وهو العصر الفرعونى وإن حدث له بعض التطورات حتى يلائم العصر.

ـ الأخت أو القرينة.

اعتقد المصريون القدماء أن لكل إنسان روحا أو قرينة تشبهه تمام الشبه أطلقوا عليها اسم (كا) تلاحقه طوال حياته، فإذا مات تسبقه إلى القبر وتظل فى انتظاره لتقدم له المساعدات المختلفة عندما يلاحق بها وقد مثلوها بشكل ذراعين ممدودتين إلى أعلى تتمثل فيها القوة والحماية والبقاء والعطاء وحتى الآن يعتقد الناس أن لكل إنسان (أختًا) أو (قرينة) (تولد معه وهى تحت الأرض. وإذا مسه سوء يقولون إنها غضبت منه وعليك أن تصاحب أختك تحت الأرض وذلك عن طريق السحر والشعوذة والأساليب الخرافية.

- الشمس المقدسة.

كان المصريون القدماء يقدسون الشمس رمزًا للإله (رع) وأثر تقديسها لا يزال ظاهرًا بيننا حتى الآن وتسمع لكثير ما يقوله المصريون «يا شمس يا شموسة خدى سنة الجاموسة وهاتى سنة العروسة. «كما نجد بعض الناس يقسمون بها ويقولون «وحياة الشمس الحرة.»

- وضع القلم خلف الأذن.

كان الكاتب المصرى القديم يضع القلم خلف أذنه بعد أن يدون مذكراته على لوحة الكتابة وتشاهد الصورة منقوشة على أحد جدران قبور الجيزة من عصر الدولة القديمة طيبة إلى عصور الدولة الحديثة، ولاتزال هذه العمارة حتى الآن واضحة بصورة أكثر بين فنانى العوام مثل الصيارفة - المحضرين - العمال.

- تناول الطعام على الطبلية.

وإذا كان وقت الطعام كان المصريون القدماء يجلسون على الأرض ويأكلون من الطعام الذى أعدوه على (الطبلية) ويشربون من إناء صنع من الفخار يشبه (القلة) أو من زمزمية من الجلد بل إن بعض الفلاحين كانوا يعلقون (قربا) من الجلد على الأشجار به ماء ليبرد ليرووا ظمأهم كما هم موجود فى الأماكن الريفية الآن.

- خسوف القمر.

وقد اعتاد البدويون فى مصر أن يهللوا أو يبتهجوا عند خسوف القمر وهم يقرعون الطبول والصفائح المعدنية ويحدثون بها دويًا شديدًا أو يقولون (احنا عبيدك يا رب) (يا أولاد الحور سيبوا القمر يدور)، ويحدث أحيانا أن يصوب الرجال بنادقهم نحو القمر ويطلقونها يعتقدون بذلك أنهم يحبطون العدو الذى يحاول الاعتداء على القمر.

- الوشم.

يعتبر الوشم من أقدم العادات التى مارسها (السومريون) سكان جنوب وادى دجلة والفرات (منذ مطلع التاريخ إذ كانوا يزينون أجسامهم به وكثيرًا ما يلجأن عامة الشعب الآن إلى وشم جانب جباههم بشكل عقاب وهو من بقايا تقديس الصقر عند القدماء المصريين كما أن بعض القدريات يلجأ إلى وشم ذقونهن بشكل العلامة الهيروغليفية (نفد) ومعناها جميل كما يحدث الآن وإذا وعدها الكثير مع تطورات العصر فى العرايش يقومون بالوشم على ذراعهم بأشكال مختلفة.

. ومن العادات الجنائزية فهى كثيرة فى مصر ومنها لطم الخدود وندب الميت وتلطيخ الرءوس والوجوه بالوحل والاهتمام بالقبور وتوزيع القربان فى الجبانات ونحر الذبائح والاحتفال بتشييع الجنازات وتقديم الباقات وأكاليل الزهور وإطلاق شعر الرأس واللحية علامة الحداد.

- الطلعمة.

يشتهر المصريون بإكثارهم من الاهتمام بالقبور وزيارتها من حين لآخر ويطلقون على ذلك (الطلعمة) وخاصة يوم الخميس والأيام الأولى من الأعياد ويوزعون القرابين على الجبانات صدقة ورحمة على روح المتوفى ويأتون بقارئ القرآن ليتلو صورة قصيرة على جبانة المتوفى مع وضع الإكليل من الزرع الأخضر والزهور على روحه رغم بساطة حالهم يفعلون ذلك ورغم من أن بعضهم لايملك من يومه سوى ما يشترى به هذه الهدايا للمتوفى وغالبًا تكون الزوجة أو أمه أو ابنة المتوفى، وكما يلاحظ أن الذى اهتم بالطلعمة هن السيدات ومن الغريب أن الجبانات تكون مكانًا لتبادل الحكايات عن بعضهن والسخرية وبها الكثير من النوادر .

ونجد من النساء أثناء وجودهن فى الجبانات يبكين بالدمع الغزير ويندبن ويلطمن ويصبغن وجهوهن بالنيلة تمامًا مثل ما كانت تفعل المرأة

المصرية القديمة منذ ٥٠٠٠ سنة مثلما فعلت الإلهة «إيزيس» عندما بكت زوجها الإله أوزوريس بكاء مرًا.

ونجد صورة نساء يبكين ويندبن على الميت وهو مسجى فى التابوت بينما الكاهن يطلق البخور من يده اليسرى ويصب الماء ا لمقدس بيده اليمنى.

ذكرى أربعين الميت

وقد اتخذت عن الفراعنة عادة ذكرى أربعين الميت وترينا أسطورة الإله أوزوريس أن أخاه «ست» قد حقد عليه وقتله ومزق جسده إلى أربعين جزءًا ورمى كل جزء منها بإقليم من أقاليم الوادى ـ الذى كان عددها فى ذلك الوقت أربعين مقاطعة وقد أقام المصريون للإله أوزوريس بعد أن أصبح إلهًا للموتى والاستشهاد أربعين قبرًا لكل جزء من جسمه قبر خاص يحج الناس إليه من كل حدب وصوب لينال البركة منه، وقد بقيت هذه الأجزاء من التحنيط مدة أربعين يومًا، ومنذ ذلك الحين والفراعنة يحنطون جثث موتاهم ويبقونها أربعين يومًا ويعالجونها بمختلف أنواع العقاقير ويلفونها بالأقمشة الكتانية ثم يشيعونها بعد ذلك إلى مثواها الأخير باحتفال جميل.

«الزواج المبكر»

إلا أن هذه الظاهرة بدأت تندثر من وقت لآخر بعد تعليم البنات على العكس من القرى فتعد أقصى أمنية للفلاح المصرى أن يزوج أولاده صغارًا متأثرين بحكمة من أحد حكماء المصريين القدامى (تزوج وأنت شاب حتى تنجب وتعيش وترى أولادك رجالا).. رغم أن ثقافتهم لم تصل بهم إلى حد هذه الحكمة إلا أنهم ورثوها عن أجدادهم.

والدليل أن للعامة ثقافةلا يعرفها المثقفون إلا بقراءة الكتب الدالة عليها فهم ورثوها جيلاً بعد جيل لإن العامة يمتازون بالحكايات والاستعراض بما لديهم من معلومات ومساعدة الناس.

التراث الفرعونى فى وعىّ الجماهير

صلاح الخولى

التراث الفرعونى فى وعى الجماهير.

التراث المصرى القديم والحضارة المصرية القديمة بصفة عامة مازالت موجودة فى نواحٍ كثيرة من المجتمع المصرى القديم فى العادات والتقاليد وفى التدين الشديد وفيما يتعلق بالتدين الشديد فالمصرى إنسان مؤمن عبر تاريخه فقد كان يؤمن بأن هناك حياة أخرى وأنه سوف يحاسب وسوف يجازى عن أعماله وعن أفعاله فكان يكرس حياته لهذه الفكرة، ونعلم طبعًا فكرة البعث والخلود التى آمن بها المصريون القدماء قبل غيرهم من المجتمعات القديمة المعاصرة فمثلا فى الجزيرة العربية قبل الإسلام كانت هذه الفكرة غير واردة على الإطلاق لكن المصرى القديم أيقن بها وآمن بها تمامًا وكرس حياته لها، رغم ما يعرف عن المصرى القديم من تعدد الآلهة لكن هناك ما يدل على أنه لدى المصرى القديم إحساس بفكرة الإله الواحد الإله الخالق؛ لذلك عندما يتحدث عن "آمون رع" يضعه فى مصاف الإله الأوحد الذى خلق كل المعبودات الذى بيده أرزاق البشر وأرزاق العباد ففكرة التوحيد بالفعل كانت موجودة وهناك نص من النصوص النادرة الذى اعتبره أحد الأمثلة الحية على أن المصرى

القديم كان يؤمن بالإله الواحد، يتحدث عن الإله، أعتقد أنه كان يقصد " آمون رع" أيضًا فيصفه بلفظ نادر ويقول له" وع وعوتى لين ميقت إف" وكلمة وع فى اللغة المصرية معناها الواحد مثل واحد فى اللغة العربية وكلمة وعوتى معناها الأحد أى المعنى حرفيًا" الواحد الأحد ليس هناك مثيل له "أو ليس أحد مثله، بالضبط هذه الفكرة توحى تمامًا بفكرة التوحيد وفكرة أن هناك إلهًا واحدًا وإله خالق وبالتالى فإن المصريين بالفعل كانوا شعبًا مؤمنًا وشعبًا متدينًا وانعكس هذا طبعًا على احتفالاتهم وفرحهم الشديد بمناسباتهم الدينية وكان لكل بلد ومدينة إله يمثل معبودها الأساسى وكانوا يكرسون عبادتهم إليه ويتوجهون إليه بالقرابين وما شابه بجانب إله الدولة الرئيسى، لأن هناك إله دولة رئيسيًا وأعتقد أن من استمرار هذه الفكرة أنه لابد من فكرة الشفاعة أن هناك إلهًا قريبًا منه أو معبودًا قريبًا منه يتقرب به إلى المعبود الأكبر، وتستمر هذه الصلة وأعتقد أنها ظلت موروثة حتى الآن تقريبا فى كل بلدة صغيرة وكل مدينة أحد أولياء الله الصالحين ويتوجه الناس إليه بالتقرب والدعاء وبما يعرف من كرامات لهم، طبعاً ليس بنفس الفكرة إيمانًا وإنما تقربًا بهم لله الخالق، طبعاً الدين الإسلامى نفسه ليس بحاجة إلى وساطة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، أيضًا المصرى القديم كان يؤمن بأن هناك حياة أخرى وانها حياة أكثر خلوداً من الحياة الدنيوية لكنه لحظة الوفاة يكون الأمر شديد القسوة عليه وذلك نستوعبه مثلاً فى مناظر الدفن ومناظر النائحات وأقارب المتوفى يخرجون خلف المتوفى يصرخون ويبكون ومناظر نادرة أعتقد ما زالت موجودة حتى أيامنا هذه، والسيدات وهن يضربن على رءوسهن بأيديهن، بل بعض النسوة يهلن الطين على رءوسهن تعبيرًا عن شدة الحزن، وما زال ذلك (المبالغة الشديدة فى الحزن على المتوفى) موجوداً بالفعل فى الصعيد وفى الريف، وأعتقد أن الأساليب المصرية القديمة ما زالت موجودة حتى أيامنا هذه، وربما المبالغة الشديدة فى الفرح، لكن المصرى القديم فى الواقع رغم ما يقال على

شعبه إنه شعب يميل إلى طابع الحزن أو الطابع المأساوى من خلال هذه المناظر، لكن هناك حياته وما تركه وما سجله فى المقابر تقول إنه كان يتمتع بحياته بكافة جوانبها ولا يريد أن يغيب عنه شىء مما كان يتمتع به فى حياته الأخرى، من الأشياء التى أعرف أنها مازالت مستمرة «صلة الرحم» صلة القرابة والالتصاق الشديد بالأسرة صفة معروفة عن المصرى القديم وهى مازلت موجودة حتى أيامنا هذه، فهناك مثلاً على سبيل المثال الخطابات التى يرسلها بعض الأشخاص المغتربين الذين يتواجدون فى أماكن بعيدة يرسلون هذه الخطابات إلى أهلهم نجد هذه الخطابات مفعمة أو مملوءة بالحنين والشوق إلى رؤيتهم وأيضًا القلق المستمر على أحوالهم، يرسل مثلاً الأب إلى ابنه رسالة يقول له «كيف حالك» حين يستخدمون لفظًا مصريًا قديمًا من العربى وهو «إيخ عاإك » يعنى «إيه حالك»، إيخ عالاشريو» «إيه حال الأولاد» «إيه حال البنات الفلابة»، خلى بالك منهم وما تخليهمش محتاجين أى شىء، لاتقصر فى أى طلب من طلباتهم» نزعة إيمانية أخرى لطيفة جدًا نجدها فى خطاباتهم أيضًا مستمرة.. أنه يرجع إلى أهله فيسألونه عن أحواله فيقول «حالى اليوم كويس أما الغد فلا أعلمه «يعنى أنه عارف أن المستقبل بيد اللّه، ده يمكن لفظ محايد بعض الشىء، ولكن هناك لفظًا أجمل بيقول «دواووه إمعا وى بانتر».. «دواووه «أى: الغد أو باكر، «إمعاوى بانتر «أى: فى يد الخالق، .. فى يد الإله، أى أنه يعرف إن الغد بيد الخالق أى يؤمن بالقدر ومشيئة القدر، أعتقد أن هذا ليس موجودًا حتى فى الشعوب الأخرى القديمة ولكنه موجود عندنا حتى أيامنا هذه، حتى وهو فى الغربة لاينسى أهله ولاينسى حتى دعواتهم له وحتى الآن عندما يكون الواحد مسافرًا يقول لأهله «ادعولى أرجع بالسلامة»، وهم يقولون ادع لنا لأن دعاء الغريب أو المسافر مستجاب، هذا الكلام موجود فى المراسلات المصرية القديمة، يبعث الخطاب ليقول لهم أنا تعب وكل ما أريده منكم أن تدعوا لى بالضبط نفس الفكرة، ثم يقول مثلاً «أن فى كل بلد أمر عليها أدعو الآلهة

التى أمـر عليهـا أن تجعلكم بخيـر وعـافـيـة وسـلام وتطمئنى دائمًا عـليكم «وهو يغضب جدًا لو انقطعت المراسـلات يقول مـثـلاً «أنا بعثت لك حفنة» حتى لفظ حفنة كان مستخدمًا - بعثت لك حفنة جوابات ولم يصلنى منك أى خطاب واحد، إيه اللى حصل «خبر إيه» نفس اللفظ كان يستخدم «إيه خبر» متوارثة بالفعل موجودة، التزاور وصلة الأقارب، ليس مجرد فقط أن يرسل له سـلام، ولكن حتى يرسل أو يرفق بعض الهـدايا والأشـيـاء حـتى العينية أو المادية ويرسلها لأقاربه ويبعث هذا الأمـر فى خطاباته فيقول مثلاً لواحد يعتذر إنه حزين جدًا جدًا إن رسوله ذهب لهذا الشخص ولم يرسل له شيئًا معه لأنه فوجىء بأن الرسول مسافر مثلاً فى اليوم التالى فلم يتمكن من أن يجهـز له شيئًا ويقـول لـه أنا لم أكن أعـرف أن فـلان سيمـر عليك لو كنت أعرف أنه سيمر كنت أرسلت لك معه عشرة أرغفة أوكذا وكذا نفس هذا اللفظ يستخدمه المصرى حتى العتاب يعنى الشخص يغضب جدًا جدًا من صديق أو قريب حين يهينه أو يقسو عليه ويظهر هذا فى شكل من أشكال العتـاب رقيق جـدًا مـثـلاً صديق يـرسل لصديقـه إنه مـثـلاً لم يـكن يرسل لـه خطـابات أو يراسله فـيـقـول له «مـش كـان فـيـه بينا عيش وجـعـة «أى البيـرة مثل العيش والملح عندنا، لأنه كـان العيش والبيـرة فى متناول كل إنسـان وكانت من مستلزمات الحياة، والمعنى كيف تنسـانى ولا ترسل لى «مـثل هذه الجـوانب عـديدة جدًا لوصف العـادات المصـرية القـديمة والعلاقات المصرية الأسـرية، وكنموذج آخـر لهذه العلاقـات هناك سيدة أرسلت خطابًا لأختها تسكن فى منطقة الصعيد أى فى منطقة طيبة وأختـهـا هـذه يبدو أنهـا تسكن فى منطقـة أحـسن حـالاً من المنطقـة التى تعيش فيها صـاحبة الرسالة فالأخيرة تسكن فى منطقة صحراوية وفقيرة وليس بهـا إمكانات فـأرسلت رسـالة لأخـتـهـا تقول لهـا باللهـجـة العـاميـة المصريـة «أنا أرسلت لك شوية قمح حطى عليهم شوية شعير واصحنيهم - واستخدمت لفظًا مصريًا قديمًا وهو «صحن» يعنى «يطحن» - إطحنيهم واعمليهم عيش وابعتيهم لى على هنا علشان زوجى زعـلان وبيشتم عليا

وبيتخانق مع أمى وبيقول لى أهل البلد كلهم لهم أقارب بيجولهم (يزوروهم) وجايبين لهم أكل وسمك وعيش وبيرة وأشياء كتيرة معاهم وإنتى ليكى أم وليكى إخوات ومافيش حد فيهم فاكرك لحد دلوقتى يا إما تتصرفى أو تعملى شىء يا إما تنزلى مصر «ده اللفظ بالضبط الذى جاء حرفيًا فى الرسالة ومعنى «يا إما تتصرفى» أى تقومى بشىء «أو تنزلى مصر» أى تذهبى عند أهلك، كلمة مصر مثلما نقولها الآن على أى مكان فى مصر ليس بالتحديد مثلاً البلد يعنى وإنما أى مكان، فمثلاً «القاهرة» نحن نطلق عليها « مصر»، ومصر عند المصريين القدماء اسمها «كيميت» وهى مصر القديمة ممكن تعنى أى منطقة متحضرة أى فيها إمكانات مادية، فهذه المرأة حقيقة أعتبرها نموذجًا فريدًا للمرأة المصرية لأنها تصرفت بمنتهى الذكاء، فهى أخذت من بيته هو أى من إمكاناته هو بعض القمح وأخذت من أختها بعض الشعير وتصنع أو تخبز العيش ثم تحضره لهم وبالتالى الرجل سيسعد من هذا لأن «تنزلى مصر » يعنى أرجعك عند أهلك أى أطلقك، وفى نفس الوقت تكشف عن شىء مهم جدًا أن التقاليد المصرية القديمة «صلة الرحم» أن أهل الفتاة فى المناسبات والأعياد يذهبوا ليزوروا ابنتهم ويأخذوا معهم الزاد والزواد والأكل والشرب معهم وهذا الكلام موجود عندنا حتى الآن فى الريف والقرى وفى بعض مناطق المدن إن أهل الفتاة أهل الزوجة يأتوا فى المناسبات والمواسم والأعياد ويأتوا بزيارة للبنت فهذا الرجل يهمه الشكل الاجتماعى والتقاليد وأن يرى الناس من حوله أن له ناسًا يتذكرونه وهناك أهل زوجته، ومن الواضح إنه ليس محتاجًا يعنى عنده على الأقل بعض القمح فالمرأة أيضًا تصرفت بذكاء ولم تخرب بيتها كما يقال، فمن بيته هو أخذت بعض القمح وزودت عليهم بعض الشعير عند أختها وحلت المشكلة، وهذا بالفعل نموذج لاستمرارية العادات والتقاليد المصرية القديمة حتى أيامنا هذه وكم أرجو أن تستمر.

أكثر فترات التاريخ الفرعونى تأثيراً.

لعل أكثر فترة ترتب عليها أوضاع سياسية وتغيرات كثيرة كانت فترة الهكسوس، مصر طبعًا تعرضت لهجمة قوية وشرسة جدًا لو لم تكن تتوقعها وهى هجوم جنس غازٍ قوى يمتلك كل مقومات القوة وبشكل جحافل أعداد ضخمة وهم من عرفوا بعد ذلك باسم الهكسوس وهذه يبدو أنها كانت هجرة شعوبية من أواسط أوروبا واجتاحت تقريبًا كل منطقة الشرق الأدنى القديم وخربتها تقريبًا ونزلوا مصر واحتلوها لأن مصر كانت من أغنى دول المنطقة سكنوا فيها فى منطقة شرق الدلتا وبدءوا تدريجيًا يستولون على جزء جزء من مصر حتى وصلوا إلى «طيبة»، وطيبة كانت إمارة مستقلة منفصلة لايستطيع الهكسوس الاستيلاء عليها ويبدو أن أهل طيبة بعد فترة من الفترات جاءت لهم النزعة الوطنية أنهم لابد أن يحرروا مصر ويخلصوا مصر من هذا العدو الأجنبى وبدءوا بالفعل يستعدون ويحملون السلاح ويقوون أنفسهم شوية شوية حتى شعر الهكسوس بذلك فتحرشوا بهم وأرسل ملك الهكسوس رسالة نوع من الاستفزاز فيها فكرة خبيثة فيقول لهم «إن أصوات أفراس النهر تزعجنى ولا أستطيع النوم» ويطلب التخلص منها، وحاول حاكم طيبة أن يتفادى هذه المشكلة بشكل ودى وأكرم الرسول إلى آخره ولكن لم يكن هناك مفر الهكسوس كانوا قد قرروا خوض الحرب على أى حال المرحلة الأولى انتهت بالهزيمة ولكن بعد ذلك أبناء هذا الحاكم والملك واسمه «كاموس» ثم «أحمس» بعد ذلك أخذوا راية النضال وشحذوا كل همة المصريين فى التخلص من الهكسوس وتحقق لهم هذا الأمر وتم القضاء على الهكسوس وتدمير عاصمتهم ثم مطاردتهم خارج بلاد الشام أى خارج فلسطين، حاصروهم فى فلسطين ثم قضوا عليهم، المهم فى هذه الحرب أو معركة التحرير كما يطلق عليها أنها بالفعل خلقت نوعًا من الوعى القومى لدى المصريين وأن خير وسيلة لحماية مصر - لأن مصر كانت مستهدفة بشكل مستمر بسبب رخائها وثرائها - أنه التوسع خارج حدود مصر حماية حدود

مصـر الخارجية، وبدأت بالفعل ما نطلق عليه اسم عصـر الإمبـراطورية، هذه الفترة خلقت نوعًا من الوعى الاجتماعى ونوعًا من الوطنية الشديدة ظهرت فى أسماء ثلاث ملكات من ملكات حرب التحرير وهن لعبن دورًا غير عادى فى هذه المعركة الملكة الأم أو الجدة الأم كانت تُعرف باسم «تى تى شيرى» وهى أم جدة الملك أحمس؛ ثم أمه الملكة «ياحتب» وهى عاشت حوالى ١٢٠ أو ١٠٠ سنة تقريبًا وزوجة أحمس «أحموسا نفرتارى» الثلاث سيدات هؤلاء لعبن فى الحقيقة دورًا كبيرًا جدًا وبالتحديد الملكة الثانية وهى «ياحتب» لأنه يبدو فى المرحلة الأ ولى من الهزيمة إن مصر تعرضت لهزة لسبب من الأسباب فذكرت بعض النصوص أنها التى جمعت شتات الفارين، التى أعادت مصر مرة أخرى لقوتها، بمهارة الخبيرة العارفة، أشياء كثيرة وصفت بها هذه المرأة مما يدل على أنها لعبت دورًا غير عادى فى حرب التحرير وفعلا يبدو أنه مع أى معارك هناك أناس يتملكها اليأس والقنوط وما شابه وربما يحدث نوع من الهروب حتى أنها استطاعت أن تلم شتات المصريين، ودفعت ابنها "كاموس" قبلاً ثم أحمس فى خوض حرب التحرير، حرب التحرير هذه بالفعل كانت غير متوقعة من الفكرةأ ن الهكسوس استطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على مصر تتحول هذه المعركة إلى القضاء على دولة الهكسوس تمامًا وطردهم من مصر وبعد ذلك فتحت مصر على العالم الخارجى وعلى بلاد الشام وبلاد الرافدين، وهنا تم قيام الإمبراطورية المصرية وزاد وعى المصريين واعتزازهم بمصرهم ووجدوا بالفعل أنها صانعة الحضارة وأنها دولة قوية، حتى فى تعاملهم مع الدول الأخرى كان تعامل متحضر قامت جاليات مصرية كانت موجودة هناك لكنها تعايشت مع الأماكن التى وجدت بها وهذا بالفعل خلق نوعًا من التفاعل لدرجة أنه عندما يحدث غزو لتلك المناطق على سبيل المثال من الآشوريين أو غيرهم كان هؤلاء الحكام يلجئون إلى مصر طلبًا لعونها ومساعدتها، إذًا هذه الفترة كانت من أغزر فترات التاريخ المصرى فى الوعى وفى التراث الحضارى

والعادات الاجتماعية وعدد كبير من الحكم والنصائح، نشيد إخناتون المشهور الذى فى بعض الفقرات منه يشبه المزمور الرابع لداوود عليه السلام، فكرة التوحيد التى أمن بها إخناتون كل هذه الإرهاصات بدأت فى تلك الفترة، الوعى الاجتماعى حتى رفض الظلم يعنى بعض العمال فى تلك الفترة الذين كانوا يعملون فى المقابر الملكية تعرضوا لبعض المتاعب الاقتصادية توقفت الدولة عن دعمهم بالمرتبات والمأكولات والشراب وغيره فوصل الأمر بهؤلاء الناس أن يعلنوا إضرابهم ويشكلون ثورة من الفترات النادرة فى التاريخ وكان شكل الثورة، لا أستطيع أن نطلق عليها ثورة عارمة وإنما شكل الاحتجاج على ظلم من قبل الدولة، العادات الاجتماعية كثيرة جدًا فى تلك الفترة عرفناها عن المصريين القدماء منها بعض القصص التى ذكرتها سابقاً، الحقيقة مرتبطة بتلك الفترة التى نطلق عليها اسم فترة "الرعامسة" أو عصر الدولة الحديثة التى هى بالفعل أكبر فترة وأكثر فترات الحضارة المصرية تأثيرًا فى المصريين القدماء.

أهم العادات الفرعونية الممتدة.

- من أكثرها الاحتفال بشم النسيم هناك من يقول إنه عيد مصرى قديم لكن لا توجد أدلة على أن المصريين كانوا يحتفلون فى هذا التوقيت بالذات بهذه الصورة التى نحتفل بها الآن، لكن الثابت أن المصريين القدماء كانوا يقدسون النيل ويفرحون بفيضانه وأنه بالفعل مصدر الخير بالنسبة لهم وإنه شكل من أشكال إعادة الحياة أو شكل من أشكال الخصوبة لمصر، هناك احتفالات مشابهة مثل احتفال عيد الإله "مين" وعيد " أوبت" وعيد " الوادى" مجموعة من الأعياد الضخمة التى كان يحتفل بها المصرى القديم ربما تتشابه مع فكرة شم النسيم، وشم النسيم هى إعادة الحياة للأرض وإعادة الاخضرار وإعادة الربيع وما شابه، والمصريون كانوا يحتفلون بهذه المناسبة ببداية الفيضان وفترة ازدهار الأرض وظهور المحصول كل هذه بالنسبة لهم كانت أسباب احتفالات كثيرة

مثلما ذكرت الجنازة أيضًا من صور التقاليد المصرية القديمة التى تستمر حتى يومنا هذا.

تأثير اللغة القديمة على اللغة الحالية.

هو تأثير كبيرًا جدًا وهو ليس فقط من الشرط أن نتكلم عن ألفاظ موجودة فى اللغة المصرية القديمة مثل الأعداد " وع صى نون" واحد اثنين ثلاثة، "بتر" بمعنى "يبصر"، «سجم" بمعنى " يسمع"، "حتر" وهى الحصان زوج الخيل وهى قريبة من الحنطور، كلمات كثيرة جدًا لكن الألفاظ المستخدمة هناك ألفاظ كثيرة مازلنا نستخدمها حتى الآن فى اللغة العربية الفصحى كان يستخدمها المصريون القدماء أو اللهجة العامية، مثلاً "إيخ عا إك" "كيف حالك" مازالت فى العامية، ولو شخص يتشاجر مع آخر يقوله "لن أسكت لك" أى» لن أسامحك" أى لن يظل ساكت أمامه، أو "لن أتركك "، "شاى" فى المصرية القديمة يعنى " يأخذ"، فنفس اللفظ المصرى القديم كلمة يأخذ يستخدمه في التعبير عن المؤاخذة والمحاسبة، أيضًا اللفظ الذى نستخدمه فى هذه الأيام فى شهر رمضان الأغنية الشهيرة الخاصة بالشهر وهى "وحوى يا وحوى" «و» «أيوحة» هو لفظ مصرى قديم ومعظم رجال الآثار المصريين يعرفون كلمة «أيوخة» أو «إياح» و هو القصر باللغة المصرية القديمة أو الهلال، أي كلمة «وخوى يا وحوى» لا أحد يعرف تفسيرها، ولكن أنا لى رأى فيها فهى تقابل كلمة «واح» أى «دام» أى يدوم ويستمر، ولفظ «وى» فى «وحوى» هو أداة تعجب، أى أن المصرى يقول دمت دمت أو دايم دايم يا هلال، أى يعنى دمت دمت يا شهر، وأعتقد أن هناك أغنية الآن تعبر عن نفس المعنى.

تأثر الشخصية المصرية بالملامح الفرعونية.

تركيب المجتمع المضرى القديم كان تركيبًا طبقيًا فيه طبقة عليا حاكمة وطبقة وسطى وهى طبقة الكتاب وكبار الموظفين والطبقة العامة وهى طبقة الفقراء والكادحين، ولكن فى معظم الفترات كانت الطبقة العاملة أو

الفقيرة تؤمن بأن الملك الجالس على العرش هو القائد وهو صاحب السلطة فى إدارة شئون حياته بالكامل ويثق فيه ثقة كبيرة فى الحقيقة وبالتالى نجد أنه أحسن للملك فبالرغم من أن سلطة الملك تكون مطلقة ولكنه يعمل لصالح البلد ويسند النظام له مسئولية كبيرة فكان المصرى يخلص لهذا الحاكم إخلاصًا كاملا؛ ويضحى بكل شىء ويعمل كل شىء لهذا الحاكم، طبعًا هناك فترتان كان يحدث فيها خلل اجتماعى نتيجة استغلال الطبقة العليا للفقراء والكادحين فيحدث نوع من الاضطرابات وشكل من أشكال الثورة مثلما حدث فى نهاية عصر الدولة القديمة، حدثت ثورة اجتماعية أيضًا فى نهاية عصر الدولة الحديثة نتيجة خلل أو عدم قيام الدولة بواجباتها فحدثت السرقات التى تعرف باسم «سرقات المقابر»، إذ أن المصرى يقدر السلطة الحاكمة طالما تعمل لصالحه ومخلصة وبالتالى يعطى عطاء لا حدود، وهذه بالتالى يفسر الإنجاز الضخم الذى قام به المصريون القدماء، إن الإدارة كانت منظمة وقوية وحاسمة ومخلصة فى نفس الوقت وهذا ترتب عليه هذا الإنجاز أى لم يكن شىء غير عادى أو كما يقال أناس أتت من عوالم أخرى أو غيره وإنما جهد منظم ومخلص وحقق ما حققه المصريون القدماء وأعتقد بالفعل أن هذا يمكن تحقيقه فى أيامنا هذه.

التراث الفرعونى فى الأمثال الشعبية.

الحقيقة هذا موضوع يحتاج إلى بحث ولكن أنا أذكر قصة فيها ما يماثل المثل الشعبى «اثنين إخوات كانوا زعلوا مع بعض، فالصغير زعل من الكبير لأن الكبير قال نكتة على الصغير، والكبير زعلان ويحاول أن يصالح أخوه الصغير ويقول له أنا كنت باهزر وفلانة هى اللى قالت لى أقول هذه النكتة، وأنت فجأة زعلت منى علشان حاجة زى كده، أنت عملت زى واحد متجوز واحدة بعين واحدة لمدة عشرين سنة وفجأة لقى واحدة تانية غيرها

فقال لها أنا هاطلقك، أنا مش عاوزك إنت بعين واحدة، فتقول له يعنى بعد عشرين سنة اكتشفت دلوقتى بس إن أنا بعين واحدة يعنى إنت بتتحجج علشان تسيبنى، فهذا ربما يكون مصاغ بطريقة أو بأخرى فى أيامنا هذه لكن نفس الفكرة إن الإنسان بعدما تتغير أوضاعه الاجتماعية يبدأ أحيانًا أن يتخلى عن واجباته وتقاليده لكن لا تحضرنى أمثلة كثيرة نشعر بالفعل أنها ذات بذور مصرية قديمة، الحكمة مثلاً الحكم والنصائح كلها طبعًا مازالت موجودة، الدعوة أن الرجل أو الإنسان أهم شىء بالنسبة له أن يبنى بيت يعنى يؤسس بيت ويتزوج ويكون أسرة وإن هذه الأسرة هى عضده فى الحياة وهى سنده فى الحياة، والدعوة إلى أن الإنسان إذا دخل بيتًا يستأذن ولايدخل أى بيت صاحبه غير موجود وفيه المرأة بمفردها، يعنى يحذر من هذه الأشياء وتحذير شديد جدًا من الرذيلة فى عدم وجود صاحب المنزل، يدعو للإصغاء وعدم الجدل شكل من أشكال الطاعة أن الإنسان يسمع كويس جدًا ويفهم ثم يتحدث، يدعو أيضًا للتفكير قبل الرد والتريث فى الرد، يدعو أيضًا إلى طلب العلم فى كل مكان من أى إنسان وهناك جملة جاءت فى نصائح «بتاح حتب» أنه يدعو الابن إن يطلب العلم حتى ولو من الجاهل لأن الجاهل قد يكون عنده فكرة معينة، حتى من المرأة التى على «الرحى» على حجر الرحاية وهى تطحن قد يكون عندها خبرة ومعرفة بأشياء لا تعلمها أى يحث الإنسان على التعلم وطبعًا هناك مجموعة مهمة جدًا من الرسائل تحذر الإنسان أو توبخ التلميذ أنه لايهتم بالمذاكرة ويخوفه ويقول له إن التعليم هو أهم شىء وأنك لن تستطيع أن تحقق مكانتك الاجتماعية وحتى يخوفه يقول له تخيل حياة المزارع فى الحقل ما شكلها، ويصف له المعاناة القاسية والقسوة والشدة التى يعانيها المزارع ويقارنه أيضًا بالجندى تخيل حياة الجندى فى المعركة وما يتعرض له بعد القتل أو عند الهزيمة وكل هذه الأشياء وبالتالى الدفع أو الدعوة إلى التعلم كانت بالفعل فى صميم وفى ضمير كل مصرى.

التراث الفرعونى فى العمارة.

العمار اللبنية التى كانت مستخدمة فى الريف حتى وقت قريب، بالفعل كان المصرى القديم يبنى المقابر الخاصة به والمعابد وما شابه بالحجارة لأن هذه هى بيوت الأبد والبيوت الخالدة لكن العمارة الساكنة التى كان يسكن فيها كانت كلها بالكامل من الطوب اللبن ولذلك لم يبق شىء منه والمبانى طبعًا كلها كانت من الطوب اللبن وذات ارتفاعات عالية للتكيف مع البيئة، فالبيئة كانت بيئة حارة ويلحق بالبيت دائمًا أماكن لحفظ الغلال والمطبخ وفى نفس الوقت حظيرة للماشية تكون موجودة فى هذا المكان هذا كان موجودًا وثبت الآن أنه كان بالفعل أنسب وسيلة بناء تتناسب مع البيئة المصرية فى عصرنا الحديث، الخشب طبعًا كان يستخدم فى تسقيف وبناء السقف التى كانت من جريد النخل أو سعف النخيل وطبعًا هذا كان يستخدمه المصرى القديم، الأبواب الخشبية المرتفعة، الأسقف العالية المرتفعة؛ لأن الارتفاعات العالية كانت تعمل على تنقية الهواء باستمرار فى البيوت، نحن بدأنا نأخذ فى شكل العمارة القديمة وهى الواجهات الخاصة بالمعابد المصرية كشكل من أشكال الزخرفة فى العمائر المصرية الحديثة لكن لم تطبق فكرة الاتساعات والمساحات المتسعة والارتفاعات كما كان يطبقها المصرى القديم.

التراث الفرعونى فى الفنون الشعبية:

الحفلات التى كانت تقام فى المنازل وتحضرها النسوة والرجال وكان لابد أن يكونوا فى أكمل زينتهم (وبخاصة بالنسبة للسيدات) ويجلسوا فى صفوف ويتناولوا الشراب، وكان هناك ساقى يمر عليهم بالشراب وكان دائمًا مجموعة من الفتيات يقمن بالرقص وبعض العازفات والمغنيات يقمن بالغناء وهو ما كان يبين التمتع بالحياة إلى هذا الحد، مثلاً كان من الصور المشهورة للمغنين ما يطلق عليه اسم عازف القيثارة أو عازف الهارب، وكان فى معظم الحالات ضريرا وكان يعزف على الهارب أو

القيثارة ويغنى أغانى كانت تعطى انطباعًا أن الإنسان لابد أن يتمتع بحياته ويعيش يومه ولايفكر فى الغد.

وفى فترة ما بعد الثورة الاجتماعية التى حدثت أن الناس كانت فقدت بعض من الإيمان فيقول لهم أنا لا أصدق أن هناك بعثًا وأن الناس الذين ماتوا لم يعودوا ليقولوا لنا ماذا تم، لكن كانت تبين الروح الاجتماعية فى تلك الفترة. طبعًا المواكب ومواكب الأعياد تكون مواكب ضخمة بالغناء والرقص مثل « عيد الوادى» و«عيد أوبت» أو مثلاً والمواسم التى كان يخرج فيها الملك «أمنحتب الثالث «كانت الناس تخرج بالرقص والزمر ويتوجهون بالشكاوى حتى الخاصة بهم إلى هذا الإله لكى يبت فى بعض المشاكل الخاصة بهم، حتى صور الاحتفال بالموالد الحالية مثلما يطلقون عليها مولد الشيخ فلان، ومولد الشيخة فلانة، كانت موجودة فى مصر القديمة حتى كانت كلمة «مسيت» معناها» مولد «مسيت الإله حتحور، مسيت الإله إيزيس، مسيت «حور»، مسيت «رع» أى ميلاده، مثلما نقول مولد، فالمولد كان يحتفل فيه بطريقة أعتقد أنها مشابهة للطريقة الحالية.

التراث الفرعونى فى العادات والتقاليد.

هناك أشياء كثيرة جدًا مازالت باقية وبخاصة ما يدل بالتماسك والتقارب الاجتماعى والتعاطف والاهتمام بالغير والاهتمام بالضيف، فالمصرى القديم كان يهتم بالضيف ويكرمه، كذلك الغريب كان لابد أن يكرم لأنه غير عارف بالبلد وجاهل بها.

الصبر والدعوة للصبر كانت فعلاً من السمات الموجودة عند المصرى القديم وموجودة عندنا فى أيامنا هذه حتى الآن.

حب الفكاهة والمرح كانت موجودة عند المصريين القدماء رغم أنه لم يسجلوا كثيرًا جدًا لكن هناك أمثلة تدل على أنهم كانوا مرحين وعندهم حب الفكاهة وبعض الكاريكاتير، فقد عثر على نماذج من الكاريكاتير على

الفخار تمثل وتصور هذه الروح للدعابة. وهناك منظر مشهور يطلق فكرة «المثلث المعكوس» أو انقلاب الأوضاع الاجتماعية، فأر مصور على هيئة سيدة تجلس على كرسى وخلفها قطة تقوم بتمشيط شعر هذا الفأر وقطة أخرى تحمل الفأر وتحمله مثل زكيبة على الصدر بشكل كوميدى يريد أن يقول إن الأوضاع فى المجتمع أحياناً ممكن أن تتغير ويصبح المطارد هو المُطارَدأو السيد يصبح المسود أو العكس، فالفأر بعدما كان مطارَد من القط أصبح هو السيد والقطة هى التى تقوم بخدمته.

التراث الفرعونى فى المأكولات

لا يوجد تغير كبير، حيث إن معظم أنواع الجبن متوفرة وكثيرة جداً، وحتى الجبنة الحلوب، كلمة «حلوب» مشابهة لكلمة الجبنة فى المصرية القديمة "حلوم" ومعناها جبنة، وهناك تأير للمستويات الاجتماعيةفالفقراء كانت مأكولاتهم بسيطة بهذا الشكل، الفول نفسه كان موجود وكان اسمه "بُر" لكنّ المستويات العالية كانت اللحوم بالنسبةلهم وجبه أساسية، المناظر التى كانت موجودة على موائد القرابين تصور كل أنواع اللحوم من أوز إلى ثيران إلى أسماك، كانت دائماً هذه الموائد عامرة بكل هذه الأشياء، الشراب طبعاً كان أكثر شىء متوفر هو البيرة كانت مثل الماء وكانت رخيصة جداً، النبيذ كان غاليًا ولا يتوفر لكل المستويات، الخبز نفسه كان عندهم أنواع متعددة منه وبالذات الخبز الطويل، والشىء المهم الذى لابد أن نعرفه أن كلمة خبز فى اللغة المصرية كان اسمها "تا" معها أداة تعريف "با" وبقت وعاشت هذه الكلمة فى نوع الخبز الذى كان معروفًا عندنا فى الريف باسم "البتاو" وأعتقد أنها موجودة فى اللغة الأوروبية وعدنا نستعيرها مرة أخرى وهى "الباتون" و " الباتيه" وهى كلمة مصرية ولكننا نقولها باللغة الأجنبية حتى نتفاخر بها ولكنها من أصل مصرى قديم، وأنواع "الكعك" والحلوى طبعاً كانت متوفرة وكان يتم التحلية بعسل النحل بصفة عامة و"الكعك " هى كلمة مصرية باللغة المصرية

اسمها "عكك" أو "عك" ومعناها "الكحك" ونفس الكلمة نقولها الآن، ونفس الكلمةأيضاً ذهبت للغات الأوروبية وحرفوها "كيك"، والحقيقة أن المصريين القدماء كان عندهم غزارةفى الأكل، الأسماك كانوا يهتمون بتمليح الأسماك، وكانت الأسماك من الأطعمة المقبولة تماماً والبصل والثوم وكل هذه الأشياء التى كانت مصر تشتهر بها، وكافة أنواع الخضر وكافة أنواع المنتجات الزراعية كانت مصر غنية بها، العدس كان من الأشياء المهمة جداً عند المصرى القديم وكان اسمه " أرش" وكانوا فى الصعيد ومازالوا حتى الآن يأكلونه بهذه الطريقة، ونحن عرفناه عن طريق الرهبان فى العصر القبطى وكيف كانوا يأكلونه (يأتون بالعدس ويطبخونه زى الشوربة ويأتون بالعيش الناشف ويفت فى الشوربة).

التراث الفرعونى فى الملابس

ربما تكون بعض ملابس النساء أو الملابس التى بالحمالات، الملابس الطويلة بحمالات، وربما العباءة كانت موجودة بالنسبة للرجال وبالنسبة للنساء ملابس النساء والرجال، أيضاً كانت الملابس "البليسيه" وهى المكشكشة وأعتقد كانت موجودة حتى فترة قريبة لكن أكثر شىء بالفعل فى ملابس النساء هى الملابس بحمالة وهى موجودة حتى الآن ومعظم المصريات القدماء كن يلبسنها وكانت ملابس شفافة ولكن كان هناك رداء كاسى يغطيها.

التراث الفرعونى فى السلوك

الأشياء التى ذكرناها التوصية بالأب والأم والاهتمام بالأم والاهتمام بالزوجة ورعاية شئونها لكيلا تحتاج أى شئ وأن يكون الرجل مسئولاً عنها مسئولية كاملة وأنه حتى لا يقسو عليها، ومساعدة الأب فى كبر سنه، والاهتمام أيضاً بإنجاب الأبناء لأن الأبناء يصبحون السند له فى الكبر، والاهتمام بالجار، والاهتمام بالغريب، وكل هذه الأشياء وردت فى

سلوكيات المصرى القديم تعكس سلوكيات المصرى الموجودة حتى الآن إن الإنسان لو لم يكن يعمل هذه الأشياء لكنه يخشى جدًا من الأشياء المعيبة فى السلوك فينفيها، يقول أنا لم أقتل، أنا لم أزن، أنا لم أسرق أنا لم أغش فى الميزان، يريد أن يكون خالصًا أمام الخالق من كل هذه العيوب، ويذكر الأشياء الإيجابية فيقول أنا كنت أطعم الجائع وأسقى العطشان وأكسى العارى أو العارية وأساعد الناس ومن لا أرض له أعطيه أرضًا ومن لا مركب له أجعله يعبر أو أعطيه مركبًا، كل هذه الأشياء من التراث المصرى القديم، والحكمة المصرية القديمة أعتقد ما زالت موجودة قيم مثل العدل والرحمة والمساواة كانت مهمة وموجودة وكان محور الحكم أو محور المجتمع المصرى القديم يطلق عليه اسم العدالة أو «معت» ومعناها العدالة، فالمصرى القديم وضع للعدالة إلهة معينة على رأسها ريشة و«معت» كانت فى فهم المصرى القديم عكس الفوضى التى تقوم بخلق التوازن ما بين كل الكائنات وبين كل نواحى الحياة فى المجتمع وأن المسئولية كانت تقع على الملك فى تحقيق هذه العدالة، تحقيق الـ «معت» ومن خلال تحقيقها يستطيع أن يحفظ هذا التوازن، حتى المصرى كان يتخيل شكل الحياة فيما قبل الخليقة، كانت نوعًا من الفوضى فى كل شىء حتى كلمة فوضى هى «أناركى» حتى بدأ ينظم الله سبحانه نظمه عن طريق بعض العدالة وهى «معت»، فالمصرى كان يصر على تحقيق هذه العدالة وينادى دائمًا بتحقيق هذه العدالة، الملك كان المفروض هو المسئول عنها وعندما يحدث خلل يدعو المصرى إليها، مثلاً فى تعاليم «تحتمس الثالث» وزيره «رخنى رع» يقول له أنت ميزان العدالة على الأرض، أنت الذى تحقق هذه العدالة.

القروى الفصيح فى شكاويه من الظلم الذى وقع عليه فى كل جملة كان يذكر الحاكم بالعدالة يقول له أنت الميزان، إن ثقالة الميزان لو اهتزت تهتز العدالة ويقع الظلم، فالعدالة كانت تلعب عند المصرى القديم دورًا كبيرًا جدًا، لذلك عندما ينفى يقول «أنا لم أظلم» مهم جدًا أن يكون لم يظلم

أحداً، التراحم طبعًا تحدثنا عن الرحمة بالصغير والرحمة بالفقير وعندما يقول «أنا أطعمت الفقير وكسوته» كل هذه أشياء بالفعل تعبر عن فكرة الرحمة عند المصريين القدماء .

* * *

تأثير الحقبة اليونانية والرومانية

أحمد عتمان

ينبغى التأكيد فى البداية على أن الحقبة الإغريقية والرومانية هى من أكثر الفترات تأثيرًا فى وعى المصريين، إذ أنها امتدت إلى ألف سنة منذ عهد الإسكندر الأكبر إلى عهد الفتح العربى، هناك إذًا ألف عام من تاريخ مصر إغريقى رومانى وهذا العصر له تأثير لا يمكن إنكاره.

بدءًا من اللغة فهناك تأثيرات متنوعة فى العادات والتقاليد، العلاقات الاجتماعية والثقافة بشكل عام ومن أهم التأثيرات التأثير فى اللغة العربية حيث يوجد العديد من الكلمات اللاتينية والرومانية موجودة فى اللغة العربية إلى يومنا هذا. كما إن مصر أثرت فى الحضارة الرومانية الإغريقية مع وجود العديد من الكلمات العربية فى اللغة اللاتينية والإغريقية حيث إن اللغة هى وعاء الحضارة ولغة الحضارة المصرية الفرعونية يوجد بها بعض الكلمات من الإغريقية هذا معناه أنها لمست جميع جوانب الحياة.

تأثير اللغة اليونانية والرومانية على لغة المصريين

- الرومان والإغريق تأثروا بالحضارة المصرية القديمة والديانة

المصرية، القديمة الإغريق بالذات لم يجلسوا فى المدن الكبيرة فقط مثل الإسكندرية ولكنهم ذهبوا إلى الريف والأقاليم والقرى ونحن نرى العديد من القرى والمدن التى تحمل الأسماء الإغريقية حتى يومنا هذا يقال (أبوتيج اسم مدينة هى أصلاً كلمة يونانية) الإسكندرية (كلمة يونانية لو نقبنا أو بحثنا فى نواحى الحياة المصرية وهذا الخط نفسه مختلط بالحضارة المصرية القديمة حيث إنهم أتو وعبدوا إيزيس فى الحضارة المصرية الفرعونية القديمة، لذلك إيزيس نراها موجودة إلى يومنا هذا فى الحياة المصرية مع العلم أن إيزيس الموجودة فى يومنا هنا تجمع ما بين عناصر مصرية فرعونية قديمة وعناصر إغريقية قديمة.

ويوجد تأثير كبير فى اللغة حيث كلمة (بسارى ـ فالصو) كلمة لاتينية ربما يكون من أصل إيطالى ولكنها لاتينية.

أما عن تأثير التاريخ الإغريقى والرومانى على الشخصية المصرية فإنه من الملاحظ أن الشخصية المصرية شخصية حضارية تفتح ذراعيها لكل وجميع الحضارات الموجودة حيث تقوم بمحاورتها ومجاراتها وتختلط بها وتمتزج بها وتؤثر فيها؛ ولذلك الحضارة المصرية القديمة تقبلت الحضارة الرومانية الإغريقية القديمة وأيضًا أثرت فيها تأثيرًا قويًا تلك هى سمة الشخصية المصرية أنها تؤثر وتتأثر ولا تتغير حيث إنها لم تصبح إغريقية أوروبانية بصفة كاملة حيث أخذنا منهم وتأثرنا بهم وأثرنا فيهم وذابت الحضارة الرومانية والإغريقية فى أرض مصر.

سوف نلاحظ العديد من الكلمات فى اللغة العربية موجودة إلى يومنا هذا مثال كلمة بساريا وهذا نوع معروف من السمك فى هذه الأثناء أطلق عليه الرومان هذا الاسم لنفس نوع السمك الموجود فى يومنا هذا والعديد والعديد من الكلمات الموجودة فى يومنا هذا وخصوصًا فى اللغة العامية العادية مأخوذة من الرومانيين والإغريقيين.

فكلمة فالصو وهى كلمة تطلق على الذهب المقلد أو الغيرة أو على

الأكواء الذى يشك أنه ذهب ولكنه غير ذلك يطلق عليه لفظ فالصو كما أن هناك تأثيرًا قويًا من الرومانيين والإغريقيين.

بالنسبة للديانة المسيحية حيث كلمة الروم كلمة موجودة فى الديانة المسيحية كما أن هناك العديد من الترانيم التى تقال فى الكنائس أصلها رومانى ولاتينى والعديد من الطقوس المسيحية أساسًا رومانية وتقام بنفس الطقوس الرومانية موجودة إلى يومنا هذا فى الديانة المسيحية.

ومن التأثيرات القوية مثلاً إيزيس المصرية قديمة ولكن دخلت فيها بعض العناصر اليونانية أى بعض التجديدات فيها حيث قام الرومانيون ببناء معبد خاص لها فى أسوان اسم هذا المعبد (أنس الوجود) وسوف نلاحظ إختلاطًا فى الحضارات الثلاثة (الفرعونية - الرومانية - الإغريقية) فى هذه القصة (إيزيس) إلى يومنا هذا نحن نكتشف برديات يونانية - مع العلم أن البرديات أساسًا فرعونية - هذه البرديات عليها العديد من النصوص هذه النصوص لا علاقة لها بالفكر والأدب والديانات لكن بعضها له علاقة مهمة بالحالة الاقتصادية ومن هذه البرديات والنصوص توصلنا إلى تأثير مذهل فى الحياة الاقتصادية مثل أصل وصول الضرائب من الحضارة الإغريقية والرومانية حيث إن الرومانيين هم من أقاموا بعمل هذه الوصلات التى نحن متأثرون بها إلى يومنا هذا ومن المذهل أن هناك تأثيرًا من هذه البرديات والنصوص خاصة بهذه الفترة حيث وجود الدروس الخاصة حيث إن الرومانيين كانوا يعطون لأبنائهم دروسًا خاصة بجانب دراستهم الثابتة لتدعيم قدراتهم ونحن فى يومنا الحالى نفعل ذلك.

ونحن متأثرون بهم كثيرًا أيضًا فى المبانى، فهناك بعض عناصر الزينة اليونانية الإطار اليونانى المشهور العناصر الفرعونية هذه أشكال زخرفية معينة نرسم بها على الأنسجة أو على المبانى أو على الأطباق أو فى نقوشات الذهب مثل شكل ميدوزا وهو شكل يونانى وشكل فيزاتشى أيضًا فى الملبس والذهب ونقوش المبانى أيضًا وتطور الموضوع حاليًا أنه أصبح

ماركة موضة عالمية للملبس والمكياج، وهناك أيضًا بعض الإلهة الرومانية التى نحن متأثرون بها إلى الآن مثل فينوس وكان يطلق عليها إله الحياة وكيوبيد إله الحب وهى طبعًا أيضًا إحدى الأساطير التى نحن متأثرون بها إلى يومنا هذا، ومن المعروف أيضًا أن كل هذه الأشياء نقشت على الذهب ولو رجعنا إلى المتحف الرومانى لرأينا هذه النقوشات وهذه الإلهة كما أن هناك دليلاً فاصلاً فى هذه النقوشات مثل عامود السوارى وكلها فى المتحف الرومانى بالإسكندرية لا يوجد تأثير فى الملبس بسبب التطور الذى وجد، لم نأخذ شيئًا بخصوص اللبس فقط الأسماء والنقوشات بالنسبة للبس ولم نتأثر بهم فى الزراعة فى شىء؛ لأن مصر كانت رائدة فى مجال الزراعة وهذا شىء واضح لأن الرومانيين تأثروا بالفراعنة أكثر من تأثيرهم فينا كما رأينا وكل التأثيرات التى أخذناها فى اللغة والزخرفة ولا' توجد أكلات متأثرين بها ولا عادات ثابتة لأنها دخلت فيها تأثيرات أخرى مع التطور وأصبحت منفردة وتلك هى كل التأثيرات.

* * *

• مكونات ثقافة الفقراء (المكون الدينى)

المكون الدينى

محمد السيد الجليند

إن المكون الدينى هو عنصر أساسى فى ثقافة الفقراء، والأغنياء على السواء، ولا يتميز فى ذلك فقير عن غنى، ولا غنى عن فقير، لأن الثقافة الدينية أو المكون الدينى لثقافة الإنسان يرتبط بفطرته، أيًا كان هذا الإنسان فقيرًا أو غنيًا، مصريًا أو أجنبيًا، لأننا نجد الإنسان فى شتى الحضارات فى ثقافته المكون الدينى بطريقة لا شعورية، سواء أحس أن هذا المكون الدينى هو دينى، أو هو من موروثات العادات والتقاليد التى ورثها عن الأجيال السابقة فى بيئته التى يعيش فيها، فنحن ورثنا بعض الأمور التى وجدناها فى الشارع المصرى من عادات القدماء، وإذا بحثنا فى بعضها قد نجد صلة قوية بين هذه العادات وبين الموروثات الدينية، ومن تبعات، أو من موروثات علماء الاجتماع الذين ترجموا لنا عن الغرب، وبالتحديد عن علماء الاجتماع فى الغرب، وأكثر دقة عن المدرسة الوضعية فى علم الاجتماع، أن الدين ظاهرة شعبية نجدها فى ثقافة الفقراء، ولا نجدها فى ثقافة العلماء أو الأغنياء، هذا حكم غير صحيح على إطلاقه، ولذلك فإن البحث عن المكون الدينى فى ثقافة الفقراء لا يتميز عن المكون الدينى فى ثقافة الأغنياء، لكن الفارق بين الاثنين أن هناك من يلتزم بعناصر المكون الدينى فى ثقافة وهناك من لا يلتزم، بل قد نجد فى

الأغنياء من يلتزم بالمكون الدينى فى ثقافة أكثر وأكثر من التزام الفقير، فالتفرقة بين الاثنين لا مجال لها في الحقيقة.

أما فيما يخص الشعب المصرى بالذات فمن المهم جدًا أن نعلم أن الشعب المصرى بطبيعته مسيحيًا كان أو مسلمًا هو متدين بفطرته، فالمصرى المسيحى متدين ومحب لدينه، والمصرى المسلم متدين ومحب لدينه، هذا بفطرته وذاك بفطرته ولا خلاف بين العنصرين المكونين لهذه الأمة فى التمسك كل بدينه.

فالبحث عن المكون الدينى هو مكون أساسى فى ثقافة العنصرين المكونين للشعب المصرى، ومن المعروف أن ثقافة الشعب المصرى تاريخيًا هى ثقافة دينية حتى منذ أيام الفراعنة، ونجد أن الرسوم والكتابات والزخارف الموجودة على معابد قدماء المصريين مملوءة بالمكونات الدينية، لا فرق فى ذلك بين فقير وغنى، ربما نجد أن هذه المكونات الدينية تمثلت عند البعض فى شكل أمثال ونوادر يحكيها البعض عن ذاك وذاك، وهذا يدل على أصالة الثقافة الدينية فى ثقافة الشعب المصرى عمومًا أيًا كان مستوى الفرد الإجتماعى فقيرًا كان أم غنيًا.

ليس هناك دين شعبى ودين أرستقراطى، الدين دين الله، هناك من يلتزم بأوامر دينية ومكونات دينية، وهناك من لا يلتزم، ومن الممكن أن يقال هناك ثقافة شعبية وموروث شعبى وأدب شعبى وقصص شعبية، أما الدين الشعبى فهذا المصطلح أيضًا وافد إلى ثقافتنا من ثقافة علماء الاجتماع فى أوروبا وبالذات علم الاجتماع الواقعى، الذى يذهب إلى أن الدين ظاهرة شعبية وظاهرة تاريخية.

وهى فى الطبقات الشعبية أو الطبقات الدنيا من المجتمع أكثر ظهورًا منها فى الطبقات الأرستقراطية، هذا الحكم مبنى على موقف علماء الاجتماع من الظاهرة الدينية فى أوروبا، لكنه لا يصلح للحكم على الشعب المصرى؛ لأن الشعب المصرى لا فرق فيه بين شعبى وغير شعبى، فالكل متدين بفطرته، لكن الفارق الحقيقى بين الالتزام وعدم الالتزام.

علاقة «الدين الشعبى» بالأديان السابقة فى مصر

حيث إننى أرفض مصطلح «الدين الشعبى» فمن الممكن أن نسميها الثقافة الشعبية، نعم فعندنا فى الشعب المصرى بعض الظواهر أو المظاهر الاجتماعية ربما نجد لها رصيدًا فى الثقافات الشعبية القديمة الموروثة عن الفراعنة أحيانًا، على سبيل المثال فى الريف المصرى نجد لدى بعض الناس عادة الخروج يوم الخميس على المقابر، ويحتفلون بمضى أربعين يومًا على المتوفى، هذه العادة من موروثات العادات الشعبية، أو التقاليد الشعبية الموروثة عن قدماء المصريين، وهى لا أصل لها فى الدين الإسلامى، وهناك أيضًا بعض المظاهر المتمثلة فى الأمثلة الشعبية موروثة أيضًا عن قدماء المصريين وعن الثقافات الشعبية التى ورثناها عن الديانات السابقة، وفيما يخص الديانتين السابقتين عن الإسلام بالذات اليهودية والمسيحية ما صح عن المسيحية وما صح عن اليهودية، نحن نؤمن به ونحاسب عليه أمام الله، لأننا كمسلمين نؤمن باليهودية الصحيحة، ونؤمن بالمسيحية الصحيحة، ونؤمن برسالة موسى، وعيسى، وإبراهيم وجميع الأنبياء، كما قال القرآن الكريم لا نفرق بين أحد منهم، ونضيف إليهم ما جاء به آخر الأنبياء وهو (محمد صلى الله عليه وسلم) بين هذه الثقافات الملونة باليهودية والمسيحية قد نجد فى الشارع المصرى وبالذات فى صعيد مصر بعض الظواهر الشعبية التى يمتد جذورها إلى بعض التقاليد المسيحية التى كانت موجودة فى صعيد مصر.

فاعلية المكون الدينى فى تشكيل ثقافة البسطاء

المكونات الدينية فى ثقافة الإنسان عمومًا، ولا أخص الفقراء فقط كثيرة جدًا، والشعب المصرى ليس فقيرًا، الشعب المصرى غنى جدًا، وإذا قمنا باستقراء ما يمتلكه الشعب المصرى مما يسمى المادة، أو أساس الفقر والغنى؛ نجد أنه من أغنى شعوب العالم العربى، أما عن المكونات الدينية فى ثقافة الشعب المصرى، إذا اعتبرناه من الشعوب الفقيرة؛ فلها

أهمية كبيرة جدًا كما قلت، ولنا أن نلاحظ الحوار الثقافى الآن بين الذين يرفضون الحجاب كلباس إسلامى أو كمظهر من مظاهر الزى الإسلامى، والذين ينادون بالحجاب كلباس مناسب لستر جسد المرأة، فإذا طرحت هذه القضية على مستوى المسلم الفقير أو الفقير عمومًا فى الشعب المصرى، نجد المرأة والرجل المصرى أكثر تمسكًا بهذا من الرجل الغنى المثقف والمرأة الغنية المثقفة، لماذا؟ لأن المرآة الغنية المثقفة قد تجد فى تراثها وموروثاتها الثقافية بعض الآراء التى ربما أوهمتها أن الحجاب عادة عربية وجدت فى جزيرة العرب وورثها المسلمون عن الجزيرة العربية، ومن خلال ثقافتها فى علم الاجتماع تظن أن هذه ظواهر شعبية مرتبطة ببيئة جغرافية وبيئة زمنية معينة، لكنها لم تقرأ للأسف الشديد النصوص الواردة فى الكتاب والسنة المتعلقة بأن المرأة يجب أن تستر جسدها ما عدا الوجه والكفين، أما المرأة الفقيرة فإنها لما سمعت هذا النص تمسكت به، يضاف على ذلك أن المرأة المصرية بطبيعتها تميل إلى العفة والاحتشام فى الملبس، فتجد من مظاهر هذا الاحتشام فى محافظات مصر وبالذات فى الريف المصرى، نجد فى كل محافظة المرأة الريفية لها زى شعبى معين يستر جميع جسدها ما عدا الوجه والكفين، تسمى هذا الزى باسم معين، فزى الشرقية غير زى الغربية، غير زى المرأة التى من البحيرة والصعيد، لكن فى كل هذه المحافظات نجد المرأة الريفية محتشمة فى زى يستر جميع بدنها ما عدا الوجه والكفين، حتى لو لم تحفظ النص الدينى لكنها ورثت هذا من الأسرة والأجيال السابقة بشكل فطرى لأن فطرة المرأة تميل بطبيعتها إلى الاحتشام وستر جسدها عن الغير، وهذه الأهمية ورثتها المرأة المصرية وورثها الرجل المصرى من موروثات المكون الدينى فى ثقافة الشعب المصرى.

تأثير المكون الدينى فى تشكيل وعى الجماهير

هناك عبارة للإمام محمد عبده، وهو من أبرز المصلحين فى مطلع

القرن العشرين هى أن «أية حركة إصلاح للشعب المصرى ما لم تتخذ الدين مدخلاً لهذه الحركة الإصلاحية، فلا فائدة من هذا لأنه كما قلت سابقًا، إن الشعب المصرى متدين بفطرية أيًا كان الإنسان المصرى مسيحيًا، أومسلمًا؛ فهو متدين بفطرته، فإذا أردنا إصلاح هذا الشعب اجتماعيًا، وثقافيًا، واقتصاديًا لابد أن يكون المدخل لهذا الإصلاح مدخلاً دينيًا، وهذا يبين أهمية المكون الدينى وحرص الإنسان المصرى على المكون الدينى فى ثقافته، والذى يتجسد فى سلوكه، ومعاملاته، وعاداته، وملابسه، وتجارته إلى آخره..

ظواهر المكون الدينى فى ثقافة الفقراء

الفقير يصلى، وطبعًا هذا الحكم ليس عامًا، لأننى كما قلت فى البداية أن المكونات الدينية ليست قاصرة على الفقراء، لأن المكون الدينى كما قلت يتجسد فى ثقافة الغنى والفقير، الشعبى والأرستقراطى. والمكون الدينى يتمثل فى ثقافة الفقير بمظاهر كثيرة جدًا فهو يصلى ويصوم ويعتكف فى ليالى رمضان، ويخرج الزكاة حتى ولو كان فقيرًا، يحافظ على عفافه، والكرم على قدر طاقته المادية، وفى زيه ومعاملات مع الناس، هذه كلها ظواهر تجسد المكون الدينى فى ثقافة الإنسان المصرى، بالطبع كل حكم له استثناء، لذا فإننا نجد بين الفقراء من لا يلتزم بهذه المظاهر، أو بهذا المكون الدينى

المكون الدينى وعلاقته بالدين الرسمى

لا أقر بهذه التقسيمات، الدين الرسمى ودين الفقراء، الكل يؤمن بالدين، لكن الفوارق فى الالتزام، حتى الدولة، قد تأخذ من الإسلام ما فيه من مصلحة الدولة، «مصلحة المسلمين وهذا واقع، أما دين النصوص فليس هناك ما يسمي بدين النصوص، هناك الكتاب والسنة وهما المصدر الأساسى للدين الإسلامى.

وعلى سبيل الإجماع، فالفقير والغنى فى مصر ملزمان بالكتاب والسنة إلى حد كبير جدًا أما بما يسمى دين النصوص، فالدولة ملتزمة بالنصوص إلي حد كبير جدًا.

ربما يكون فى الذهن موقف الدولة من الحدود، والحدود فى الإسلام لا تطبق إلا بشرط يستحيل تطبيقها، ويستحيل تحصيلها، فليس هذا رفضًا لها، وإنما كما قلت مجاراة لواقع التاريخ الإسلامى، ولم تطبق هذه النصوص إلا فى القدر اليسير، وهى المتعلقة بالحدود، والدولة الرسمية تأخذ بأحكام الأسرة أو ما يسمى بالأحوال الشخصية وتطبقها تطبيقًا حرفيًا، فالدولة ملتزمة بهذا، فبالنسبة للمعاملات لا نجد فى المعاملات التى تعتنقها الدولة ما يخالف الإسلام فى كثير من الأمور، ربما المعاملات فى البنوك، وقد أحلها شيخ الإسلام، وبعضهم أفتى بأنها ضرورة، وتقدر بقدرها، وبعضهم قال إنها ليست ربًا لأنها لا تتوفر فيها أركان الربا، فمعاملات الدولة فى واقع الأمر ليس فيها ما يتناقض مع ما تسمونه دين النصوص أو دين الفقراء.

والظواهر التى قد ينظر إليها البعض على إنها مناقضة للإسلام ليس للدولة فيها دخل أو دور وإنما للأفراد. فالدولة لن تأتى إلى فتاة تمشى عارية الجسد وتلزمها بالقانون ولن تأتى إلى رجل ارتكب جريمة السرقة وتقول له اعترف لكى أقطع يدك. فالحدود التى تقف منها الدولة موقف عدم التنفيذ، وشروط تطبيق الحدود لا يمكن أن يتأكدفهو لن يقع ولا يقع إلا بالاعتراف والإقرار، وهذا لا يحدث إلا فى أيام الرسول (ص) حينما رجم ماعزو الغامديه، وفى عهد عمر بن الخطاب يقال إن أحد الذين سرقوا اعترف أمانة وحتى لم تكتمل شروط إقامة الحد عليه بالرغم من ذلك.

تأثير الأحداث التاريخية المختلفة

يمكن أن تفرق بين أمرين، بين الأحداث التاريخية التى تتعلق باستعمار

الغرب للمنطقة العربية ومنها مصر، والأحداث التاريخية التى تتعلق بمقاومة مصر والمنطقة العربية للاحتلال أيًا كان، فمقاومة المنطقة العربية ومصر للاحتلال، كان يتجسد فيها المكون الدينى، كدافع، وحافز للمقاومة ضد الاستعمار، وضد الغزو، وكان الدين هو العامل الأساسى فى استنهاض الهمم، وحفز الشباب، وحفز الرجل والمرأة على مقاومة المحتل وتمثل هذا جيدًا فى مواقع كثيرة جدًا، فمثلاً صلاح الدين الأيوبى فى موقعة حطين، ومن المهم أن يعلم الشباب أن الجندى المصرى هو الذى حرر بيت المقدس بقيادة صلاح الدين الأيوبى، وذلك من منطلق قوة المكون الدينى، وكذلك فى موقعة سيف الدين قطز عين جالوت كان الجندى المصرى أيضًا هو الذى هزم التتار فى هذه الموقعة، وفى مقاومة الإنجليز فى حملة فريزر فى سنة ١٨٠٧، وأيضًا مقاومة الاحتلال سنة ١٩٥٦، والصهيونية فى ١٩٤٨، وحرب أكتوبر ٧٣، كان المكون الدينى هو العنصر الأساسى فى شحذ همة الجندى المصرى والإنسان المصرى بصفة عامة فى مقاومة الاحتلال فى هذه المواقف التاريخية كلها، ولذلك يعتبر المكون الدينى أحد عوامل النصر فى معركة عسكرية خاضتها مصر ضد عدوها، لكن هناك نوعًا آخر من الاستعمار وهو ما يسمى فى كتابات البعض بالاستعمار الثقافى، واستعمار العقول أو الغزو الثقافى، وهذا يعنى مع اختلافنا فى التسمية سواء سميناها استعمارًا ثقافيًا أو غزوًا ثقافيًا، أكيد أنه يختلف كثيرًا عن الغزو العسكرى، لأن الغزو العسكرى يحمل معه بطبيعته عوامل المقاومة، أما الغزو الثقافى فغير مداخله التى لجأ إليها الاستعمار وقد راجت على الكثيرين من المثقفين، لأنهم استعملوا فى ذلك مداخل كثيرة جدًا أولها أنهم قضوا على رمز وحدة المسلمين، وهى الخلافة الإسلامية، وتلا ذلك تقسيم العالم الإسلامى إلى دويلات إقليمية، ثم طرحوا على هذه الدويلات الإقليمية عناصر الفرقة والعصبية والحرب بين كل إقليم وآخر من منطلق بعث ما يسمى بالقوميات، كالقومية الآشورية فى العراق، والقومية الفرعونية فى مصر، والقومية

البربرية فى شمال إفريقيا، وغيرها. وبدأت هذه القوميات والتى كانت خاضعة لعنصر الوحدة الإسلامية تحت مسمى الخلافة، تصارع بعضها البعض، فانشغل المسلمون ومنهم مصر بالصراع الداخلى، وهذا قد هد كيان الأمة وفرق وحدتها ووجه اهتمام المثقفين والعلماء عن المواجهة مع الخارج إلى المواجهة مع الداخل.

كل قومية بتعصب أبنائها ضد القوميات الأخرى، فصارت الحروب وصارت العصبيات، وهذا ما مهد للاستعمار أن يلتهم المنطقة العربية من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، وبدأ يبذر بذور التخلص من الماضى تحت مسمى الجمود والتخلف والرجعية، ولفت نظر المثقفين إلى الغرب كقبلة ينبغى أن يتوجه إليها العالم العربى والإسلامى ليأخذ عنها ثقافته الدينية والروحية والعلمية أيضًا، فى هذا المجال بدا الإنسان المصرى والعربى يتأثر بالثقافة الوافدة، وخاصة طبقة المشتغلين بالثقافة الذين تربوا على الثقافة الأوروبية، والذين وقعوا فى قبضة المستشرقين وكتاباتهم، وتربوا على موائد الغرب وعلى فكرة أن الماضى والعودة إلى الماضى رجعية، وتخلف وجمود، فينبغى أن نتخلص من الدين والإسلام والتراث، ونوجه قبلتنا ووجوهنا إلى الغرب لنأخذ عنه حتى تتقدم كما تقدم الغربيون، مع كل هذه الحركات والأساليب بقى الإنسان المصرى الذى تسمونه بالفقير متمسكًا بدينه وبشعائره، وليس رافضًا للغرب، لأنه غرب وإنما يرفض من الغرب ما يتعارض مع دينه ومع عقيدته، وبهذه المناسبة أود أن أقول إن الكلام الذى أقوله لا يعنى رفض ثقافة الغرب، وإنما يعنى رفض تسلط الغرب على الشعب المصرى، وثقافة الشعب المصرى، وعلى ثقافة المنطقة، ورفض دين المنطقة.

لأننا نحتاج أن نأخذ عن الغرب كل ما هو نافع وكل ما هو مفيد مما يتماشى مع مصالح الشعب المصرى، ولا يتعارض مع عقيدة المصريين الذين تسمونهم بالفقراء.

بالنسبة لتطبيق الدين، الدين مصطلح أكاديمى له جانبان، جانب عقائدى وهذا مطبق فى مصر والحمد لله تطبيقًا تامًا، فالكل يصلى، ويصوم، ويزكى، ويؤمن بالله، ويؤدى فريضة الحج إذا استطاع كل فرد، وجانب الأخلاق هذا أيضًا والحمد لله إلى حد كبير مطبق داخل الأسرة المصرية، أما الشارع المصرى، فإن الأمر يختلف اختلافًا كبيرًا، لأن الشارع المصرى لا يخضع للرقابة الذاتية للإنسان وإنما يخضع لعوامل أخرى، وتتدخل فى سلوك الشارع مجموعة من العوامل التى ينبغى أن نعذر بجانبها الإنسان المصرى، وهذه العوامل منها ما هو اجتماعى كالازدحام الكبير، ومنها ما هو اقتصادى ومنها ما هو ثقافى، هذه العناصر الثلاثة التى تكون ثقافة الشارع المصرى تجعل الجانب الأخلاقى فى بعض المواقف، ولا أقول فى كلها حتى لا نظلم الإنسان المصرى، يتنازل عن بعض الأخلاقيات تحت وطأة هذه الظواهر المكونة لثقافة الشارع المصرى. أما فى داخل الأسرة المصرية فأنا لا أشك أن الأسرة المصرية، ينشأ أبناؤها على الأخلاق الإسلامية فى كثير من السلوكيات والعادات والتقاليد.

والعنصر الثالث من عناصر الدين وهو المعاملات، فهى خاضعة فى مصر للنظام الإسلامى إلا فى الجانب الذى تحدثت عنه فيما مضى وهو جانب البنوك، وهذا كما قلت قد أفتى فيه شيخ الأزهر بأنه ليس ربا والذين قالوا إنه ربا أجازه بعضهم من منطلق انها ضرورة وأن الضرورات تبيح المحظورات وتقدر بقدرها.

قد يكون هناك بعض النتوءات السلوكية فى الشارع المصرى وفى المجتمع المصرى لكنها لا تشكل ظاهرة وهى لا تعود إلى جميع أفراد الشعب المصرى وإنما تعود إلى المجموع، بمعنى أن الحكم العام على السلوك فى مصر هو سلوك إسلامى، لا شك فى هذا، وهذا لا يعنى أن

جميع الأفراد ملتزمون، ولا يعدم الأمر أن نجد بائعًا يبيع البضاعة الفاسدة للناس، وتاجرًا يغش فى بضاعته، هذه ظواهر اجتماعية لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات، ولا يستطيع منصف أن يحرم الشعب المصرى من المظهر الإسلامى أو سلوكه الدينى أيًا كان صاحب هذا الدين مسلمًا أو مسيحيًا، لأن الفرد المصرى كما قلت متدين بطبعه..

تأثير المكون الدينى فى السلوك

تأثير المكون الدينى فى سلوك الإنسان الفقير المصرى وفى ثقافته واضح، والمصرى ملتزم بالقيم الدينية والأخلاقية فى مجموعه وليس جميعه، لأننا كما قلت قد نجد بعض التجار أو الصناع أو اللصوص وهذه الظاهرة لا يخلو منها مجتمع، كما أن المكون الدينى يوجد فى سلوك الإنسان الغنى كما يوصف سلوك الإنسان الفقير، لكن التقسيم الذى يأخذون به هو تقسيم طبقى، ومن حسن الحظ أن أغنياء مصر فى عصرنا الحاضر هم من أكثر أغنياء العالم تمسكًا بالدين، وبالمكون الدينى فى ثقافتهم، فإننا نجد رجال الأعمال يتبرعون بالأموال للمشروعات الخيرية لدور اليتامى والملاجئ، كما نجد الفقراء أيضًا يجتهدون وطاقتهم وأيديهم يقومون بهذه الأعمال، فقصر السلوك أو المكون الدينى على الفقير فقط لا محل له فى الشعب المصرى.

* * *

علاقة «الدين الشعبى» بالنصوص الشرعية

عبد الصابور شاهين

لا أتفق مع مسمى «الدين الشعبى»، وإنما الثقافة الشعبية؛ لأن الإسلام الذى يدين به رئيس الجمهورية، هو الإسلام الذى يدين به أفقر الناس فى الشارع، ولذلك لا يقال دين شعبى ولكن يقال الثقافة الشعبية للمستوى الشعبى، أما عن العلاقة بينهما لا شك أن المتدينين من الفقراء يأخذون معتقداتهم عن الأئمة الخطباء فى المساجد، ويستمدون من هؤلاء ثوابتهم الشعبية التى يسيرون عليها، وقد تختلط هذه الثوابت ببعض الخرافات والأساطير عن سيدى فلان وعن مقام سيدى فلان إلى آخره وكل هذا من بقايا التخلف فى العقيدة.

. علاقة «الدين الشعبى» بالأديان السابقة فى مصر.

أولاً: .

يجب أن تعلم أن الإسلام عندما جاء إلى مصر كان فيها بعض التدين على عقيدة الأغنياء ولكن الإسلام منذ ١٤٢٠ سنة، وقد دخل مصر يمكن أن تقول إنه أصبح العقيدة النهائية لهذا الشعب، ومن ناحية أخرى لا يمكن أن نفترض أن للإسلام علاقة بالأديان السابقة لأنه لم يستمد منها

وإنما جاء ليسمعنا ويجيبها وبذلك فلا علاقة بين الإسلام وبين الأديان السابقة سواء كانت وثنيات أم كانت أديان كتابية لأن الإسلام عندما جاء؛ جاء ليلغى كل ما سبقه ولكى يملأ الساحة بالتوحيد.

فاعلية المكون الدينى فى تشكيل ثقافة البسطاء

أولاً:.

يجب أن نعلم أن الفقراء يعيشون على مجموعة من المعتقدات ربما تكون معتقدات باطلة، وربما تكون معتقدات بسيطة ليست بذات خطر، وتأخذ مثال بعض الناس من البسطاء يؤمن بأن لسيدنا الحسين بركة، وسرًا باتعًا، وهذا باطل لكنه يعيش على هذه العقيدة، وإذا لم يصادف من يصحح له عقيدة التوحيد، وأنها تتنافى مع الاعتقاد بالبركات، وبالأسرار، سيظل على ضلاله، ولن يستطيع أن يصحح موقفه من اعتقاده وهكذا، مثلاً يمكن أن يصادف من يعتقد بالبركات والأسرار شيخًا مستنيرًا يصحح له فكره، وأن يعلمه الأصل باعتقاده التوحيد، وأن الإنسان لا يأخذ الدين عن الخرافات والأساطير، وعن المضللين من الناس؛ فهناك من يضللون الناس، مثلاً بعض الفقراء من أتباع التصوف، قد يشيعون معتقدات باطلة فى شيخ الطريقة، وما ينبغى أن يكون فى العهد الذى يأخذه عليهم شيخ الطريقة، وما ينبغى أن يفعله كل تابع للطريقة هذا كله لا يضلل الواعين من أهل الثقافة وإنما يضلل البسطاء.

المكون الدينى وتشكيل وعى الجماهير

إذا كان المفهوم الدينى متصلاً بالسياسة، فإنه يؤثر فى وعى الجماهير، لأن وعى الجماهير مطلوب على مستوى السياسة، لكن إذا كان الوعى الجماهيرى لا هدف له، فلا علاقة له إذًا، ولكن يتأثر بالمفهوم الدينى. هو وسيلة تخدرهم ليصبروا على فقرهم وليرضوا بنصيبهم، ولكنهم لا يحاولون أن يغيروا وضعهم، الذى يحرص على الدين الإسلامى وعلى

تغيره فعلاً، فكل إنسان مطلوب منه أن يبذل أقصى ما فى وسعه، لكى يغير قدره ونصيبه، ووضعه السىء، فهذا مطلوب، وعندما يتصور أى إنسان فقير يرضى بقدره ويبقى على ما هو عليه، ولا يحاول أن يغير هذا فهو مخطئ، وليس متديناً بالإسلام.

الاختلاف بين ثقافة البسطاء والدين الرسمى

الفقراء لا يكونون وحدة منسجمة فهناك فقراء من الريفيين، وهناك من أهل المدينة والحرف وكل هؤلاء فقراء، ولكن مصادر تثقيفهم العقلى مصادر مختلفة، ولذلك لا نستطيع أن نحكم حكمًا شاملاً يمثل حياة هؤلاء وثقافتهم الشاملة وإنما تستطيع أن تقول إن لكل حرفة تأثيرًا، وكل وضع له تأثيره الخاص من الناحية الدينية على عقول أصحابها.

الآن أستطيع أن أؤكد أن التليفزيون أصبح التسمية التى يلجأ إليها الناس.

يستمدون حياتهم الثقافية منها، والتليفزيون يقدم خليطًا من الثقافات المفيدة، والضارة ولا نستطيع أن نسوى فى التأثير بين أى مؤثر دينى، وبين تأثير التليفزيون الآن على عقول العامة وخصوصًا فيما يتعلق بالبرامج الخليعةوالمنحلة، نستطيع أن تقول إن التليفزيون هو المكون الأساسى لثقافة الفقراء، ودرجة تأثير المؤثرات التاريخية دينية واجتماعية لم يعد لها وجود الآن فى عهد التليفزيون.

والفقراء إذا كانوا أميين وجهلة فإنهم لا يفهمون ما يقدم لهم عن طريق الأحاديث الدينية ولا يستوعبونها ولا يدركون أهدافها، ولذلك فائدة من تقصى الأحوال الخاصة بالأميين الفقراء، ولكن إذا كان الفقير مثقفًا ثقافة حقيقية بأنه متعلم فهذا وضع آخر نستطيع أن نقول إن المؤتمرات الدينية تتصارع مع التليفزيون وخصوصًا عندما يقدم التليفزيون مادة درامية قوية ومادة دينية هزيلة وتافهة وذلك عن قصد وتخطيط فعلاً، والفقراء لا يميزون بين الخطأ والصواب فهم يصدقون ما يقوله التليفزيون.

هناك أحد العلماء هو الذى أطلق ثقافة الفقر، اسمه «أوسكار لويس» قام بعمل دراسة على أسر فى المكسيك، وأسس نظرية اسمها ثقافة الفقر يقول فيها إن الفقراء لهم صفات وهى صفات دامغة ملتصقة برأسهم، وهى أنهم لا يوجد عندهم حساب للمستقبل لا يفكرون ومشاركتهم فى مجال العمل الاجتماعى قليلة وهناك سؤال يطرح نفسه هل للفقر سبب أم أنه يمكن أن يكون سبب سوء التنظيم الاجتماعى، فهناك البعض عنده القدرة على العمل ولكن لا يوجد فرص عمل والبعض ليس عندهم درجة من الوعى لأنه لم يكن هناك من يعيهم منظومة الوعى فلم يجدوا من يقدم لهم تنشئة جماعية جيدة.

والفقراء لم يتعرضوا فى مراحل عمرهم المختلفة لجهود مكثفة فى التنشئة الاجتماعية إذًا من السبب فى ذلك الفقراء أم المجتمع؟! هو يريد أن يؤكد ذاته وليس عنده مال فماذا يفعل، ينجب أطفالاً يؤكد بهم ذاته من ناحية، ولهم ميزة اقتصادية فالكلام الذى قاله أوسكار لويس عن المشاركة المجتمعية.

إنهم يحسون أنهم مهضومون فى الواقع، فلماذا يشارك فى شىء لن يجود عليه بشكل مباشر؟ ولذلك هو يعزف عن المشاركة، وكل اهتمامه بأشياء خاصة به، لأن لديه إحساسًا أن المجتمع لا يراعيه فهو يراعى نفسه، هذا تفسير سلوك هذا الشخص فهو يعيش يومه لا يوجد عنده مدخرات وهذا على الشعب عامة وأيضًا ليس له طموح يحقق فيه ذاته، أيضًا الإفراط فى الغذاء، وذلك لأنه لا يعزف، وليس لديه وعى لماذا يفرط، لأن هناك حرمانًا تاريخيًا عند الناس، لذلك عندما يحصل على الشىء الذى حرم منه يبالغ فى الإفراط، وهو رد فعل للحرمان نفسه وهذا التفكير ليس عند الفقراء فقط، ولكنها تزيد عند الفقراء والعامة والطبقات الدنيا مثلما يحدث فى بعض المواسم مثل رمضان يزيد فيه الاستهلاك، وهذا عبء عليه، وكل هذا يحتاج إلى تنشئة اجتماعية، ونهج

حياة على مختلف المراحل فى الملبس، والمأكل كل هذا تتسم تربيته مبكرًا، وليس أخيرًا، أى نحن لم ننشأ هكذا، فهناك مشاكل فى التنشئة، والمشكلة كيف نعلم هذا الشخص، وننشئه لأن هذا أسلوب حياة فى جميع الأشياء.

أما عن التيارات الدينية ودورها فى تغيير الثقافة، يمكن أن تغير، ولكن نحن لدينا دين والناس تتعامل معه على أنه مفردات أو عبادات فى المساجد الدين مثلاً صلاة، وزكاة، لكن ليس هناك محاولة تجذب ما بين الدين وكيف يتعامل الناس فى الحياة ومع الأشياء فالدين ظل فى طريقة أنه عبادات، أما عن الإعلام فهو يزيف الوعى لساعات حول قضايا كثيرة جدًا لأنه أحيانًا يبالغ فى إعطاء صورة جميلة والإعلام يستطيع أن يساعد بفتح ملفات جيدة توجه أفكار الناس إنما تحث فيه هو تنشئته حياة مجتمع فعندما تلتفت على الأثرياء فى مجتمعات فى الخارج كيف يعيشون ويأكلون كل هذا فمثلاً مسألة تقسيم الناس بمظهرهم الخارجى هذا خطأ أن يقيم الإنسان على سلوكه فى المجتمع.

والدين يؤثر فى الإنسان فى التفكير أنه متدين ويؤدى العبادات، وقد نجد متدينًا لكنه لا يخرج من التعاملات اليومية والدين وقد نجد آخر يخرج، لكن فى الغالب ليس هناك استفادة وفى الحقيقة فالدين الإسلامى مدرسة، ومنهج رائع فى التعاملات اليومية كيف أعامل جارى، وكيف أتعامل مع الآخرين هذا ليس موجودًا، وعندنا كثير من المتدينين وهذه هى الأزمة، هناك خلخلة كيف أتعامل مع المجتمع، مع جارى والبيع والشراء والطريق والشارع هذا ليس موجودًا مع إن الدين يقول كل ذلك، فهو جزء من جوهر الدين أو فلسفة فالدين معاملة وهذه ليست ثقافة دينية، ولكنه خلل فى فهم الدين فى أنه عبادة فقط إنما المنهج الإسلامى دين ودنيا، «فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، لذلك يجب أن يعرف حقوق البشر والمجتمع والعبادات والتعاملات هذه كلها أشياء نص الدين عليها لكن ليست موجودة والقضية نحن نستدعى الدين عندما نريد أن نستدعيه.

يمكن أن يكون عندى وهم بأنى متدين؛ فأذهب إلى المسجد، وأصلى، لكن هناك أشياء لا أفعلها كأن أصل الرحم وغيرها، والأمثال الشعبية هى نوع من أنواع التبرير مثل:

(اللى يعوزه البيت.. يحرم على الجامع).

فى الحقيقة الجامع له حق، والبيت له حق، وليس هناك تداخل بين حق البيت والمسجد لكن أنا آتى بشىء لكى أعطى لنفسى تبريرًا لأفعل شيئًا معينًا، فالمثل الشعبى تبرير للمصالح الخاصة حتى ولو استخدم فيه الدين.

* * *

التمسك بالثقافة الإسلامية

محمد إبراهيم الشافعى

أولاً: - الثقافة الإسلامية - المعلومات والمبادئ والأحوال الإسلامية - ينبغى أن تكون معلومة لكل مسلم وأقصد بالثقافة الإسلامية أن المسلم يكون عنده علم بأن الله واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله وأنه ليس كمثله شىء ولو على سبيل الإجماع ويكون مصدقًا بذلك ويؤمن بأن محمد (ص) رسوله أرسله الله بالهدى بالقرآن والقرآن معجز ولا يستطيع أحد من بشر أن يأتى بمثله وهذه أسس الإيمان والإسلام فالتوحيد فيه جزآن بالشهادتين ومن هذه الشهادة تنطلق الثقافة الإسلامية لمعرفة ما يجب عليه نحو إيمانه بالرسول (ﷺ) إذا بطبعهم وطاعته فى أن يؤدى العبادات مثل الصلاة والصوم والزكاة والرسول (ص) نشر لنا هذا. فهذه الثقافة لابد أن يعلمها كل مسلم سواء كان غنيًا أو فقيرًا هنا ينطلق الإسلام هذه الثقافة تؤكد علاقة الإنسان بالله بالإيمان فإذا طبق الإنسان هذه الشعائر هذا هو الإسلام .. هنا ارتباط المسلم بالله والرسول (ﷺ) وينعكس ذلك على تصرفاته وسلوكياته أى يتأكد كل هذا بعلاقته المستمرة بالله سبحانه وتعالى وبخلقه وصلته بالناس حسن المعاملة وأخلاق حسنة. والشعب المصرى على مر العصور شعب له صفاته الخاصة وكلمة مصر يعنى الشعب أو الناس الذين يعيشون على أرض مصر بحدودها

الجغرافية ولا تنظر إلى ماضى هؤلاء الناس من أين انحدروا، فكثيرًا ما جاء أناس من أصحاب الرسول (ص) إلى مصر وتزاوجوا وتكاثروا وهناك من كانوا أقباطًا وأسلموا وآخرون كانوا كفار وأسلموا وأصبحت الصبغة الأصلية لهم هى الإسلام.

أما بعض الدعوات أن مصر فرعونية، وأن نرجع إلى أجدادنا الفراعنة هذا الكلام لا يصح مع المصريين ، وأهل مصر من جذورها الأصلية، وهذا معناه أنها تعمق الانتماء الوطنى لمصر كل هذا لا ينبغى، ولا يصح فهناك ثقافة الإسلام، فمنذ وجه الإنسان الإسلامى وجهه إلى الله أن الدين عند الله الإسلام، وإذا سمعنا لهؤلاء الذين ينادون بالرجوع إلى الفرعونية هذا الكلام يؤدى إلى سلخ المسلم المصرى من انتمائه الأصلى لأن الانتماء إلى الجنسية والدين والوطن لا يمكن أن نتبع بأية ثقافة إلا بالثقافة الإسلامية وهى توصل فى الإنسان العطاء ومبادئ الانتماء والانتساب وإذا مررنا على هذا وثقفنا المسلمين على هذا فنحن آمنون.

فهناك أغنياء فى الثقافة وهم من درسوا أكثر واختلطوا أكثر وتلقوا علمًا أكثر كل هذه ثقافة أكثر، وهم محظوظون عمن لم تتح لهم هذه النشاطات، وهو غنى فى ثقافته فهو ملم بأصول دينة والثقافة وهذا هو المثقف، أما الفقير فى الثقافة لأن معلوماته قليلة وهذه نكسة كبيرة منذ قلت بضاعته عن الثقافة الإسلامية وغير الإسلامية، لماذا؟ لأن الناس تتخبط فى البدع والخرافات وأشياء بعيدة عن الدين وهكذا، إنما الجهل يكون السبب فى طمس كل معالم الشخصية والانتماء والعلم والتنوير بالعلم يكون سببًا كبيرًا فى قوة ارتباط الإنسان بوطنه وجنسه وأمته ودينه.. لكل عصر ثقافته الخارجية ووسائل يستمد منها ثقافته، والتى نسميها سبل التوعية ، والأشد أن هذه الوسائل تأخذ ميول الناس تشدهم، والآن عندنا اعتبرنا الناس معذورين من حيث إنهم مشدودون للوسائل الطبيعية الحديثة لماذا الإنسان لا يوجه أكبر اهتمامه إلى جهة إلا عندما يكون الوجه الآخر، أو الجهة الأخرى ضعيفة ومن سبل الثقافة والتوعية

التى توصل الثقافة مثلاً التليفزيون، والفضائيات تفتح القناة تجد فتيات عاريات كاسيات ، يظهرون كل مفاتنهم ، وتجد قناة تنقل الأخبار أو أشياء مفيدة والأحاديث التى نسمعها تتكلم عن الوطنية، والإسلام كلامًا مزينًا بحيث لا يشد الناس من الناحية الأسلوبية، لكن إذا تكلمنا كلام عقل فالشاب ينتبه عندما يجد من يخاطب عقله، ويأتى له بأدلة وأجوبة، هكذا ولكن القنوات الواعدة ذات الثقافة الأصلية قليلة وغير منظمة ليس هذا وعيًا منظمًا.

والقنوات الأخرى منظمة وتشد الغرائز وأما قديمًا كانت الأجواء، وقنوات التوعية أكثرها تصب فى مصب واحد أصيل، وهو الثقافة الدينية فكان تحويل الناس بسيطًا عن الآن، التاريخ يقول بأن الرجل من المسلمين كان يقابل الرجل وذلك قبل عمر بن عبدالعزيز فيقول له كم عندك من المال والجوارى؟ وأين قضيت هذه الليلة؟ فلما جاء عمر بن عبدالعزيز، وجمع الناس، وأمر العلماء بجمع التراث الإسلامى ، وبدأ يدرسها فى المساجد وكانت مدة حكمه سنتين و ٣ شهور ومع ذلك تحولت ثقافة الناس من ثقافة فقيرة دنيوية إلى ثقافة حية. وتحول الوضع عندما نقرأ فى تاريخ عمر أن فى أيامه لم يجدوا مسكينًا أو فقيرًا يعطوه زكاة مع أن الفقر موجود فى كل زمان ومكان، ولكن الثقافة الإسلامية جعلت الغنى يعطى والفقير يتعفف، أخذ سيدنا عمر يوظف هذا المال فى مشروعات تفيد الناس إلى أن زوج من يريد وسدد ديون الناس وبدأت آفاق جديدة تتفتح أمام الناس فكانت قنوات النوعية فى الخير أكثر.

لذلك نجد الشباب معذورين، الخطب والوعظ ودورها ثقافة الفقيه أو الواعظ مسئولية ينبغى أن يتحملها وزير الأوقاف، وفى نظرى ينبغى أن تحدد أن تكون مهمته الدعوة الإسلاميةفقط أما هيئة الأوقاف وأموال الأوقاف ينبغى أن تكون هيئات مستقلة تابعة فقط أما يكون كل هذا فالوزير من الدعاة إلى الله هنا مسئولية أن يتحمل توجيه الأئمة والوعاظ وإرشادهم إلى كيف تكون الخطبة وما ينبغى أن يقال وما ينبغى ألا يقال

وما الكتب التثقفية التى ينبغى أن يقرأها تحضيرا وهذا يكون بالمتابعة والتفتيش وهكذا بعد شهر، شهرين وعام سوف يحسن الخطباء ولن أجد تناقض وإن حصل سوف يأتى من قراءة أحدهم وتوسعه فى هذه القراءة أو بحث موضوع الخطبة.. فى نصف شعبان صليت فى مسجد ووجدت أحد الخطباء صعد إلى المنبر وكان كل همه أن الأحاديث الواردة فى فضل صوم شعبان ضعيفة وموضوعة وأخذ يؤكد هذا، وطبعًا هذا نقد وقلب، وبعد أن انتهى قلت له ألم تقرأ كتاب الترهيب والترغيب، ألم تقرأ أحاديث الرسول (ﷺ) وأقوال السيدة عائشة، فممكن أن نقول بعضهم قال كذا، والبعض الآخر قال كذا، وكيف نقول هذا والدولة تحتفل بنصف شعبان وصوم التطوع مستحب فى شعبان ، أو غير شعبان، إذًا إما أن أوضح القضية، وإما أن أتمسك برأى جمهور الفقهاء وما قاله أحدث أن كثيرًا من المصلين دخل يسأله أنا صائم هل أفطر، فيمكن أن يوضح ضعف الحديث، ولكن لا مانع أن أعمل ومن الأفضل أن يكون الوزير صاحب مبدأ أو رسالة، وينعكس هذا على الفقهاء لأنه يوضح لهم الخط الذى ينبغى أن يردوا عليه لأنه ينعكس على المسلمين،والاختلاف يأتى من ضآلة الثقافة إذا أطلع أحد ولم يطلع الاخر فإذا قرأ الجميع واهتموا بالثقافة والقراءة والمتابعة نجد الكل مثقفين.

ولذلك العلماء المتنورون لا يوجد عندهم تناقض فى الفكر لأنه يجد لكل مسإلة حل بقراءته الواسعة، حتى علماء المعتزلة وأهل السنة لا تدبر فالأمر لا نجد اختلافًا وكل هذه المعارك على مدى التاريخ الإسلامى، مثلاً مسألة خلق القرآن الحروف مخلوقة، لكن كلام الله قديم، فالتوفيق بين الآراء، والاتجاهات ممكن بالمعرفة الواسعة، والمتعمقة.

علاقة «الدين الشعبى «بالأديان السابقة

يمكن أن نقول إن الإسلام دين تسامح والمسلمين على علاقة جيدة مع كل أهل الأديان الأخرى، والمعاملة معهم معاملة حسنة على مدار التاريخ،

انظروا كيف كان صلاح الدين يعامل اليهود والنصارى، انظروا إلى معاملة المسلمين معهم فى القرى، تسامح ومعاملة حسنة، هو على دينه وأنا على دينى وقول الأقوال التى تشاع بين الحسن والحسين مفتعلة والمقصود ضرب الوحدة الوطنية وهذا لافقيه مسيحى ولا فقيه مسلم.

المكون الدينى وتشكيل وعى الجماهير:

لابد أن نعلم ويعلم كل إنسان عاقل أن الإسلام يأمرنا بالاستمرارية، والإسلام شرع لنا الصلاة والنطق بالشهادتين والصوم والحج والزكاة وجعل العبادة المستمرة فى كل وقت جعلها مستمرة مثل الذكر (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً).

الصلاة خمس مرات فهى تجمع كل أنواع العبادات، فيها ذكر وذكاة وصوم لأننا منهون عن اللغو وغيره لأننا نقصد وجه الله بالقبلة فكل هذا فى الصلاة ١٧ ركعة فرض هذه الاستمرارية تنعكس على الأخلاق وصلتنا بالله وما يضعف ذلك عندما لا يكون هناك استمرارية والمقصود بالاستمرارية، لذلك جعل الله سبحانه وتعالى صلاة الجماعة لكى نلتقى وجعل الجمعة لكى يكون هناك إمام يذكرنا، إذاً عندما يأتى أحد ويقول لى هناك أناس ليسوا مسلمين ولكن أخلاقهم جيدة، الحلم، والرأفة، واللين، والعطف فى الكلام، ما رأيك بذلك أقول هو لا يوجد عنده استمرارية يمكن أن يقلب فى أية لحظة، أما الإسلام يؤثر فى نفس الإنسان لأن الوعى مستمر والتذكير مستمر وهنا عندما يضعف الوعى يكون بضعف التأثير، يتوقف العمل وتختلط المسائل.

صلة المكون الدينى بالدين الرسمى:

الدين الرسمى الموضوع فيه الميثاق الرسمى هو الإسلام والإسلام بكل جوانبه يحسن علاقتنا وبالأهل والجيران والزوجة والأولاد كل هذه أبعاد الإسلام.

وإذا أتينا للنصوص الإسلامية من قرآن وسنة نجدها تحث على هذا وتدعو إليه وفهم العلماء والمفكرون النصوص فهمًا صحيحًا ولكن عندما يأتى إنسان ويفهم النصوص فهمًا خاطئًا هذه هى المشكلة ولكن من أين أتى هذا الفهم لابد أن نبحث إما أنه نظر إلى النص بدون النظر إلى النص الآخر أو أنه قطع النص من سياقه ولم يكمل النص بكامله وينبغى أن يكون الأكثرية من العلماء واعين ويصبون كل هذا يا فلان ارجع إلى كذا وكذا، وهناك ابتعاد بعض الشيء، ولكن لا يؤدى إلى العداوة ومن أمثلة الابتعاد أنصار السنة والصوفية مثلاً ذكرها الله قائمين وقاعدين يختلفون على هذا والقضية لا تحتاج إلى مشاجرة والآية الكريمة ألا يمكننا أن نفهم من هذا أن الذى يتماثل بالذكر، ليس هناك أى عيب، وهذا كله نعتبره انشغالاً بالأشياء الصغيرة، وعندما يقال نصلى على النبى بعد الأذان أم أثنائه مع أن الرسول (ص) قال قولوا كما يقول المؤذن ثم صلوا على من يريد أن يصلى جهرًا ومن يريد سرًا هذه مسألة محسوبة، فمن الممكن أن تبين وجوه الاتفاق والبعد عن الاختلاف وهذا يأتى من العلماء المثقفين الواعين وعيًا كاملاً.

المؤثرات التاريخية فى المكون الدينى.

هذه هى القضية، المؤثرات الشيطانية والدنيوية التى تبعد الإنسان عن ربه، مثل القنوات التليفزيونية فهى تعطى ما يغذى الغرائز، وهذا يغطى على العقل وينساق وراء الغرائز، وهذه عادة أكثر الشباب فى مصر، وغيرها لم يحصل عنده نوع من المقاومة لهذه التيارات التى تأتى لنا بنوع من الثقافة الرذيلة، فالمؤثرات موجودة حتى فى البيوت ولكن إذا كانت قنوات التوعية أكثر وأشمل سيكون ذلك مقيدًا وحيدًا فنحن بذلك نوسع المساحة الدينية والتفكير مثلاً عندما يكون هناك ندوة أجد الشباب لا ينجذبون إليها ولكن عندما أحدثهم بحرية كما يحدث فى رسائل الماجستير ليس هناك ضغط أو أى شىء أجد الشباب سوف يتجه للقراءة

ويقنع فالطالبات أثناء المحاضرة يهتممن عندما تجذبهن معلومة يسألن عن اسم الكتاب وإذا أردنا أن يحدث هنا تقوى التأثير السليم لكى يستطيع الشعب أن يكون أكثر وعيًا.

نحن نريد اهتمامًا وانتماء نعطى ثقافة فارتباطه بوطنه وبأوليات أموره ولكن إذا لم يكن هناك ارتباط بالله تكون الارتباطات هشة.

فإذا خلطنا الماء الكثير على الماء القليل سوف يطغى عليه هذا مثل دور الأسرة والمجتمع فالأسرة تبنى والمجتمع يهدم فكم ساعة يقضيها الولد مع أهله وكم يقضى خارجًا فأكبر وقته فى الشارع وهذا له تأثير.

لذلك إذا وجدنا الثقافة التى تعطى أكثرها ثقافة إسلامية فكرية هى غذاء العقول سوف نجد رب الأسرة ينمى ثقافة أبنائه وهذا يدل على أن نختلف على أشياء أخرى وتتوسع الثقافة داخل الأسرة مثلما فعل عمر بن عبدالعزيز غيرً صيغة الناس والمجتمع من مجتمع مذهل يبحث عن الدنيا إلى مجتمع مترابط متماسك سعيد ثقافة خلفت أثرًا والأثر خلف رجالاً يمشون على الأرض.

* * *

تأثير المكون الدينى فى ثقافة البسطاء

عوض الغبارى

بداية الفقير بالمعنى الصوفى هو الفقير إلى الله، إنه لون من ألوان العبودية لله سبحانه وتعالى والإحساس بأن الإنسان مهما أوتى من غنى هو بجانب فضل الله فقير، فما قاله فى الآية الكريمة. ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ «سورة القصص آية: ٢٤» إذًا المعنى بالعبودية هو الإنسان المتصوف الذى كرمه الله وفضله وعلمه. هذا هو ما يتعلق بمعنى الفقر على المستوى الدينى والمستوى الثقافى فى مصر، فمصر كانت تعانى فى التاريخ القديم والحديث من الفقر، وهناك ثالوث مشهور فى الريف المصرى خاصة ما يتعلق بالفقر والجهل والمرض، فالفلاح المصرى على مر العصور قديمًا وحديثًا يزرع، ولا يجنى ثمرة زرعه، ويحصدها المالك الأجنبى، وهذا الفلاح الذى تعب، ويشقى لا يكاد يجد قوت يومه، ولذلك فالثقافة الشعبية، والمصرية لها مصطلحات خاصة بهذا المعنى أى أنه عندما لا يجد غالبية الشعب المصرى قوت يومهم.

والأدب المصرى تصوير لبؤس وشقاء. ففى العصر العثمانى هناك كتاب (القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف) لعالم من علماء الأزهر هو الشيخ احمد الشربينى، هذا الكتاب كله عبارة عن تصوير لبؤس حياة

الفلاح المصرى لا يجد العيش والأشعار الموجودة فى هذا الكتاب توضح كيف يفكر الفلاح المصرى، وكل مصطلح حياته يدور حول الرزق وأكل العيش وهذا مفهوم أصيل من المفاهيم التى تتصف بها ثقافة الفقراء فالإحساس بالفقر وعدم الأمان، هو المسيطر على هذا الإنسان فعندنا تراث طويل من الشكوى من الظلم من أيام الفلاح المصرى، الشكوى من ضعف الرزق وكثرة الضرائب وغلاء المعيشة وارتفاع الأسعار ولم يوجد فى المجتمع المصرى ظواهر للمشاكل الاجتماعية والدينية كما يحدث الان فأخر ما نراه إنسان ينتحر ثم يجد ما يشترى به ملابس المدرسة لبنته هذه الظواهر جديدة على المجتمع تدل على معاناة هذا المجتمع قديمًا وحديثًا من تسلط أقلية تملك كل شىء وأغلبية لا تملك أى شىء.

درجة تأثير المؤثرات التاريخية

هذا السؤال يطرح على المجتمعات الراغبة المتقدمة ثقافيًا المؤثرات التاريخية ماذا يعرف الإنسان العادى الأمى ونحن نعانى من أمية المثقفين وليس من أمية عامة الناس. ففى ظل مشكلة مثل مشكلة الأمية والتخلف العلمى والثقافى لا نستطيع أن نحدد صدى للإجابة عن مثل هذا السؤال العام فنحن لا نعرف عن تاريخ بلادنا الشيء الكثير فنحن نندهش لأن السائحين من الأجانب الذين يزورون القاهرة ويعرفون الاثار ويدرسون فى المدارس اليابانية التاريخ القديم ويعرفونه ويحبونه بل ويعشقونه وكل أمنياتهم هى زيارة هذه الآثار التاريخية، هذا على سبيل المثال فإنه لا يمكن أبدًا إلا أن أحقق الحد الأدنى من التعليم ثم أطالب بأثر الثقافة التاريخية فى نفوس الناس، الذى يمكن أن يؤثر فى قلب وعقل ووجدان الناس فى مصر هنا هو تاريخ والضعفاء والذين لم يتلقوا شىء ما من الثقافة فنحن نستطيع أن نزور الحسين لتترحم عليه وندعوله بالرحمة أما أن نزوره لتلمس البركة فهنا شىء من الشرك ، ولكن ماذا عما فى بعض المساجد من أن الدعاء عند قبر أو مقام آل البيت مستجابة.

هذا كله من خرافات العوام ومعتقداتهم الباطلة وأذكر أننى ذهبت إلى مسجد السيدة نفيسة بدعوة فى عقد قران فقلت أمر بقبرها أسلم عليها (السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية فى الدين والدنيا والآخرة) وهذه هى السنة فى زيارة القبور كانت النتيجة أن شابًا واقفًا بجوارى سمع هذا الكلام فرد وقال لى كيف يا دكتور إنت فاهم إنك بتزور حد عادى - إنها حية موجودة عايشة - صاحية جوه.. فقلت له كيف تقول هذا لقد ماتت أكلها التراب. ولا يمكن أن يكون لها وجود الآن وأنت تقول ذلك ما هذا الدين عقل يا بنى، ولكن كل هذا دون جدوى الذين ثبتوا عنده أن السيدة نفيسة صاحية ثبت هذا به ويبدأ يأتى بنصوص الشهداء من القرآن ويقول (أحياء عند ربهم يرزقون)

والمولد النبوى الشريف له احتفالات وذكرى تاريخية وأهمية خاصة أن فى مصر الإمام البوصيرى صاحب البردة المشهورة فى المديح النبوى على الإطلاق، فحياة الرسول (ﷺ) وحياته وسيرته (ص) هو الجانب المتعلق بالتاريخ العربى الإسلامى الذى يمكن أن يكون له أثر فى وجدان وحياة الناس لأنهم يعايشونه عام بعد عام وعصرًا بعد عصر.

أما المراحل التاريخية الأخرى مثلاً، كالعصر الفاطمى لم ينجحوا أبداً - فقد حكموا مصر مدة تقترب من ٢٠٠ سنة - فى تحويل مذهب المصريين من المذهب السنى إلى المذهب الشيعى، والشيعة لها منطق بعيد إلى حد ما عن روح الإسلام، فلهم مفهوم خاص بالعبادات وخاصة الأثنى عشرية لهم أفكار بعيدة كل البعد عن روح الإسلام، وكانت الدولة الفاطمية خلافة قوية إمبراطورية ومع ذلك لم تفلح، لأن الإنسان المصرى إنسان بسيط ومعتدل فى تدينه لأن الحضارة المصرية حضارة سماحة وبناء واعتدال وسلام، والمجتمع الزراعى لا يعرف إلا البناء والزرع والنماء وعلى هذا الأساس لم تؤثر العقيدة الفاطمية فى الإنسان المصرى طوال

هذه المدة وما أخذناه يتعلق بالشخصية المصرية التى تحب الاحتفالات بالموسم والأعياد الدينية.

فنحن أخذنا المواسم من الفاطميين فعاشوراء والاحتفال بالمولد النبوى وشهر رمضان، الزينة بالمساجد والمصابيح الأطعمة الجامع الأزهر

وهو المعنى وهو جامع وجامعة، وهو أقدم جامعة فى العالم، هو رمز لعطاء الحضارة العربية الإسلامية فى مصر، وهذا العطاء هو الذى يستمر ومعنى الجامع الأزهر بالعلم والدين هو الذى يستمر فى وجدان الناس سواء على مستوى الخاصة والعامة، وبذلك فى مصر فى زمن الدولة الفاطمية والأيوبية والمملوكية كانت المكتبة والمكتبات عموماً منتشرة وكانت على أرفع مستوى موجودة على مستوى العالم فى ذلك الزمان أى مثل دار الحكمة ودار العلم التى أسسها الحاكم بأمر الله الفاطمى فى عهد الدولة الفاطمية فكانت أكبر مكتبة فى العالم وكذلك الأمر فى المكتبات.

فى العصر الأيوبى والمملوكى تذكر أن المغول عندما استولوا على بغداد حرقوا الكتب واستخدموها جسوراً ومعابر للدواب وقضوا على الثقافة العربية وعلى الكتب إذاً هذه العصور التاريخية تؤثر فى الإنسان المصرى بما يتفق ويتلاءم مع شخصيه، وجمال حمدان فى الموسوعة العظيمة شخصيته مصر دراسة فى عبقرية المكان، فسر مصر على أمنها الحربى فقط، ولكن بالمعنى الثقافى، وبهذا مصر مهما كان الغزاة، ومهما كان المحتلون على مر العصور، فالغزاة هم الذين يتأثرون بالمصريين وليس العكس وحسب نظرية ابن خلدون المغلوب يقلد الغالب لكن هنا بونابرت يأتى إلى مصر يعلن إسلامه ويدعى إنه يحمى الإسلام، والغزاة يتأثرون بالثقافة المصرية على مر العصور من هنا والثقافة المصرية تنتمى إلى الشخصية المصرية ولكنها تتراجع بعوامل التخلف الثقافى العلمى والحضارى والظروف التى أحاطت بالعالم العربى والإسلامى من الأثر المضاد للغرب وحربه على الإسلام ظاهرة وباطنة وتقاعس المسلمين فى العصر الحديث عن أداء الواجب وببعدهم عن المعنى الحقيقى للإسلام

فهناك فرق بين الإسلام مثالاً دين المسلمين واقعاً ليس مسئولاً عن الجهل والتقاعس والتخلف والتراجع الحادث وانحطاط قيمة العلم وتفشى وباء الجهل والعادات الجاهلية وتقاليد الجهل والغذاء الثقافى المستمر فى الكتب والمجلات والتليفزيون والسينما وكل مجالات الحياة ليس الإسلام هذا مسئولاً عن التردى وإنما هى عوامل كثيرة جداً هى التى أدت إلى هذا التخلف والجهل وأدت إلى وجود قطاعات عريضة جداً عشوائية الثقافة مثل عشوائية البناء فهناك أسر كاملة عشوائية هناك مجتمعات كاملة.

هذا الفقر الثقافى وأيضاً هذا التلاعب بعقول هؤلاء الشباب واستخدامهم فى التطرف والإرهاب، بعض هؤلاء هم يتلاعبون بالدين ويتاجرون به لمصلحتهم الخاصة ويتاجرون به سياسياً، هذا القطاع العريض من الناس يجزونهم لمصلحتهم الخاصة يستغلون الجهل والتخلف الثقافى والدينى ويدفعونهم إلى طرق منافية للإسلام الصحيح والدين الصحيح ومن هنا فالإسلام ليس مسئولاً عن هذا التخلف.

ولو تكلمنا عن علاج الشعر الإسلامى الآن فالحروب الصليبية وبوش قال إننا الآن حروب صليبية عندنا ديوان كامل شامل فى التراث العربى المصرى اسمه القدسيات بمعنى الناتج الأدبى شعراً ونثرًا الذى إرتبط بالعصور والحروب الصليبية، أى أنه كان هناك ارتباط وثيق بين الأدب والأحداث التاريخية ونجد ظاهرة غريبة جدًا وموجودة وعميقة فى تراثنا إن كتب التاريخ نجد فيها المراجع الأدبية والشعر نجد فيها المراجع التاريخية. إذًا نحن الآن فى الأدب الحديث والمعاصر عند حروب صليبية التاريخ يعيد نفسه وعندما نبحث عن صدى وأثر الحرب الآن فى الأدب الحديث لانجد أن هذا هو الصدى..

نقول قصائد قيلت منذ أربعين عاما أين النتاج الأدبى أين الشعر الذى يصبح على مستوى الحدث الخطير الذى نعيش فيه ونحن أيضًا نحتفل بنصر أكتوبر ليس هناك عمل فنى أدبى كبير على نفس مستوى هذا

النصر العظيم لماذا تقاعس الأدب ولماذا تخلف الشعر والشعراء عن معايشة الأحداث. سواء كانت حزبية كما فى فلسطين والعراق أو مطرحة مثل مصر أكتوبر أين هذا الأدب الحديث من هذه الأحداث.

كان المتوقع أن يكون أكثر قوة وتطورًا وتقدمًا فى معايشة الأحداث من القديم.

أما وقد تخلى هذا الأدب الحديث عن واجبه فى معايشة الأحداث فهذا يجعلنا نقول إن الأدب القديم فى هذه الحالة أفضل من الحديث فقد تقاعس الأدباء والشعراء والنقاد لأسباب أو لأخرى عن مد جسور التواصل بين الأدب والحياة ما هى هذه الأسباب.

المكون الدينى فى سلوك الفقراء

تأثير المكون الدينى فى سلوك وحياة وتفكير ووعى الفقراء بالدين فى عمق وحياة الإنسان المصرى؛ لأن الإنسان المصرى عرف التوحيد قبل مجئ ووجود الأديان.

والرسل، والحضارة الزراعية فى مصر حضارة بناء وعطاء وثمرة إنجاز وإسهام للحضارة الإنسانية ولثقافة البشرية ولما جاء الإسلام وجد صدى وقبولاً من المصريين أو لسماحة الإسلام فانتشر الإسلام بسرعة وسماحة فى مصر لأن المصرى متدين بطبعة أنه يزرع البذرة فى الأرض ثم يترك الباقى على الله أن ينزل المطر وأن ينمو الزرع وتكبر الشجرة يومًا بعد يوم فهى حضارة قائمة على الإيمان إذًا الدين تعمق فى كيانه ووجدان الإنسان ووجدان الإنسان المصرى منذ قديم الأزل إذًا الأثر الدينى أثرًا مستمرًا والإسلام وجد القبول من المصريين لأن الروح المصرية روح تميل على الدين والعاطفة الدينية أصلاً.

علاقة «الدين الشعبى» بالنصوص الشرعية:

علاقة الدين الشعبى بالنصوص الشرعية علاقة وثيقة؛ لأن الدين

فطرة عند الناس فطرة الله التى فطر الناس عليها «إلا أن هذه العلاقة تتأثر صعودًا وهبوطًا وقد تختلف فى بعض الأحيان فكلما كانت الثقافة مزدهرة كانت العلاقة طيبة وقوية وكلما كان الجهل سائدًا سادت الخرافات والتقاليد والعادات التى قد تتداخل مع التعاليم الشرعية.

وعلاقة الدين الشعبى بالأديان السابقة فى مصر قائمة أيضًا ولكنها ضعيفة فهناك عادات خاصة بالأعياد الفرعونية والقبطية وهناك بعض الطقوس الخاصة بالموتى فرعونية وقبطية إلا أن هذه العلاقات قليلة.

يشكل المكون الدينى والثقافة الدينية عنصرًا مهمًا، بأن الناس بفطرتهم يحترمون كل ما هو دينى ويقفون عند حدود، ولا يتجاوزونها إلا نادرًا، وهذا التأثير يلعب دورًا كبيرًا أيضًا فى شكل وعى الجماهير وقيادتها.

ومن هذا تبين أن المكون الدينى يعد العنصر الفعال والمؤثر الأكبر فى ثقافة الفقراء.

والدين الشعبى يقترب كثيرًا من الدين الرسمى أو دين النصوص الشرعية بل هو فى معظمه مستمد منها وقائم عليها وبالتالى فإن المؤثرات الدينية والاجتماعية لها تأثير كبير فى الثقافة الشعبية، ومما لا شك فيه أن الإنسان أينما وجد البيئة يتفاعل معها ويتأثر بها، وكذا فمن المتوقع أن يكون للبيئة وثقافتها دور كبير فى الدين الشعبى والثقافة وينعكس هذا الأثر فى الأمثال الشعبية والعلاقات الاجتماعية كما ينعكس فى المبانى والمساجد والعمارة وعمومًا، كما يلعب دورًا كبيرًا فى تشكيل القيم ومعايير السلوك والآداب الاجتماعية وينعكس كل ذلك على الفنون والعادات والتقاليد والملابس.

* * *

• (المكون الاقتصادى والمعمارى)

- المكون الاقتصادى لثقافة الفقراء

عماد أحمد هلال

- المكون المعمارى

إسماعيل عوّاد

(٥) المكوّن الاقتصادى

عماد أحمد هلال

لا تعبر كلمة الفقر عن مستوى واحد من مستويات المعيشة، فهى كلمة مطاطية يختلف تعريفها من عصر إلى عصر ومن قطر إلى قطر، فهناك فى بعض البلاد من يحقق دخلاً يجعله فى مصاف الأغنياء، ولكن غيره فى بلاد أخرى يُحقق نفس الدخل ومع ذلك يُعتبر هناك فقيرًا، نظرًا لارتفاع مستوى الدخول فى تلك البلاد.

وكلمة الفقر من الناحية اللغوية تعنى العوز والاحتياج: افتقر إلى الشيء أى احتاج إليه، والفقير هو المحتاج، والإفقار هو أن يجعله فقيرًا، والافتقار هو الاحتياج، ولكن لهذا الاحتياج درجات: فهناك «الفقر المدقع» الذى يعنى عدم امتلاك الفقير لأى شيء من ضروريات الحياة، وهناك الفقر الجزئى بمعنى امتلاك الفرد لبعض ضروريات الحياة وافتقاره إلى البعض الآخر، والمسألة هنا نسبية، وفى محاولة لوضع حد بين الفقير وغير الفقير رأى علماء الاجتماع أن كل من يقل دخله اليومى عن أربعة دولارات يُعتبر فقيرًا ، وقد يكون هذا المقياس مناسبًا لبعض البلاد ولكنه لا يناسب بلادًا أخرى، فإذا أخذنا هذا المقياس فى دراستنا هذه فإن أغلبية سكان مصر سوف يعتبرون من الفقراء، وأكبر مثال على هذا ما

وصل إليه حال الطبقة الوسطى فى مصر، فلم يكن من المنتظر أن تصل إلى خط الفقر، حيث كان دخل أفرادها كافيًا لسد احتياجاتهم وتعليم أبنائهم ونيل قدر كافٍ من الرفاهية، أما الآن فنجد وكيل الوزارة فى مصر يستحق الزكاة من الناحية الشرعية؛ لأن مُرتبه أصبح لا يسد احتياجاته الأساسية، والحقيقة أن هذا هو ما ذهب إليه بعض علماء الاجتماع الأمريكيين، حيث اعتبروا أن الفقر فى العالم الثالث هو سياق عام وليس قاصرًا على فئة بعينها.

وهناك أيضًا مصطلح آخر مهم تجدر الإشارة إليه وهو «الإفقار» وهو ناتج عن أحوال السوق العالمية، فعندما تكون هناك دولة تعتمد بشكل أساسى على محصول واحد كالقطن أو البن أو الكاكاو، ثم تنهار أسعار ذلك المحصول؛ فيؤدى ذلك إلى حالة من الإفقار تحتوى تحت مظلتها معظم شعب تلك الدولة، وتتوقف مدة الإفقار على مدة الركود. وقد تستمر لسنوات، وخلالها تظهر ثقافات جديدة، وتتغير كثير من العادات ، ويتنازل الإنسان عن كثير مما كان يعتبره كماليات، وربما يتنازل عن بعض الأساسيات.

ويؤثر فى ذلك الوضع بدرجة كبيرة تلك السياسات الجديدة المرتبطة بالعولمة، وتنظيم الاقتصاد العالمى، ومحاصرة الدول النامية واقتصادياتها، كما تؤثر فى ذلك الوضع أيضًا سياسات الحكومة الطبقية التى تخدم مصالح طبقة معينة أو فئة محددة، أو مجموعة من الشركات العملاقة التى تستطيع توجيه سياسة دولة أو عدة دول لمصلحتها تاركة الناس فى فقر متزايد، وبالتالى يزداد الغنى غنى ويزداد الفقير فقرًا. وخير مثال على ذلك سياسة الولايات المتحدة الأمريكية فى ظل حكومة بوش، حيث تعمل لخدمة مجموعة من الشركات ، بينما تزايد عدد الفقراء فى أمريكا حتى قاربوا الأربعين مليونًا. وهكذا أصبحت حركات ونشاطات جماعات مناهضة العولمة تمثل جانبًا مهمًا من جوانب ثقافة الفقر، وهو جانب جديد من جوانب تلك الثقافة ، لم يتعوده كثير ممن درسوا ثقافة الفقر ولم يضعوه فى اعتبارهم ومرَّ أكثرهم عليه مرور الكرام.

ولا يُعبر عدد الفقراء فى دولة ما عن مستواها الاقتصادى، فمن يسمع عن وجود أربعين مليونًا من الفقراء فى أمريكا يتخيل للوهلة الأولى أنها بلد فقير، وهذا غير صحيح، كما أن هناك دولاً يصل متوسط دخل الفرد فيها إلى عشرين ألف دولار، ولكن عدد الفقراء فيها ربما يزيد على نصف عدد السكان، وبذلك فإن القياس من خلال متوسط الدخل يتجاهل كثيرًا من العناصر الأخرى، فهو لا يشير إلى الاستغلال الذى تتعرض له الأغلبية بواسطة الأقلية من أصحاب رءوس الأموال، ولا يعطى تقديرًا حقيقيًا لعدد الفقراء.

أما الفقر التقليدى أو الفقر التاريخى، فهناك أشكال مختلفة ومتنوعة منه، وقد ميز القرآن الكريم بين درجتين من الفقر يستحق أصحابها الزكاة هما: «الفقراء والمساكين» فالفقير هو من يملك قوت يومه، ولكنه يفتقر إلى أشياء أخرى كثيرة من الملبس والمسكن وغير ذلك، أما المسكين فهو من لا يمتلك شيئًا مطلقًا، ولما ادعى كثير من الناس الفقر، واتخذوه حجة للسؤال والتسول: وضع الرسول ﷺ قاعدة يحدد على أساسها من له حق السؤال، «إن المسألة لا تحل إلا لذى فقر مدقع، أو غرم مفجع، أو دم موجع»، فهؤلاء هم الذين يحق لهم السؤال، أما بقية الفقراء ممن لا يدخلون تحت هذه القاعدة فهؤلاء يحق لهم أخذ الزكاة، ولكن لا يحق لهم السؤال، بل عليهم أن يجتهدوا فى تحسين أحوالهم قدر استطاعتهم أو يلزموا بيوتهم ويتعففوا عن السؤال حتى ليحسبهم الجاهل «أغنياء من التعفف» لأن المسألة تأتى نكتة فى وجه صاحبها يوم القيامة».

ولكن هذه القواعد وتلك المبادئ لم تحترم وأصبح كثير من الناس لا يتحرجون عن السؤال، حتى لقد اتخذ البعض منهم الفقر حرفة يحترفونها، ومنهم «الغجر» الذين اعتادوا التسول، ومنهم «فقراء السيدة زينب» و«فقراء الحسين» وغيرهم.

ومن صور الفقر التاريخى «التصوف» فمصطلح الفقراء كان مرادفًا لمصطلح «المتصوفة» على مدى حقبة طويلة من الزمن، وإن كان هناك

اختلاف على سبب التسمية، هل هم الذين أطلقوه على أنفسهم بصفتهم «الفقراء إلى الله»، أم أن الناس هم الذين أطلقوه عليهم لأنهم كانوا يلبسون ثيابًا بالية ولا يهتمون بمظهرهم ، أم أن ذلك راجع إلى أن بعضهم اتخذ من التصوف حيلة لسؤال الناس أو الحصول على النذور وادعاء الكرامات.

وخلاصة القول إن الفقراء ليسوا نسيجًا واحدًا أو لونًا واحدًا أو ثقافة واحدة، كما إنهم ليسوا كتلة بشرية مصمتة، بل هم مجتمعات نشطة، وجماعات فاعلة لها تنظيمات ترعى مصالحهم وإن اختلف شكل تلك التنظيمات من عصر إلى آخر، فقديمًا كان هناك فى مصر فى العصر العثمانى «طائفة الشحاتين» ولهم تنظيم طائفى قوى وشيخ للطائفة له مكانته العالية ليس فى دوائر الفقراء بل أيضًا فى دوائر الحكام والأمراء، وحديثًا هناك تنظيمات عالمية لمناهضة العولمة، وفقراء الهند لهم القدرة على تنظيم أنفسهم إلى حد تغيير الحكومات كما فعلوا منذ شهور قليلة عندما أطاحوا بحزب بهاراتيا وأتوا بحزب المؤتمر إلى السلطة ولا يختلف الحال عن ذلك فى البرازيل أو جنوب إفريقيا، وبالرغم من أن الفقراء فى مصر ليس لهم تنظيم محدد أو نشاط سياسى واضح، إلا أن المؤكد أن فهم القدرة على أن يمثلوا مصدر خطر على النظام إذا فكر فى تجاهلهم، ولذلك فهم تحت سمع وبصر الحكومة، التى تعلن فى كل مناسبة عن حرصها على مصالح الفقراء ومحدودى الدخل. وتوجيهات رئيس الدولة للحكومة لا تخلو أبدا من التأكيد على تخفيف معاناة محدودى الدخل، والاستمرار فى دعم بعض السلع الأساسية التى تمثل ضرورة من ضروريات الحياة بالنسبة لهم.

الجوانب الاقتصادية فى ثقافة البسطاء.

الفقر له فكر معين، وحين أقول الفقر لا أعنى شدة الاحتياج فقط، ولا أعنى هبوط المستوى المادى لمجتمع إلى مستوى أقل من مثيله فى البلاد الأخرى، ولكن الفقر الحقيقى قد يكون لأناس ميسورى الحال، ولكن

طريقتهم فى التصرف فى ثرائهم فقيرة غاية ما يكون الفقر، وهذا هو ما يستحق أن نسميه «ثقافة الفقراء» فالفقر ليس وضعًا اقتصاديًا فقط. ولكنه وضع من أوضاع البشر، وضع عام يتصرف فيه الإنسان بفقر، ويفكر بفقر، فينتج أفكارًا تؤدى إلى الفقر. بمعنى آخر. الفقر مرض يصيب العقول، والخيال كما يصيب الاقتصاد وهناك فقراء يعيشون فى ظل أوضاع اقتصادية غاية فى الصعوبة ولكن ثراءهم الروحى يتيح لهم أن يستمتعوا بحياتهم ويمتعوا من حولهم.

والفقير من هذا النوع الأخير هو فقير إيجابى، يشعل شمعة بدلاً من أن يلعن الظلام، وله فلسفته الخاصة فى الحياة فهو لا يلعن الحكومة التى تهمله، ولا يشكو كثيرًا ولا يتبرم، وإنما يبحث عن الحلول بنفسه، ويبتكر من النظريات الاقتصادية ما يعجز عنه خبراء الاقتصاد، وتقوم الجوانب الاقتصادية الأساسية فى ثقافته على عدة مبادئ فحواها الزهد والتوفير والتقليل فى الكميات واختصار الحاجيات، ويمكن تلخيص هذه المبادئ فى النقاط التالية:

١ - الاكتفاء بالقليل:

ففى ظل العدد المتزايد للأفراد، والدخل المتناقض، يلجأ الفقراء إلى الاقتصاد فى كل شىء، والتقطير على أنفسهم وهو مبدأ قد يعرف عندهم بكلمة «البساريا» وهو الاكتفاء من الشىء بأقل قدر ممكن، والبساريا نوع صغير جدًا من السمك، فبينما يشترى الأغنياء السمك الكبير الملىء باللحم يكتفى الفقراء بشراء السمك الصغير و«مصمصة» عظامه وأشواكه، ويكفى نصف كيلو من اللحم لتغذية خمسة أو ستة أفراد، وفى هذه الحالة يتم توزيع اللحم على أفراد العائلة فى شكل «أنصبة» حتى لا يجور أحدهم على نصيب الآخر، وحتى إذا فاجأ العائلة ضيف أو أكثر فإن النصف كيلو سوف يكفى لأن «لقمة هنية تكفى مية» ولا يهم أن ينال الضيف نصيبه من اللحم، فما تبقى من الأرز أو الخبز يكفى، لأن «بصلة المحب خروف»

ولا يقتصر التوفير والتدبير على الطعام، ففى الثياب يكفى قميص أو قميصين، وكذلك بنطلون وحذاء واحد، ويتم ترميمه وتصليحه كلما ظهرت عليه أعراض الشيخوخة، ففى مجتمعات الأغنياء لا يوجد «الجزمجى» الذى يصلح الأحذية، لأنهم يتخلصون منها بمجرد مرور عدة أشهر عليها، حتى لو كانت سليمة، أما فى مجتمعات الفقراء فمهنة "الجزمجى" مهمة وأساسية.

وفى السكن يتمثل مبدأ القليل فى أروع صورة فى المثل الشعبى "جُحر الديب يساعى ميت حبيب"، فالشقة مساحتها أمتار معدودة، وهى عادة حجرة واحدة، وينام على السرير الواحد ثلاثة أو أربعة وربما أكثر، وقد يعيش ستة أو ثمانية أفراد فى الشقة الواحدة المكونة من حجرة وصالة وحمام مساحته لا تزيد عن متر مربع ومطبخ لا يكبره بكثير.

ولا يقتصر الأمر على مساحة الشقة، بل يمتد ليشمل ما تحويه من خدمات ومرافق، فالفقراء عادة لا يهتمون بمثل هذه الأمور، فالسكن فقير فى مرافقه، والحى الذى يسكنونه عادة فقير فى خدماته، عديم التخطيط، فالشوارع ضيقة بهدف توفير أكبر مساحة ممكنة للسكن، والمرافق منعدمة، فلا توجد مياه ولا كهرباء، وتتحول تجمعاتهم إلى بؤر عشوائية نتيجة لانعدام التخطيط، ومع الوقت يبدءون فى مطالبة الدولة بتوفير الخدمات لهم، وتجد الدولة نفسها أمام أمرين أحلاهما مر، إما أن تمد لهم المرافق الأساسية وتحاول تطوير تلك المناطق التى بنيت على أساس خاطئ من البداية، أو أن تزيل تلك العشوائيات، وفى هذه الحالة عليها أن توجد لهم سكناً بديلاً لأنهم غير قادرين على إيجاد السكن البديل، ولا تفعل الدولة ذلك إلا نادراً وفى حالات الضرورة القصوى، كما لا تلجأ إلى الحل الأول إلا فى شكل مسكنات فتنفق بعض الجنيهات على أحد المرافق وتهمل بقيتها، ويضطر سكان العشوائيات إلى الانتظار عشرات السنين؛ لأن " يوم الحكومة بسنة"، ويكون هذا التأخير فرصة لتجار الانتخابات ومدعى"خدمة الناس" فيقوم أحدهم بالتبرع بمبلغ من

المال لرصف الطريق أو تجديد مستشفى أو غير ذلك لكى يصل عن طريق ذلك إلى البرلمان، وبالتالى تحولت مشاكلهم إلى سلعة سياسية يتاجر بها "نواب البزنس" ومن على شاكلتهم. ويضطر الناس إلى الانتظار حتى يحين موعد الانتخابات التالية لكى يحصلوا على خدمة أخرى وهكذا، ولذلك فإن نبأ "حل مجلس الشعب" هو من الأخبار المهمة التى ينتظرها الفقراء على أحر من الجمر.

٢ـ الكمية والسعر قبل الجودة:

أما المبدأ الثانى الذى يقوم عليه المكون الاقتصادى من ثقافة الفقراء فهو عدم الاهتمام بجودة البضائع التى يشترونها بقدر اهتمامانهم بالسعر والكمية، فالمنتجات "التايوانى" تأتى قبل المنتجات "اليابانى" ومصطلح "تايوانى" عند الفقراء لا يعنى أن بلد المنشأ هو "تايوان" بل يعنى أن السلعة غير أصلية، لدرجة أن أحدهم يفضل الزواج من "عروسة تايوانى": عانس أو أرملة أو فقيرة" على قد الحال"؛ لأن تكاليف الزواج ستكون أقل، أى يتزوج بعروسة ليست "من عيلة" أو "بنت ناس" لأن مهرها سيكون أقل، وقد تقبل بالعيش مع أمه فى شقتها.

وينطبق هذا المبدأ "التايوانى" على كل مجالات نشاطهم الاقتصادى، فى السيارت يشترون قطع الغيار التايوانى، ولا أعنى السيارات الملاكى، ولكن السيارات الأجرة التى يعملون عليها، وفى الأدوات المنزلية والكهربائية يشترون ـ إن اشتروا ـ المنتجات التايوانى والصينى الأقل جودة والأرخص سعراً، وحتى عندما يقلد الفقراء الأغنياء. فإنهم يشترون نفس البضائع التى يشتريها الأغنياء ولكن بدرجة أقل" فرز ثانى" وخاصة فى مجال السيراميك والأدوات الصحية ولوازم السباكة وغيرها حيث تجد أسواقاً خاصة للفقراء تبيع السيراميك الرخيص "فرز ثانى" وأحياناً "فرز ثالث"، كما تجد الحقائب والأحذية المصنوعة من " الجلد الصناعى" لها أسواق رائجة فى مجتمعات الفقراء، وحتى الحرير الصناعى كان نقلة

مهمة للفقراء منذ الثلاثينيات وإن من يشاهد الأفلام القديمة سوف يكتشف أن ملابس السيدة والخادمة لا تختلف كثيراً، لدرجة أن المشاهد قد يحتار في تحديد من هي الخادمة ومن هي السيدة، وذلك راجع في حقيقة الأمر إلى تشابه ملابس الاثنين من حيث الشكل، ولكن الخادمة مختلفة بالطبع، فهذه من الحرير الطبيعي وتلك من الحرير الصناعي.

وقد نجحت المنتجات الصينية في غزو أسواق العالم لأنها تتفاوت في جودتها حسب السوق الموجهة إليها، فالمنتجات إلي أسواق الفقراء قليل الجودة ولكنها رخيصة الثمن يقبل عليها الفقراء بشغف لأنها تحقق لهم الحاجات النفسية التي يحققها الأغنياء من المنتجات اليابانية، ولكن بسعر أقل.

وفي مجال المصوغات يطبق هذا المبدأ بحذافيره في صورة مصطلح خاص هو "الفالصو" وبالرغم من أن معناها في الإنجليزية " المزيف" " False" إلا أن معناها في ثقافة الفقراء لا يعني المزيف ولا التزييف، ولا يُعتبر جريمة؛ إنما "الفالصو" نشاط مهني وأسواق تجارية لها زبائنها وروادها، فالمرأة الفقيرة لا تستطيع أن تلبس حلقاً أو خاتماً ذهبياً، ناهيك عن الماسي أو المطعم بالأحجار الكريمة، ولكنها في كل الأحوال يجب أن تلبس خاتماً في إصبعها وحلقاً في أذنها، وعند المرأة الفقيرة فإن الفالصو يصبح هو البديل، وتتوقف قيمة الفالصو على درجة لمعانه وشبهه بالذهب أو نقاء الزجاج الذي يشبه الماس.

وفي مصر ظهرت أنواع من الصناعات الرديئة لمنتجات لها شهرة عالمية، حيث تجد مصانع نشأت"في بير السلم" لا تعرف الحكومة عنها شيئاً تقوم بتقليد ماركات عالمية من"الشامبو" أو العطور الفرنسية أو "كريم الشعر" أو حتى" كريم الحلاقة"، وتجد على الأرصفة زجاجة عطر من ماركات عالمية سعرها يتجاوز المائة جنيه، وتجدها تباع بجنيهين، وبعد أن تشتريها تكتشف أنها مجرد ماء عليه قليل من رائحة تلك الماركة العالمية، وحقيقة الأمر أن هناك فرقاً من العمال الذين يقومون بتجميع زجاجات

العطور والشامبو الفارغة، ثم تقوم فرق أخرى بتنظيفها وتجهيزها للتعبئة بحيث تبدو جديدة، وتقوم فرق ثالثة بتجهيز الخليط العجيب من العطر أو الشامبو أو غير ذلك من المنتجات.

٣- ثقافة المستعمل:

وإذا لم يستطع الفقير أن يقتصد ولم يرض "بالتايوانى" وأصرّ على أن يقتنى "اليابانى"، فإنه ليس أمامه سوى طريق واحد هو المستعمل، ولا يقتصر شراء البضائع المستعملة على قطع غيار السيارات أو الأدوات الكهربائية فقط، بل يمتد بشكل واسع النطاق ليشمل كل ما يمكن أن نتخيله، وأحياناً بعض ما لا نستطيع أن نتخيله، فأبناء الفقراء لا يجدون حرجاً فى الذهاب إلى مدارسهم وحتى إلى الجامعة وهم يرتدون ملابس مستعملة، وينتعلون أحذية مستعملة، ويحملون حقائب مستعملة فى داخلها كتب قديمة، وتسود ثقافة المستعمل أو كما يحلو للفقراء أن يسموه بطريقة أكثر شياكة "سكند هاند"Second Hand فى إطار ثقافة المستعمل تعيش عائلات بأكملها، أو مجتمعات برمتها، تجارة المستعمل، تصليح وتجهيز المستعمل، شراء ولبس المستعمل، فينشط تجار الروبابيكيا فى شراء مخلفات المجتمعات الغنية، وتوجد فرق من العمال التى تقوم بتصليحها وترميمها وتجهيزها للبيع، فبنطلون به قطع صغير يستنكف الغنى أن يلبسه أو حتى مجرد الذهاب إلى الترزى لإصلاحه، وقميص سقط أحد أزراره يجده ابن الغنى قد أصبح من المخلفات التى لا يجدى معها الإصلاح، وخاصة إذا كان من الصعب إيجاد نفس لون ونوع الزر المقطوع، ولكن ابن الفقير يقبل بذلك، فيقوم هؤلاء بوضع الزر الناقص، لا يهم أن يكون من نفس اللون أو النوع، ويقبل الفقراء على الشراء.

وتنتشر فى مجتمعات الفقراء أسواق البضائع المستعملة وفى القاهرة وحدها توجد عشرات الأسواق، وكان معظمها يتواجد فى الأحياء الفقيرة والعشوائية، ولكنها بدأت تمتد إلى كثير من الأحياء التى كانت تعتبر غنية

فى وقت سابق، ويرجع ذلك إلى أن كثيرا من أفراد الطبقة الوسطى فى مصر قد أصبحوا فى عداد الفقراء، ومن أهم تلك الأسواق التى تبيع البضائع المستعملة "سكند هاند" أو القليلة الجودة "تايوانى": سوق إمبابة، سوق الجمعة، وسوق الأحد بشبرا الخيمة، وسوق المطرية، ووكالة البلح، وسوق التونسى الذى ينعقد كل يوم تقريباً.

وفى ظل سيادة ثقافة المستعمل أصبح ممكنًا أن يتحول تاجر الخردة إلى مليونير، وأصبح صعباً أن يحقق المتخصصون فى إدارة الأعمال وتنفيذ المشروعات نجاحاً مشابهاً، وإن نموذج "عبدالغفور البرعى" ليس حالة شاذة أو محض خيال، بل هو مثال شائع فى أسواق الفقراء، وقد يؤدى الى إعادة هيكلة الطبقات الاجتماعية، فأصبحنا نرى أغنياء اليوم هم من أبناء فقراء الأمس، وعندما أصبحوا أغنياء أخذوا معهم ثقافتهم، ولم يأخذوا من ثقافة وتراث و "إتيكيت" الأغنياء إلا بعض القشور، وكانت النتيجة أن تأثر الغناء والموسيقى والمسرح والسينما بهذا التحول، فالأشخاص القادرون على دفع الأموال أصبح ذوقهم وثقافتهم لا تتذوق الفن الأوبرالى ولا الموسيقى الكلاسيكية، ومن هنا أصبح الفارق بين ثقافة الأغنياء وثقافة الفقراء ضئيلاً جدًا، بل إن ثقافة أغنياء اليوم نابعة من ثقافة الفقراء بدرجة أكبر من ثقافة أغنياء الأمس.

ونتيجة للحركة الاشتراكية التى قادها جمال عبدالناصر تم القضاء على الطبقة الغنية القديمة التى كانت تحتفظ بقدر كبير من ثقافة الأغنياء بمفهومها الراقى، وقد حاول بعض ضباط الجيش ومن أطلق عليهم «مراكز القوى» شغل ذلك المكان الخالى، ويصنعون من أنفسهم طبقة غنية مسيطرة، ولم ينجحوا فى ذلك، ولعل أهم أسباب فشلهم هى أن «الطبقة» ثقافة قبل كل شىء، والثقافة لا تشاع بين يوم وليلة، وإنما هى أسلوب حياة، وطريقة تفكير ووعى، وللعلم فالطبقة تحتاج إلى أكثر من مائة عام لكى تتكون، وهنا نلاحظ أن هذه الطبقة الغنية ثقافتها هى ثقافة الفقر لأنهم جاءوا من الطبقة الدنيا أو من الشريحة الدنيا من

الطبقة الوسطى وأحضروا معهم ثقافتهم، والدليل على ذلك أننا إذا نظرنا للكتاب فسوف نجد أن حالته تتدهور، وتوزيع الصحف يتناقص، والأغانى فى هبوط مستمر، والمسرحيات تدنى مستواها؛ وكل ذلك راجع إلى أن هذه الطبقة المقتدرة هى التى تشترى، وهى التى تسمع الأغانى ، وتتحكم فى شباك التذاكر فى السينما والمسرح، وتفرض ثقافتها على الفن، لدرجة أننا نسمع كثيرًا من الفنانين يحتجون على رداءة أعمالهم بعبارة «الجمهور عايز كدة» وبالتالى فهم فى الظاهر طبقة عليا، ولكن عندما تنظر فى ثقافتهم نجدها ثقافة متدنية، ونلاحظ أن الخروج عن القانون عندهم متاح، وهذا لم يكن أبدًا موجود فى الطبقة العليا القديمة، بالعكس فهى كانت حريصة جدًا على سمعتها وسلوكها ومظهرها. ونجد أيضًا أن الطبقة العليا الموجودة عندنا الآن يتسمون بغرور المال الذى جاء نتيجة للثراء السريع الذى جعلهم يتحدون القوانين ليقولوا نحن هنا، وهى «ثقافة الفقراء» بعينها، ثقافة فقراء الفكر، لا فقراء المال.

وأود هنا أن أقول إن ثقافة الفقر التى ينتهجها الفقراء ونطلق عليها ثقافة الفقراء» ليست عيباً فى حد ذاتها ، فمثلاً نجد فى الريف أيام الامتحانات، كان هؤلاء الفقراء يذاكرون دروسهم تحت أعمدة الإنارة، وهذا نوع من أفضل أنواع الاعتماد على النفس بعكس الطالب المدلل الذى لا يذاكر فهو يتسم بالوصولية ودائمًا يقول «هل من مزيد».

الجانب السلبى فى ثقافة البسطاء.

نتيجة لتدنى مستوى الدخل لدى الفقراء. وطموح الكثير منهم إلى الغنى فإن البعض منهم يتحرك ليأخذ موقفًا سلبيًا من المجتمع، ويأخذ ذلك صورًا عديدة منها:

١ . التهرب من الضرائب:

هناك أنشطة اقتصادية ضخمة يمارسها الفقراء ولكنهم لا يدفعون

عليها ضرائب للدولة، خاصة أولئك الذين يعملون فى مجال المستعمل والخردة وغيرها، وتكون النتيجة بالنسبة لهؤلاء تحقيق الثراء السريع، فلا يعرف تاجر الخردة مفهوم «الفاتورة الضريبية» ويبدو الأمر وكأن هناك علاقة تواطؤ ثلاثية الأطراف بين البائع والمشترى والحكومة، فالبائع يعرف أن المشترى لن يستطيع أن يدفع «ضريبة المبيعات» وهو يريد أن يبيع بضاعته، فينشأ اتفاق غير معلن بينهما على أن يشترى بسعر ما قبل الضريبة على ألا يطلب المشترى «فاتورة ضريبية» والمشترى يعلم جيدًا أنه إذا طلب فاتورة ضريبية فإن هناك ١٠٪ من قيمة الفاتورة سوف يضاف إلى السعر، والحكومة تعلم بذلك ولكنها تعلم أن تطبيق ذلك على هؤلاء سوف يؤدى إلى حدوث قلاقل ومشاكل قد لا تستطيع مواجهتها.

٢. استحلال مال الأغنياء:

لا يوجد بين الفقراء نموذج أدهم الشرقاوى الذى يسرق الأغنياء ليعطى الفقراء، وإن وجد فهو أمر نادر، ولكن بصفة عامة، وبعيدًا عن النظريات المفسرة للجريمة، فإن جريمة السرقة هى نشاط يمارسه الفقراء ضد الأغنياء، فالقاعدة هى أن من لا يملك يسرق من يملك، ولا شك أن وجود أكثر من أربعمائة منطقة عشوائية فى مصر يسكنها أكثر من سبعة ملايين مواطن تسود بينهم ثقافة الفقراء، والتى تتكون من مجموعة سمات معينة أهمها تصاعد أعمال العنف التى قد تصل للإرهاب، وخصوصًا أن البيانات تشير إلى أن أغلب حوادث السرقة وأكبر نسبة من المسجلين جنائيًا يقيمون فى تلك المناطق التى تحيط بالأحياء الغنية إحاطة السوار بالمعصم.

٣. خصائص النشاط الاقتصادى لسكان العشوائيات:

تشير إحدى الدراسات أن عدد المناطق العشوائية فى مصر قد بلغ نحو (٩٦١) منطقة، منها (٨١) منطقة يجب إزالتها فورًا، ونحو (٨٨٠) منطقة يقترح تطويرها ويستلزم ذلك اعتمادات مالية كبيرة تعد بالمليارات،

ويسكن كل هذه المناطق نحو ١١ مليون نسمة، ولقد تم تطوير حتى مايو ١٩٩٦ نحو (٩٠) منطقة عشوائية.

وفى القاهرة الكبرى وحدها يوجد ستة عشر تجمعًا عشوائيًا أغلبها بمناطق : نزلة السمان ، والهرم، والعمرانية، وبولاق الدكرور، وميت عقبة، والمنيرة، وشبرا الخيمة، والمطرية، ومنشية ناصر، وتلال زينهم، والبساتين، وطرة، وحلوان، والبدرشين، ومنيل شيحة، والكنيسة.

وإذا كان مأوى الإنسان فى العصر الحجرى هو كهوف الجبال، ثم تطور وبنى عششاً من أفرع الأشجار وبقايا النباتات، ثم تطور وبناها بالقش والطين؛ فإن كل تلك الأنواع من المساكن لا تزال موجودة فى مصر بشكل أو بآخر ناهيك عن سكان القبور، وكذلك سكان "مساكن الإيواء" التى تتمثل فى وحدات الثلاثة أمتار مربعة، ووحدات التسعة أمتار مربعة فى شكل بلوكات لها دورات مياه مشتركة، ولا ننسى فى هذا المجال إسكان الكاكين، وإسكان المناور، وتحت السلالم، وإسكان المخابئ القديمة المتروكة منذ أيام الحرب، وفى مناطق الزبالين ومقالب القمامة.

وحيث إن طابع حياة سكان العشوائيات يحمل النمط الريفى فقد يمارس من لا يجد عملاً منهم تربية المواشى أو بعض الدجاج، يسوقونها أمام العشش التى يسكنونها، أو القيام بشراء وتسويق الأنواع الدنيا من الخضر الورقية كالفجل والجرجير والبقولية وبعض الفاكهة، ويبيعونها أمام المساكن أو يحملونها طباعة متجولين، كما تقوم بعض النساء ببيع وتداول الألبان ومنتجاتها خاصة الجبن القريش المكشوف للأتربة والذباب، ويقوم البعض باستجلاب أو تصنيع الأنواع الدنيا من الحلوى: كالعسلية والبسكويت والمتاجرة فيها، أو صناعة الطعمية أو الفول المدمس وبيعه أو بيع الخبز علي صواني من الجريد موضوعة على الأرض.

هذا ويفتتح البعض من السكان العشش محالا تجارية أو دكاكين شبيهة بما فى الريف لبيع عدد قليل من مواد البقالة التى تناسب حياة سكان العشش: كالشاى والسكر والزيت وبعض مساحيق الغسيل والكيروسين

ولمبات الإضاءة التى تضاء به، وأكواب وأوانى البلاستيك وصفائح المياه والجرادل والجراكن، وقد يقيم البعض محال حرفية وورش بسيطة للنجارة أو إصلاح وابوارت الجاز "الكيروسين".

كما إن فرز القمامة يعتبر نشاطاً أساسياً لنسبة كبيرة من سكان العشش، حيث يعملون لحساب الزبالين فى استخراج الزجاجات الفارغة والصفيح والكرتون مقابل حصولهم على مبالغ من الزبالين أو يقومون ببيعها لتجار الخردة أو التجار الذين يتاجرون فى المستعمل السابق الإشارة إليهم.

وبامتداد نمو التجمع السكنى العشوائى تأتى إليه الصناعات الضوضائية التى تطردها أو تحظرها قرارات الأحياء الراقية داخل المدينة: كالحدادة وسمكرة السيارات وإصلاحها، وصناعة البمب الذى يلعب به الأطفال فى الأعياد، وتستوعب هذه الأعمال المختلفة نسبة ٥٪ من القوى العاملة فى العشوائيات، أما بقية السكان فعاطلون، وبطالتهم لها أشكال غير سوية، وهى نماذج متعددة من الانحراف والبلطجة، ويمارسها الشباب منهم بصفة خاصة لعرض الفتوة وإشهارها، فيلعبون القمار الرخيص ويشربون الخمور الرديئة التى قد تكون مجرد كحول أحمر، كما يمارس العديد منهم تدخين المخدرات، وقد تطور الأمر إلى المتاجرة فيها.

٤ـ العنف السياسى:

تشير الإحصائيات فى مصر إلى تزايد معدلات الفقر، إذ وصلت نسبة السكان الذين يعيشون فى فقر مرتفع فى القاهرة إلى ٢٠,٩٪ ناهيك عن أن نسبة ٨,٣٦٪ من إجمالى الحضر يعيشون تحت خط الفقر، وإذا كان التحول الاقتصادى فى مصر قد ساعد على خفض التضخم وتثبيت سعر الصرف وهبوط العجز فى الموازنة بشكل أو بآخر؛ إلا أن غالبية سكان مصر من الفقراء لم يستفيدوا من ذلك شيئاً، وبالرغم من أن هذه التحولات قد أصبحت اتجاهاً عاماً منذ سقوط الاتحاد السوفيتى

والمعسكر الاشتراكى؛ إلا أن هذا لا يعنى تقديم الطبقات الفقيرة قرباناً لهذا الاتجاه المهمين على مذبح السوق العالمية، لا سيما وأن هذا أمر يهدد تلك التحولات نفسها فى الصميم، فهو يهدد بحدوث قلاقل اجتماعية قد تعصف بما تم تحقيقه من إنجازات فى مجال اقتصاد السوق.

ولا شك أن أحد العوامل التى سوف تساعد على التعجيل بتلك القلاقل هو أنه فى الوقت الذى تسير الدولة فيه بخطوات سريعة نحو اقتصاد السوق فإن دورها يتراجع فى المجال الاجتماعى، وفى نفس الوقت لا تفسح الدولة المجال للجمعيات الأهلية لتحل محلها، وإذا كانت الدولة قد اتخذت بعض الإجراءات فى مجال الضمان الاجتماعى فى محاولة لتخفيف آثار هذا التحول فإن ذلك لا يكفى خاصة وأن عدد الفقراء فى تزايد مستمر.

وإذا كان خبراء الإصلاح الاقتصادى يحتجون بأن الإصلاحات الاقتصادية قد تضر بالفقراء على المدى القريب ولكنها سوف تكون "الدواء المر" الذى يجب أن يتجرعه الفقراء للارتفاع بمستوى معيشتهم على المدى الطويل، حيث إن انتعاش الطبقات الغنية يؤثر إيجاباً بمرور الوقت على الطبقات الفقيرة فى صورة خلق وظائف وانتعاش عام فى المجتمع، ولكن حتى الآن فإن هذا التطور الإيجابى الذى تحدثوا عنه منذ نحو عقد من الزمان لا يوجد أى دليل على احتمال حدوثه، وإن كل البيانات والأرقام تشير إلى اتساع الفوارق بين الطبقات واضطراد عملية الإفقار.

فعندما ننظر إلى السياسات الاجتماعية ويفترض أن ترتبط السياسة الاجتماعية عموماً بالفئات الفقيرة طالما تهدف تلك السياسة إلى حماية فئات المجتمع الأقل دخلاً ومواجهة متطلباتهم وإشباع حاجاتهم الأساسية وقد حصرت بعض الدراسات هذه الفئات الفقيرة فى المتعطلين وذوى المعاش، الضمان الاجتماعى، العاملين فى القطاع العام (درجة ثالثة فأقل) والعمالة الزراعية الأجيرة والعاميلن فى القطاع الخاص غير الرسمى،

ومنذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ والدولة تحاول مد مظلة التأمين بكل أنواعه إلى كل فرد فى الدولة وكانت أعباء الدولة قبل عام ١٩٧٥ قاصرة على المعاشات الخاصة إلا أنه مع بدايات السبعينيات وزيادة حدة الفقر فى مصر؛ صدر قرار ٦٦ لسنة ١٩٧١ بتأسيس بنك ناصر الاجتماعى ليساهم فى تشكيل المجتمع القائم على أسس الكفاية والعدالة والتعاضد، إذ يقدم هذا البنك مساعدة مالية لغير القادرين بقروض دون فائدة للمشروعات الإنتاجية التى يقيمها الأفراد، ولهؤلاء الذين يواجهون صعوبات اقتصادية واجتماعية، وهناك الضمان الاجتماعى وهو الذى تلتزم به الدولة وتهدف لضمان حد أدنى لمستوى دخل الفرد وحصوله على حق المساعدة فى وقت الكوارث والحوادث، وهو نظام شامل للتأمين والمساعدات العامة، وكذلك الرعاية الاجتماعية وهى مجموعة الجهود والبرامج التى تهدف لمساعدة من عجزوا عن إشباع حاجاتهم الضرورية ولم يتمكنوا من التفاعل مع المجتمع، وبالرغم من كل تلك الجهود؛ إلا أن نسبة الإنفاق على الخدمات الاجتماعية (وخصوصاً الخدمة الاجتماعية للفقراء) ليست على الوجه الأكمل إذ انخفضت من ٤, ١٪ فى سنة ١٩٨٠ إلى ١, ١٪ فى سنة ١٩٨٨.

إن عمليات الانفتاح والتحول للسوق فى الاقتصاد المصرى فى العقدين الماضيين أدت إلى دعم العمليات المضاربة فى الإسكان وتربح أقلية من ملاك الأراضى وأصحاب المبانى الجديدة ودعم الفوارق الطبقية القائمة، بينما أدى انخفاض إنفاق الحكومة على برامج الصحة والتعليم والإسكان - وهذا بالمناسبة هو سبب انخفاض العجز فى الموازنة إلى أقل من ٥, ١٪ من إجمالى الناتج المحلى، وهو الانخفاض الذى ترحب به المؤسسات المالية الدولية - إلى تراجع شديد فى السلع والخدمات المدعمة للفقراء.

هذه التطورات تهدد بالخطر ما اعتادت عليه القاهرة بصفة خاصة ومدن مصر بصفة عامة من تجاوز الأغنياء والفقراء فى السكنى، وإن كنا لم نقترب بعد من ظاهرة الأحياء المسورة المحروسة بالمدافع الرشاشة للأغنياء كما حدث فى أمريكا اللاتينية وجنوب إفريقيا درءا لحسد وثورة

الفقراء. وبالرغم من أن القاهرة حتى الآن بمنأى عما حدث فى لوس أنجلوس وريوديجانيرو وجوهانسبرج، حيث هناك أماكن لا يستطيع دخولها الفقراء وأماكن لا يتجرأ على دخولها إلا الفقراء ويبتعد عنها الأغنياء خوفا ورعبًا؛ إلا أنها تسير حثيثًا فى هذا الاتجاه، ويمكن أن نشير إلى أحياء الزمالك والمهندسين وبعض المناطق فى مصر الجديدة ومدينة نصر كمناطق أوشكت على أن تكون أحياء مغلقة للأغنياء.

وقد ارتبط العنف بالعشوائيات منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، حيث تم القبض على عدد من المتهمين فى قضايا عنف مختلفة فى منطقتى بولاق الدكرور وعين شمس عام ١٩٧٧ ، وشهدت عشوائيات بولاق الدكرور والقناطر الخيرية والمنوفية أحداث القبض على المتهمين فى بعض التنظيمات عام ١٩٨٦، وشهدت عشوائيات الشرابية وحدائق المعادى أحداث القبض على الهاربين من سجن طرة من المحكوم عليهم بأحكام مختلفة، وكانت أحداث عنف منطقة عين شمس فى عام ١٩٨٨ استمرارا لهذا المسلسل، وكذلك أحداث عنف عشوائيات إمبابة سنة ١٩٩٢، ثم توالت أحداث العنف والسطو على محلات الذهب، والقتل وحوادث التفجير هنا وهناك، وحوادث تفجير العبوات الناسفة معظمها كان لها علاقة بشكل أو بآخر بالعشوائيات، مما جعلها جميعًا فى نظر المجتمع ومسئولى الأمن بؤرًا إجرامية وإرهابية.

والحقيقة أن هذه المؤشرات تشير إلى تحول العشوائيات إلى قنابل موقوتة جاهزة للانفجار، بل إنها كثيرًا ما انفجرت. وأضرت بنفسها وغيرها، فلا شك أن عدم إشباع حاجات المواطنين الأساسية فى هذه المناطق التى تسود فيها (ثقافة الفقراء) يترتب عليه عدم استقرار سياسى والدليل على ذلك حدوث أعمال عنف من الفقراء فعبر أربع سنوات (١٩٩١ - ١٩٩٤) شهدت مصر (٧٥) احتجاجا عماليًا. كما تتحول فى كثير من الأحيان تلك العشوائيات إلى معامل تفريخ للجريمة، وهذا هو أخشى ما تخشاه الطبقة الغنية، حيث تتحول أحياء الأغنياء التى بنيت

العشوائيات على هامشها إلى هدف سهل للعصابات واللصوص التى تخرجت فى البؤر العشوائية.

وتمثل حلقة من جهود الفقراء ليتكيفوا مع مشاعر اليأس والإحباط حينما يعجزون عن تحقيق نجاح على أى مستوى فى مجتمعهم الأكبر ، وأود هنا أن أقول إن «محو الفقر أسهل بكثير من محو ثقافته» والجدير بالذكر أن الفقراء يعلموا دائمًا على تخليد ثقافة الفقر حتى لو كان ذلك يحدث بشكل تلقائى فأطفال المناطق الفقيرة فى سن السادسة أو السابعة يتبنون التوجيهات الثقافية الرئيسية فى منطقتهم ويستوعبون نفسيًا القيم الثقافية المحلية وبذلك يتم تبنى ثقافة الفقر وتوارثها من جيل لآخر.

* * *

المكون المعمارى

إسماعيل عواد

العصر الفرعونى كما وصل إلينا من آثاره بين أن المصريين القدماء كانوا فنانين، وهؤلاء بالتأكيد من طبقة العوام المصريين أى أنهم كانوا فنانين للطبقة الحاكمة، لأن هذه الطبقة هى التى سخرتهم لعمل ما يريدون، لكننا لم نر بيتًا لعامة الناس يختلف فى تكوينه عن بيوت الفلاحين الموجودة اليوم فى بعض قرى الريف المصرى من عامة الشعب. فقد كانت الزخرفة فى مرحلة مصر القديمة أو الفرعونية تخدم الفرعون والطبقة العليا من المجتمع، وهم الذين تركوا المعابد المزخرفة ، فلم نجد قصورًا للملوك لأنهم لم يبنوا قصورًا للعيش فيها لأن فكرهم قائم على أن الحياة ما بعد الحياة، فكانوا يبنون للحياة الأخرى؛ لذا فكل المسجل كان لنفعهم فى الحياة الأخرى، ورأينا نحن فى حياتنا الدنيا حياتهم الأخرى.

والإنسان المصرى كان معلمًا وفنانًا ونحاتًا ونجارًا وكل ما يقف الناس والتكنولوجيا المتقدمة اليوم عاجزين أمامه وكيف صنع كل هذه الأشياء، كالذهب والأحجار والمبانى والأخشاب والأثاث والنسيج والنقش والزجاج والمعادن فنجدهم قد برعوا فى كل نواحى الفنون التطبيقية. لكن لم يكن هناك ما يدل على أن الإنسان المصرى العادى كان يزخرف منزله، ولكن

بعض الأشياء الطبيعية والعادية بالنسبة لهم، فتكوين البيت المصرى القديم كبيت الرجل العادى من غرفة أو غرفتين ومكان للحيوانات، فهو أقرب ما يكون لبيت الفلاح المصرى المعاصر فى القرن العشرين، وكان السقف من الخشب والجريد أو النخل ومغطى بالجريد، ولايوجد سقف خرسانى أو طوبى أو أيا من هذه الأشياء، وكان أقصى ما يتكون منه البيت هو طابقان، طابق أرضى يعلوه طابق آخر ولاوجود لأكثر من ذلك نتيجة بساطة مواد البناء المتاحة ولذلك لم يبق أيا من هذه البيوت حتى الآن، لأنها كانت تتأثر بأى عوامل جوية كالسيول مثلاً.

وكان المصرى القديم من عوام الشعب ينام على حصيرة مفروشة على الأرض أو مرتبة من جلود الحيوانات أو أى نوع من القماش. ويوجد فى بيته جرة للمياه وأدوات البيت البسيطة والتى رأيناها فى المطبخ ولم نر شوك أو سكاكين مائدة، لأنهم كانوا يعيشون بمنتهى البساطة، وفى أركان البيت مكان مخصص للحبوب وآخرًا للكانون الموقد لإعداد الطعام.

وبالنسبة للعصر الإغريقى والعصر الرومانى أعتقد أن المصرى القديم استمر بنفس الشكل لأن الإغريق والرومان دخلوا كاحتلال، فاحتفظ المصرى بطبيعته الفطرية جدًا ولم يستطع أى منهما أن يؤثر فيه.

ولم يترك الإغريق أو الرومان إلا آثار خاصة بهم على الطرز الرومانية أو اليونانية وهى التى وجدت أو كانت موجودة فى قصورهم هم.

معنى ذلك أن الإنسان المصرى العادى ظل محتفظًا بهويته المصرية وفطرته البسيطة كما سبق الحديث على مدى تلك العصور؟

الأثاث المصرى لايتغير أبدًا، ولايستطيع أحد أن يغير منه شيئًا لأن تركيبته طينية من طينة النيل، ولايستطيع أى وارد عليه من طينة أخرى أن يؤثر فى تكوينه الأصلى، لكن التى تأثرت هى سلوكياته، وهذه هى المشكلة، فالذى تتأثر سلوكياته يمكن أن يميل وممكن أن يكذب ويخاف ويهرب

ويتلون لكى يعيش مع المجتمع فقط، لكنه لايستطيع أن يتغير أبدًا، ولا يستطيع أحد أن يغيره.

يأتى بعد ذلك العصر الإسلامى فى حياة الإنسان المصرى ودخول الإسلام مصر، فهل اختلف المصرى المسلم أو المصرى فى ظل العصر الإسلامى عن المصرى القديم وبعد عن البساطة فى تشيده لبيته وتأثيثه، أم ظل كما هو وما هو الجديد الذى تغير فيه إن حدث تغيير البيت الإسلامى حقيقة إذا أردنا أن نقيم المستويات فسنجد أن هناك بيوتًا إسلامية مازالت فى مصر أو فى القاهرة بالذات تدل على المستوى الذى كان عليه القوم والتجار والقادرين والذين بنوا بيوتًا على مستوى جيد، وظلت قائمة حتى اليوم ، وهذا ما يدل على أن أهؤلاء الناس كان لديهم وعى كبير جدًا، وذوق فنى متأثر بالتقاليد الدينية والأمور الشرعية فى بيوتهم، وذلك بالنسبة لبناء البيت وستره واستعمال البيت من الداخل، ووضع نافورة مثلا لتلطيف الجو، وساقية لاستخراج المياه، والطاحونة لطحن الحبوب حتى يكون لديه اكتفاء ذاتى كأسرة فى هذا البيت وكان ذلك لعليه القوم.

أما بالنسبة لغالبية الشعب المصرى، فكان طوال عمره يعيش بأبسط الأمور نتيجة للظروف المادية؛ لأن دخل معظم المصريين فى ذلك الوقت بسيط يكفى لسد رمق الحياة فقط، ولم يكن يستطيع أن يعمل أكثر من ذلك بحيث يمكنه ذلك من الانتقال إلى صفوة القوم أو مكانة أعلى، والغالبية منه لاتملك إلا قوت يومها.

والعصر الإسلامى كان عصرًا زاهرًا جدًا فى مصر وترك آثارا من أفضل ما بقى من آثار بالمقارنة بعمارة مصر القديمة بالنسبة للمساكن، فهى تعيش للحياة الدنيا والآخرة، لأن الرجل المصرى فى ذلك الوقت كان يرى أنه ليس من العيب أن يتمتع بحياته على أساس قول الله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾

(الأعـراف:٣٢) فهو يتمتع بمـا أحل اللّه له فى الحياة الدنيا طالما يملك ذلك، وفى نفس كان يبنى المقابر بشكل جيد على أسـاس أنها مثواه الأخير.

أمـا بـاقى المصـريين فى ذلك الوقت فكانت نسبـة كبـيرة منهم تشتـغل بالحرف، وكانت هناك منـاطق مجمعة فيها الحرف كالحـدادين والنحاسين والخـيـامـيـة والسـمـاكين وكـانوا أناسًا بسطاء جدًا؛ حيث كـانوا يسكنون بجانب دكاكينهم أو مناطق عـملهم فى بيوت بسيطة جدا، لم تتعد الطابق أو الاثنين فى القاهرة القديمة.

وإلى أن دخل عصر محمد على ودخلت على مصـر طفرة أخـرى والتى كـانت البـداية لنـا فى هذا المجـال مع دخـول المنهـاج الأوربى بعض الشىء، وعلى النهج الأوربى والغير أوزوى كل شىء.

تأثر المصرى بالتقاليد الدينية

البـيت المصــرى عندمـا شـيّـده المعـمـارى المسلم فى حـال أنه يريد أن يرضى اللّه تعالى فى عمله بأن يخرج عن إطار الشـريعة، وأن هنـاك حـرمة للبـيت، فـأنا لى فى ذلك مـقـولة، بأن البـيت المصـرى المسلم يشـبـه الكائن المحجب أو كالسيدة المحجبة والتى لايرى منها إلا عينيها لكن ترى بهمـا، وباب البـيت كـالثـغـر للحـوار والتـواصل مـع الآخـرين فى الخـارج، وهذا تصورى بشكل شـخصى، لهذا السبب كان الرجل المصرى المسلم محـافظ جدًا على أن أهل بيتـه من السـيدات والفـتيـات لايراهم أحد من الخـارج وهن قـابعـات فى البيت، فجعل لهن الحدائق وكافة المناظر الجمالية فى دخل البيت، لذا نجد البيت المسلم ـ من الخارج ـ يكاد يكون مغلقًا ولايوجد به نوافـذ مـفـتوحـة تكشف من بداخله، ولكن داخله مـسـاحـة من الأرض، مـوارة عن البـيـوت التى تحـيط بـه، فـيكون كل شـىء بالداخل يكون أهل البيت بداخله ولايظهر أيا منهن على الغرباء من الخارج.

بعكس البـيت الأوروبى والـذى فـعل العكس، فنجـد النـاس فـى الشـوارع ترى السـيدة جالسـة فى حديقـة بيتهـا خـارجة، فهنا المعمـارى المسلم جعل

الحديقة داخلية والأوربى جعلها خارجية، فالأخير يظهر نفسه وأهله ولايجد فى ذلك حرج، أما الأول فيريد أن يحافظ على حرمة أهله، ولايريد أحد أن يرى زوجته تقوم بنشر غسيلها مثلا خارج البيت. فهى فى داخله تستطيع أن تقوم بكل شىء من خلال حديقتها الداخلية وهذا هو الجمال فى الموضوع.

وهناك أمر آخر البيت المصرى المسلم فى الماضى كان فى مدخله دهليز صغير وهو يشبه فكرة البرافانات التى كانت موجودة منذ فترة ليست بالبعيدة، وهذا لايكشف من يدخل البيت حرمة أهله المتواجدين فى غرفة المعيشة. وكل هذه الأشياء مواريث دينية تظهر الحياء الذى له قيمة وأن المرأة فى الإسلام مصانة ومحترمة ولايكشف حرمتها غريب.

أما فى العصور الحديثة فنجد الظروف التى مرت بمصر من استعمار وتغير اجتماعى ظهر ديكور أو تصميم داخلى فى القرن العشرين والتحديد فى النصف الثانى منه، وطبقة قليلة جدًا من الناس الذين إذا كان لديهم حجرة فقط أو حجرتين تغير مستواهم المادى بشكل معقول.

وجدير بالذكر أن الفترة ما بين ١٩٠٠ إلى ١٩٥٢ أى من بداية القرن العشرين وقيام الثورة المصرية كانت هذه الفترة معروفة بالقصور ولا يوجد شىء اسمه شقق يتم تأثيثها وتصميمها باستخدلم الديكورات المختلفة، لكنها قائمة على طرز أوروبية لأن القائمين عليها وعلى تنفيذها وتصميماتها كانوا أوروبيين سواء من إيطاليا أو فرنسا أو إنجلترا، أو أيا كان منهم يصممون هذه القصور لمن يملك القدرة المالية والوضع الثقافى.

أما العمارات التى تجمع عددًا كبيرًا من الناس فى ٣٠ و٤٠شقة فلا أعتقد إن كان كثير من هؤلاء والذين يعتبرون من الطبقة الوسطى أنهم كانوا يكلفون مهندس ديكور بتصميم منازلهم، ولكنهم كانوا يؤثثون البيت بالمفهوم التقليدى لتأثيث البيوت وحتى كبار صناع الأثاث فى مصر مثل كشك وآخرين اندثروا الآن كانوا يصنعون ثلاث غرف، حجرة للنوم وثانية

للطعام وثالثة للجلوس، ولم يكن للطبخ مكانة كبيرة فى هذه البيوت آنذاك.

كان هؤلاء الناس يحبون أن يتطلعوا إلى الطبقة العليا، فكانوا يريدون أن يحاكوهم بالنسبة لتصميم الغرف، فمثلاً الصالون يطلب أن يكون مذهب على الطراز الفرنسى، والصالون الأصلى الموجود فى قصر من القصور يكون طبقًا للأصول مكلف جدًا، لكنه المواطن العادى يجد من الحرفيين من يقلد هذا التصميم، ويكون بالثمن المناسب، حتى يشعر أنه يملك يملك صالونًا مذهبًا فرنسى الطراز، وكان ذلك فى الفترة التى سبقت الخمسينات، وحتى الآن مازال عدد كبير من الناس المتوسطة ماديا ولاتقول فقيرة تصر على الصالون المذهب، لأنه يدل على الفخامة والقيمة العالية.

فالشعب المصرى محب للحياة بطبيعته، بمعنى أنه يحب كل شىء مزخرف ويزخرف حياته به حتى ولو كان شيئًا بسيطًا، ولذا نجد الحصير الملون والجدران مرسوم عليها أشكال عليها أشكال ملونة، والستائر بسيطة لكنها مليئة بالورود، وأشياء من هذا القبيل، فالشعب المصرى يريد أن يشعر بالحياة على الرغم من أن وضعه المادى الفقير.

وهذه النقطة لو تطرقنا إليها نجد أن هذه الزخارف التى ظهرت فى الأثاث معالجة الستائر والجدران نجدها أيضا فى الموسيقى الشرقية فهى موسيقى طريفة، فهذه طبيعة موسيقانا بعكس الموسيقى الأوروبية مثلاً.

أما بالنسبة لتناولنا الموضوع على مستوى الوضع المعاصر، فهو الأفضل لمعرفة كيفية تطورنا وذلك نتيجة بعض العوامل منها.

انفتاح مصر بشكل كبير بعد فترة الانقلاب فى الستينيات ودخول آراء وأشكال ومدارس ونظريات كثيرة، بالإضافة إلى دخول الأموال والاستثمارات إلى مصر، لأن الديكور يساوى نقودًا وهو شىء إضافى وليس من متطلبات الحياة الأساسية، ولذا فيمكن عمل ديكور أو تصميم

مميز للبيت بعد توفير كافة متطلبات الحياة الأساسية، وزخرفة البيت وجعله جميلاً.

فالديكور يمثل العناصر الزخرفية الجمالية وتنسيق المكان بما يتسق مع الذوق والوضع العلمى أو بما يتفق مع المستوى الثقافى والاجتماعى للإنسان، وطبقا لذلك فقد رأيت بيوتًا فقيرة جدًا ودخلتها فى مناطق متاخمة للقاهرة وفى بعض مناطق القاهرة، أرض المنزل بها بلاط بسيط جدا، لكن توجد الأريكة البلدى مفروش عليها مفارش ملونة جميلة ونظيفة جدا وبجانبها منضدة ذات خشب بسيط مغطاة بمفرش أبيض، صنع ديكورًا خاصًا، وقد يتخذ الأثرياء أجزاء من مكونات هذا البيت كديكور له صبغة أصيلة.

وبناء على ذلك نستطيع القول أن الديكور يدخل فى طبيعة الشعب المصرى بحسب مستوياته الاجتماعية والمادية المختلفة، لأنه بطبيعة الحال يريد الفرد أن يزين منزله بشكل جميل، وهذا هو ٤٠

والتصميم صنعت طفرة خارج المجتمع التعليمى، فكان العدد فى الماضى لا يزيد عن ثلاثة أو أربعة دارسين لفن الديكور فى الكليات الفنية، أما الآن فإن عدد خريجى هذا التخصص قد تزايد وطبق كل منهم ما تعلمه على بيته أو بيوت أقاربه وبدأت تنتشر التصميمات إلى أن انعكست على المجتمع المصرى بشكل كبير.

هل هناك هوية مصرية فى الديكور؟

لا توجد هوية مصرية، فالهوية المصرية لابد أن تتمثل فى منتج مصرى خالص، بمعنى أن أملك منتجًا يتمثل فى الراديو مثلاً وتملك كل البيوت المصرية هذا المنتج المصرى) الراديو (فيصبح الراديو منتجًا مصريًا خالصًا موجودًا بكافة البيوت المصرية لكن الراديو منتج عالمى أى أنه منتج يابانى أو صينى أو أمريكى، فهو راديو، لذا لانستطيع أن نقول أن البيت المصرى الذى لا يملك الراديو الأوروبى يكون مصرى الهوية، والذى يملكه

لايكون مصريًا، فالبيت المصرى الآن عبارة عن تكوين من كل المعطيات والمنتجات سواء كانت مصرية أو غير مصرية فلم يعد هناك تميز للبيت المصرى فمن الممكن أن يكون هناك بيت مصرى لاينقصه شيء ولكن يوجد نظيره فى إيطاليا، أو حتى على المستوى المحلى كالإسكندرية وهو فى القاهرة ومثله فى أسوان وهو فى قليوب.

أى أنه لم يعد هناك ما يدل بوضوح على مصرية هذا البيت، فلقد انصهر الشعب المصرى فى ثقافات مختلفة، وغزت المنتجات الأجنبية السوق المصرى.

والمثال الأكثر وضوحًا هو فانوس رمضان الصينى، وأين الفانوس المصرى، فاليوم أصبح الغزو يغير هوية المكان، نعم فالفوانيس متوحدة اسمًا ولكنها تأتى من الصين وبأشكال صينية لا أقبلها أنا كرجل يميل إلى الخطوط المصرية، وحتى مهما طورت من أشكال وأطلق عليها من أسماء من عندنا يبقى شكلها وتصميمها مختلف عن الفانوس المصرى التقليدى، والذى كان بشكل مميز أعلاه هلال يرمز إلى الدين الإسلامى فوق الضوء الخارج من الفانوس وهو ما لم يفهمه الكثيرون والذى يمثل المنتج المصرى فجاء الفانوس الصينى يحمل أشكال غريبة بعيدة عن الفانوس المصرى الأصلى.

. وقد يرجع الأمر إلى مستوى صاحب البيت فهناك من يريد تحفة فنية فرنسية مثلاً، أو أخرى مختلفة ذات إسلامى لكنه لايعرف إذا كانت هذه التحفة أصلها مصرى أم لا، فليس معنى أن هذه القطعة الفنية مرسوم عليها زخرفة مصرية تكون مصرية أو إسلامية ونكون بذلك وضعنا شيئًا مصريًا لكن يحدث أن نضيف قطعة صغيرة جدًا إلى البيت كارتداء لباس معين له شكله وتصميمه ثم إضافة شيء لتزيينه فهذا الشيء المضاف مثلاً كهلال فيصبح اللباس نفسه مصريًا، لا، لايكون مصريًا، يكون مصريًا متى كان تصميم اللباس كله مصريًا وزخرفته كلها مصرية والشكل كله مصريًا، فيكون بذلك الكيان كله مصريًا.

لكن هذه الأشياء الصغيرة لاتدل على أن هناك روحًا أو شيئًا مصريًا، وهذا ممكن جدًا عندما يكون لدى الفرد سجادة ضخمة كلها من الزخارف المصرية أو سجادة معلقة على الجدار بها موضوع من الموضوعات المصرية التقليدية الشعبية أو البيئية أو بعض الرسوم التى تمثل عناصر متفق عليها كالنيل والنخل وما إلى ذلك فتكون أيضًا مصرية لكن ليست كل البيوت تحب اقتناء مثل هذه الأشياء بل تقتنيها البيوت الأعلى وتضعها كزخرفة مضافة للخامات، لأنها تستعملها كشكل جمالى.

مناطق ذات طابع مستقل

- بعض المجتمعات النائية، كصحراء مصر مناطق مستوطن فيها أناس، مثل الوادى الجديد وسيوة والمحافظات النائية فى وسط الصحراء، فلم يكن لهؤلاء الناس مطمع لدى الاستعمار للذهاب إليهم، لأنهم رُحل، وقد صنعوا البيئة السكانية الخاصة بهم، أى أنهم أنشئوا بيئة سكانية تتفق مع تقاليدهم الاجتماعية والدينية وتتفق مع مناخهم الذى يتأثرون به، ونحن نتفق على أن حولهم صحراء من كل صوب وناحية، أى لايوجد أسوار شجرية أو مدن تحميهم، فهم بطبيعتهم وبطبيعة الإنسان الطبيعى الذى يتكيف مع بيئته لكى يعيش فى أمان وصحة ويجد غذاءه فيصنع البيئة الخاصة به.

فحدث أن احتفظوا ببيئتهم الخاصة حتى الآن وأصبحوا اليوم يُزارون من قبل مختلف الناس لكى يحذوا حذوهم، ويروا كيف سخروا معطيات البيئة الصحراوية بأن عاشوا بها بصحة جيدة جدًا، وكيفوا حياتهم بالنسبة للمبانى والخامات التى تم الصنع منها، فأصبحت المبانى قريبة جدًا من بعضها لكى يعطوا لبعضهم البعض الشعور بالأمان، وتتم علاقات البيوت ببعضها عن نتيجة القنوات أو الممرات بين البيوت والتى تعطى أيضًا تلطيفًا للهواء.

ولقد زرت هذه الأماكن وكانت درجة الحرارة حوالى ٤٥ درجة لكن داخل هذه البيوت كانت الحرارة مثل ٣٠ درجة وذلك بسبب بناء هذه

البيوت بطريقة معينة تسمح لها بامتصاص الحرارة مما يجعل سكانها يعيشون فى جو لطيف، كما أنهم كيفوا أنفسهم عليها.

وعندما نذهب نحن إليهم فإننا نبنى لهم مبانى كالتى نبنيها هنا فى القاهرة، أى أننا نفسد بيئتهم لأنهم لن يتكيفوا معها، ولايمكن أن نعطى لهم تكييفًا صناعيًا مثلاً عوضًا عن بناء بيوتهم المميزة.

ولذا يجب على الناس التى تقوم ببناء أو تأثيث أو تجميل الأماكن قبل أن يكون على علم أن يكونوا صادقين بمعنى أن يقوموا بكل ما هو مناسب للبيئة، لأن الإنسان ابن بيئته، فلا تستطيع أن تأتى بإنسان عاش ٣٠ أو ٤٠ سنة فى بيئة معينة ثم تأتيه بإفرازات بيئة أخرى وتضعها فى بيئته وتقول له إن هذه هى أحدث شىء وأصلحها أيضًا، ينتج عن ذلك أنه سوف يلفظها تمامًا مثل الجسم البشرى عند زرع الأعضاء يكون ملزمًا بأخذ الأدوية طوال العمر حتى لايلفظها الجسم لأنها غير طبيعية.

ولذا يجب أن نأخذ من بيئتها لأن كل بيئة غنية جدًا جدًا بالموجود فيها بشرط أن نبحث عنه.

فقد قسم الله سبحانه وتعالى الكرة الأرضية إلى مناطق، وجعل لكل منطقة مناخها المختلف، وظروفها المختلفة ومنتجاتها المختلفة والبشر أيضًا مختلفين، وكل هذه المنظومة عندما يكون لها تواصل وتصالح مع البيئة حياة من أحسن ما يكون لكن الذى يوجد العشوائيات هو أننا غير متصالحين مع البيئة، فالناس تسكن فى أماكن هى نفسها غير معدة الإعداد الذى يتفق مع هؤلاء الناس، فنشعر بالضوضاء ونرى القمامة ويكون كل شىء غير طبيعى، لأنهم لم يستطيعوا أن يتأقلموا مع البيئة.

فنرى اليوم مثلاً المحل يعمل بالبيت السكنى، وهذا لاينفع، فنجد هذا قلق وذاك مريضًا وكل شىء يختلط فيكون عشوائيات.

* * *

• اللغة والمجتمع وثقافة الفقراء

المكون اللغوى لثقافة الفقراء

عزت محمد

المكون الاجتماعى

طـه محمد

المكوّن اللغوى

عزة عزت

ـ الحقيقة أن العامية المصرية أقرب اللغات للغة العربية الفصحى، رغم أن فيها كم من الاشتقاقات والمنحوتات اللفظية المتوارثة من العصور، التى تواتر فيها على مصر المماليك والأتراك والفرس وباقى الجنسيات التى تركت بصمات أو تركت بعض الألفاظ المتداولة . لكن من حيث الصياغة العامية تعتبر اللهجة المصرية أقرب اللهجات العربية إلى اللغة العربية الفصحى. واللهجة المصرية لها مستويات أيضًا مثل مستويات اللغة العربية وهى ـ العامية البسيطة الشعبية ولها مستوى أيضًا أعلى من ذلك .

ـ عامية المثقفين أو الصفوة.

ـ عامية للأميين وعامية لبعض المستنيرين.

ـ وفى النهاية توجد عامية المثقفين التى هى أقرب إلى اللغة العربية الفصحى تمامًا إلى جانب أن اللهجة المصرية فيها الكثير من الفصحى، من حيث الصياغة ومعظم فنون الكتابة العربية.

ـ ومن ناحية أخرى نجد أن فنون البلاغة العربية موجودة فى اللهجة المصرية حيث نجد التشبيهات والكناية وكل أشكال البديع نجدها أيضًا

من جناس وطباق إلى جانب أن اللهجة المصرية بها كل أشكال الصياغة العربية تكاد تكون لها تصريفاته حتى أن كل لفظ عامى له تصريفات بنفس أسلوب تصريف الأفعال وتصريف العبارات فى اللغة العربية.

هناك علاقة تفاعل بين اللغة الرسمية واستقبال الطبقات وخاصة الطبقات الفقيرة لهذه اللغة.

بما أننا نعيش فى عصر السمع والرؤية التليفزيونية والإذاعية فأصبح حتى البسطاء والعامة الأميين أصبحوا يتفاعلون مع اللغة الرسمية التى يتلقونها ويسمعونها من خلال برامج حوارية أو من خلال نشرات أخبار أو برامج لها طابع ثقافى حيث ظهرت فى مفردات العامة من الناس أو البسطاء جدًا من الأميين بعض التعبيرات وإن كان من الممكن أن يرددوها وهم ليسوا مدركين تمامًا لمعناها ومغزاها خاصة إذا كانت مصطلحات لها طابع سياسى أو اقتصادى أو مغلق بالنسبة لهم لكن من الممكن أن تتوا فر فى لغاتهم أو مفرداتهم الشعبية يتلقونها فى شكل من أشكال العلاقة بينهم مع اللغة الرسمية ويستقبلونها فى شكل جيد بينما الأكثر استنارة مما نجد أن لغة الخطاب الرسمية لها قبول لديهم فيحاولون قدر الإمكان أن يرددوا هذه التعبيرات وينشروا هذه المصطلحات بشكل سريع مهما كانت لغتهم الرسمية.

أما عن تأثير الثقافة الحديثة القادمة من مركز الرأسمالية العالمية بما تتضمنه من قيم ثقافية استهلاكية على لغة المصريين فنجد أن ثقافة العولمة أثرت بشكل كبير على قيم المجتمع وكل مفردات اللغة وعلى تطلعاته وعلى النمط الاستهلاكى ليس فقط فى لغة الإعلام ولكن أيضا فى لغة الإعلان حتى أصبح هناك جذب أى عملية أخذ وعطاء ما بين الاثنين بشكل فاعل وأيضاً أثرت هذه الهجمة بشكل كبير على نمط الحياة والسلوك والتطلع البشرى وعلى مفردات اللغة أيضاً كان لها تأثيرها بدليل أن أصبح العامة من الناس أحياناً يرددون "أفيهات" وردت فى مسرحيات أو يرددون عبارة الشعار الموجودة فى الإعلان ويكتب مدلوله بحيث من

الممكن أن يتكرر رغم أن الإعلانات واحدة مفرداتها وشعاراتها التى يسهل حفظها حيث إن كل سلعة لها إعلان له متنه (معلومات) وله شعار أو أغنية ويتم تكرارها لربط المستهلك بالسلعة، ولا شك أن هذه العبارات مأخوذة من اللهجة المصرية ومع ذلك مصاغة بشكل فيه ظرف إلى حد ما فالشعب المصرى يعيد تكرارها ويكتسب مدلولات جديدة أيضاً، ويستشهد بها فى صور كثيرة تكاد تكون هى الأصل حتى أصبحنا حاليا لم نعد نستشهد بالأمثال الشعبية والمأثورات الشعبية بل أصبحنا نستشهد بما هو آتى فى الإعلانات.

إن الهجمة الإعلامية الموجودة حالياً ليس مصدرها مش كتاب فقط (كان القلق سابقًا من الغزو الفكرى الذى يأتينا فى صورة كتاب) هذه ليست غزوًا فكريًا لكنها اجتياح أو اكتساح من الفضائيات والإنترنت وكل الأشكال من السموات المفتوحة وهذا الكلام إلى حد كبير أثر حتى وصل إلى حد أنه أحدث تحول فى سلوك الأفراد داخل المجتمع المصرى بشكل فارق بمعنى حدوث تحولاً جذرية، تحولات فى الشخصية والبعض يرى أنها تحولات قشرية لم تصل النخاع أى لم تصل إلى لب الشخصية المصرية لكنى فى الحقيقة أرى أنها تحولات جذرية طالت الشخصية المصرية بكل مظاهرها الملبس والمأكل حتى وصلت النخاع وحتى المزاج المصرى أصبح مختلفا فمزاجهم فى الملبس اختلف وهذا الانفتاح الإعلامى أثر فينا فالجلابيه الفلاحى المصرية التقليدية وكذلك الملاية اللف شبه انقرضت حتى حلت محلها الإيشارب الفلسطينى والعباية السعودى والجلابية السعودى وأيضاً ظهور الجينز وكل مخترعات الموضة.

- وعلى مستوى المأكل أيضاً تجد المزاج الشعبى العادى الذى يأكل خضاراً وأرزاً ولحمة فكنا نجد الأطفال يلعبون ويقولون (فتة ولحمة وأرز) لم نعد نأكل فته ولحمةً وأرزًا بل أصبحنا نأكل همبرجر وكنتاكى والتيك آواى وغير ذلك.

ـ حتى الإعلانات سأهمت بشكل كبير فى تعرفنا بأنواع كثيرة من الطعام الجديد حتى أنه فى إحدى المرات ظهر إعلان عن أكلة اسمها(كريب يا مرسى كريب)، ما الكريب لا تعرف؟ فالإعلان بدأ يفرض علينا نماذج من أنواع المأكل التى لم نكن نعرفها ـ فالإعلان نجح فى أن يدخلها بشكل جيد والإعلام والإعلان تضافرا فى تحقيق تجذير الهجمة الإعلامية بشكل خطير.

ـ أيضاً سلوكيات أفراد الشعب المصرى الذى كان ودودًا وطيبًا ومتسامحًا وغيرها من السمات الخيرة والذى كان يغلب العاطفة على المادة أصبح إلى حد كبير تحكمه المادة، لعلها سمة عصره لكنها اشتدت بشكل كبير أحدث انقلابا فى الشخصية المصرية.

ـ الإنسان المصرى الذى كان صبورًا وراض بأقل القليل حتى أن المثل الشعبى يقول (إذا حضر العيش يبقى المش يشبرقه) وكنا نرضى بكل شىء وآية المصرى الصبر بكل أشكاله فالمصريون راضون بحالهم وصابرون على كل ما يصيبهم أياً كان أما حالياً مستوى اللجاجة والاستعجال فى تحقيق الطموح حتى لو أدى إلى أن الإنسان يرتكب جريمة أو يفعل سلوكًا مشينًا أو يأخذ رشوة وأصبح يفعل أى شيء خارج.

وأرى أن هذه الهجمة الإعلامية أثرت بشكل كبير جداً فى سلوك وأنماط سلوك الشعب المصرى ـ فى المأكل والملبس والمعتقد فى الصبر فى أخص خصوصيات الشعب المصرى.

ـ لأننا نعرف أن الشعب المصرى من أبرز سماته وآية المصرى الصبر ونجده أصيب فى عصر السرعة الحالى بقدر من اللجاجة.

الشعب المصرى الذى كان فنانا ومبدعا وكانوا زمان يقولون عن الصانع المصرى الماهر (إيده تتلف فى حرير).

* * *

هناك رأى يقول إن صفات مثل المروءة والشهامة أخذت فى الاضمحلال بين أفراد الشعب المصرى ورأى يقول بأن هذه الصفات كامنة فى وجدان المصرى ويستدل على ذلك بأنه عندما حدث زلزال أكتوبر فى مصر بدأت تظهر صفات كالنخوة والمروءة والنجدة والشهامة.

ولكن قد يكون هذا مؤشر خطير فالشعب المصرى الذى كان بطبعه متعاونا أصبح لا تتحرك بداخله هذه الصفات الكامنة إلا عندما تحدث كارثة وبذلك نستطيع أن نقول إن هذا الغزو العولمى الوافد أثر بشكل كبير فى سلوكيات وقناعات ومزاج الشعب المصرى

فالشخصية المصرية حدث لها انقلاب خطير. وفى كتابه ماذا حدث للمصريين يشير جلال أمين إلى التحول الخطير الذى طرأ على الشخصية المصرية حيث أصبح ذلك واضحا مشاهدا للغاية وأصبح الحديث السائد فى الأوساط المجتمعية الآن أن الزمن الماضى يطلق عليه (الزمن الجميل) فى إشارة واضحة إننا نعيش فى زمن سيئ وقبيح.

وكانت الشخصية المصرية تتسم بسمات وصيفات من أهمها الطيبة العضوية والتواضع؛ وكانت الأمثال الشعبية تظهر مدى إتقان المصرى لصنعته حيث كان يوصف بأنه (فنان ومعلم) ومتقن المهنة محب لوطنه منتمى إلى ترابه مرتبط بأرضة؛ لا يفضل أن يتركها ويهاجر إلى أرض سواها بالرغم من ضيق العيش كان المصرى عندما ينتقل من بيت إلى بيت داخل الحى ذاته يحس الغربه وحنين إلى بيته الأول ويظل مدة حتى يتكيف ويتأقلم مع البيت الجديد.

والأمثال الشعبية (عزل يوم خراب سنة) (من طلع من داره اتقل مقداره) تؤكد مدى ارتباط المصرى بوطنه أما الآن فالمصرى يسافر ويهاجر ويقيم فى وطن جديد بسهولة صحيح يتبقى بداخله جزء من الشجن أو رغبة فى العوده ولكن يتأقلم بسهولة مع الوضع الجديد والوطن

الجديد وهذا شكل من أشكال الغزو الثقافى بأن أمريكا حلم المهاجر والثراء السريع والعلم الوفير وأن يلده سيئ ولايعطى الكفاءات حقها ولافرصتها فى النبوغ والتفوق بحجة الإمكانيات المتاحة وغير ذلك.

وهنا سؤال فالأمثال الشعبية خير معبر عن ثقافة الشعوب فكيف يمكن أن نفهم ثقافة الفقراء من خلال أمثالهم.

لا نستطيع القول أن هناك أمثالاً خاصة بالفقراء وأخرى خاصة بالأغنياء لكن الفقر كظاهرة فى حد ذاتها رصدها المثل الشعبى مثل (الفقير ريحته وحشة) (لو كان الاسم بينشرى كان الفلاح سمى ابنه...) (طول منا على الحصيره لا شايف طويلة ولا قصيرة) يعنى طالما قاعد على الحصيرة يعنى فى مستوى متدن لن يرى الناس اللى فوق وأيضا يقال فى المثل (إذا دخل الفقر من الباب هرب الحب من الشباك) فى إشارة إلى أن الحب وحده لا يكفى للزواج وبناء أسرة (اللى ما يكون سعدة من جدودة يالطمه على خدوده) يعنى الفقر والغناء وراثة (طلب الغنى شفقة طلب الفقير زيره جاته داهية ما قل تدبيره) (إن شفت الفقير بيجرى اعرف انه بيقضى حاجة للغنى) يعنى دائما الفقير تابع للغنى (العايز أهبل) يعنى الفقير المحتاج يرضى بأى شىء ويعمل أى شىء (دلع الفقارى بيفقع المراره) حتى الدلع غير مقبول من الفقير (الغنى شوكته شوكة بقت فى البلد دوكة والفقر قرصه تعبان قالوا اسكت يا زنان) (الغنى مات جروا الخبر الفقير مات مافيش خبر) (الفقير لا يتهدى ولا يتبادى ولا تقوم له فى الشرع شهادة) (الكرشة عند الفقير ظفر) (يا مزكى حالك يبكى) - (إن عاشوا كلوا الديدان وإن ماتوا ما لقوا كفان) ومجمل هذه الأمثال الشعبية يوضح مدى الظلم الاجتماعى الواقع على الفقراء.

ونتيجة للهجمة الإعلامية نجد أن مستوى الطموح عند الفقير تطور بشكل ملحوظ فنجد أن الفقير الآن يعرف الأكلات الأمريكية الجديدة مثل (التيك آواى - الهمبرجر - إلخ) ويلبس الچينز هذه الثقافة الواردة إلينا جعلت الفقير يثور على وضعه الاجتماعى والاقتصادى ويطمح فى حياة

أفضل مما جعله يصطدم بالواقع الأليم فإما أن يرضخ ويرضى بحاله وإما أن ينحرف لتحقيق طموحه.

وبالرغم من أن المصرى يعتبر المال شيئًا أساسيًا ولكنه لا يعطيه الأهمية المطلقة فدائمًا المصرى كان يقول إن الأصالة أهم لأن الشعب المصرى شعب أصيل وعريق ويتجسد ذلك فى المثل الشعبى السائد (خد الأصيلة ولو على حصيرة) (ما تبكيش على اللى ضاع ماله أبكى على وقف حاله) وهذا يعنى أن العمل أهم من المال (الصيت ولا الغنى) فالمصرى يقدر قيمة السمعة الطيبة والأصل الطيب مرت على الشعب المصرى منذ تاريخه القديم وحتى العصر الحديث محن كثيرة مثل الشدة المستنصرية وحتى سكنى المقابر فى العصر الحديث ولكن هذه المحن لم تؤثر على أصالة المصرى ربما تكون أثرت على نظرته للحياة والعالم من حوله، وفى بحث لسيد عويس أشار أنه اكتشف وهو ما زال طالبا فى معهد الخدمة الاجتماعية عام ١٩٣٨ أسرة تعيش بأكملها فى المقابر معنى ذلك أن سكن القبور منذ فترة طويلة يتم ولآن سكان القبور الأن لا يعيشون فى فقر مدقع كما يتصور البعض فنجد الأسرة تمتلك جميع الأجهزة الكهربائية مثل التليفزيون والغسالة والثلاجة... إلخ

وسكان القبور أيضا استغلوا المساحات الخالية لإصلاح السيارات كورش وأنشطة أخرى كثيرة فلم يعد سكان القبور مؤشرًا على أن هؤلاء الناس هم أدنى الطبقات مثل ساكنى القبور قديمًا كما أن هؤلاء الناس يتكسبون من أى شيء حتى من التسول بعكس الطبقة المتوسطة التى يستنكف أبناءها من التسول ويأبون التكسب إلا من مصادر لائقة.

فالشعب المصرى مر بمحن كثيرة بدءًا من عصر الفراعنة، فقد كان الفيضان يأتى جارفا معه قرى كاملة والقرآن يذكرنا بالسنين العجاف فى قصة سيدنا يوسف إلا أن هذه المحن فى الغالب كانت تقوى من عود المصرى وصلابته ودائما نجد الفقير أكثر صلابة من الغنى وفى الحديث الشريف «اخشوشنوا فإنَ النعمة لا تدوم» وفيه دلالة على أن الصلابة

والخشونة تلازم الفقير وتجعله أكثر صبرا وجلدا على تحمل الملمات والشدائد وهذا طابع المصرى على مدى التاريخ.

هل يوجد ما يطلق عليه اللغة الدينية الشعبية المصرية فمثلما انفردت مصر بطقوسها الدينية المتفردة ـ الموالد مثلاً ـ التى استمدتها من تراثها الدينى الطويل فهل تكونت لغة مصرية خاصة أن الشخصية المصرية شخصية متدينة بطبعها حتى قبل الديانات السماوية ، الإسلام ـ المصرى الفرعونى نفسه قبل الديانات شخص متدين ـ لكن التدين فى الحقيقة أخذ منحنى أو مظهرًا مختلفًا حالياً ـ اللهجة المصرية الشعبية فيها قدر كبير جداً من مظاهر التدين، فيها معنى الخضوع لله والإيمان المطلق بأن النصر من عند الله وذنبك «ربنا هيخلصه»، يعنى الاتكال على الله والإيمان بالله والتسليم والصبر والرضا مجموعة أمور حتى رؤية المصرى لله مختلف عن كل شعوب الدنيا فلو نظرنا لهذه الظاهرة فى المجتمع المصرى تجدها أصابها بعض الانقلاب أو التحول فالشخص المصرى كان مهتمًا بالدين كجوهر حتى كان يقال الدين المعاملة أى أهم شىء أن يتعامل الناس بالطيب وكان يرى فيه التواضع وعدم الكبر ويسخر من كل الذين يقومون بأى عمل يتناقض مع القيم الدينية.

فالشكر والحمد والخوف والحذر قل جداً فى اللهجة المصرية حتى حل محله التعبيرات التى تعكس غيره، فمثلاً بدلاً من أن يقول شكراً يقول لك «ماشى»، حتى فى المجاملة الإنسان المصرى كان مجاملاً ومرحبًا كل هذا قَلّ بحد كبير، تقدر تقول إن اللهجة المصرية تأثرت بشكل كبير حتى تأثرت بتدين المصرى.

وتأثرت الآن بمفهوم التدين الجديد الخاضع لفكرة أصلى وأصوم وألبس حجاب أهم من كيف أتعامل مع الناس،

هناك اضطراب فى المفاهيم وتداخل مخل فستجد من يقول (النبى قبل الهدية) ـ و(أصلها إكرامية) يسمى الأسماء بمسميات مختلفة من أجل نفسه التى كانت أصلاً نفس عفيفة.

ـ كانت الشخصية المصرية القديمة لاتقبل الحرام وكان يقول) (مال الناس كناس) أى أن القرش الحرام لايدوم.

ـ أصبحوا يسمون الرشوة أسماء غريبة مثل (إكرامية ـ فتح مخك ـ رش ـ رشة جريئة) وتعبيرات جديدةً نجده يقول (اظرفنى تعرفنى ـ إبرز تنجز)، كل هذه المعانى تعكس أن التدين المصرى أصيب فى مقتل، ولم يعد هذا المتدين الخالص الإيمان لله ـ الراضى والقانع.

* أما بالنسبة للطقوس الدينية فمن المعروف أن مصر منفردة بطقوس دينية معينة مثل الموالد ـ وفى الحقيقة نجد أن الطبقات الدنيا من الناس يلجئون إلى فكرة الأولياء الصالحين وزيارة القبور والموالد ـ ودخلت مع هؤلاء الناس طبقات أخرى أكثر عملاً وبدءوا يلجئوا لفكرة الإيمان بالغيبيات لأنها جزء من تدين المصرى ـ إيمانه بالغيبيات إيمان تسليمى دون إعمال الفكر ـ ولكن كانت توجد كثرة من المتعلمين والرافضين لهذا الفكر ـ لكن حاليًا مع كثرة المشاكل التى جعلت الإنسان يصاب بمرض عضال أو كارثة مع يأسه جعلته يلجأ إلى الخرافة فهذا ملمح جديد إلى جانب أن الكثير من الشخصيات المرموقة كفنانين ورؤساء يعتقدون فى المندل وكل هذه الخرافات دون الإعلان عن أنفسهم.

* الجميل فى الشخصية المصرية أن المصرى كان متسامحًا بطبعه ـ ففى التراث الدينى المصرى سواء المسلم أو المسيحى كان لايفرق بين هؤلاء وهؤلاء فكنت تذهب إلى سانت تريزا تجد مسلمين وتذهب إلى مولد تجد فيه مسيحيين عندهم إيمان بهذا الكلام.

لغة المصريين والمؤثرات المختلفة

ولا أعتقد أنه تكونت لغة دينية مصرية بالتوازى بل ثراء اللغة المصرية العامية بالتعبيرات الدينية ذات الطابع الإيمانى بدأت تقل.

ـ هناك تأثير كبير جدًا ـ اللغة الفرعونية أصلاً ـ وعلى فكرة الهيروغليفية نمط كتابة ـ فى كثير من الكلمات الفرعونية ما زالت باقية

حتى الآن - حتى أن باحثين قاموا بعمل دراسة على الأمثال الشعبية فوجدوا أن ٢٥٠ مثلاً مصريًا أصلها فرعونى من حيث المتن ومن حيث الفكرة وأيضًا من حيث صلب المثل، فمثلاً نجد مثل يقول (إن حبتك الحية اتلفع بيها) هذا مثل فرعونى لفظًا ومتنًا ومعنى - (أحبك يا سواس لكن مش زى الزندى) - مثل فرعونى نصًا.

* نستطيع أن نقول إن اللهجة المصرية أقرب ما يكون إلى اللغة العربية لكنها فيها اشتقاقات من لغات أخرى مثل كلمة) برضه.

- وتجد اللهجة العامية فيها الكثير من اللهجة الفرعونية من مفردات أو أمثال شعبية.

- ومن الغريب أن اللهجة المصرية يوجد بها العديد من التعبيرات الإيطالية رغم أن الإيطاليين لم يحتلونا، فمثلا) كاتينة - سلسلة) (بوليصة - بوليصة تأمين (خرطوش - رصاصة - (وأنا أتساءل هل يرجع ذلك إلى أن الإيطاليين والرومان جاءوا إلى مصر فى فترة من الفترات وعاشوا فى الإسكندرية.

* ونجد أيضًا أن التأثر باللغة الفارسية أكثر من اللغة التركية رغم أن الأتراك حكمونا فترة حكم المماليك حيث كان يحكم مصر مماليك من كل الجنسيات هؤلاء أثروا أيضًا بشكل واضح فى اللهجة العامية المصرية.

- سمات الشخصية المصرية

وقد وجدت أن الشخصية المصرية تتميز بسمات أساسية وهى ٦ سمات:

- الشعب المصرى ساخر.
- الشعب المصرى متدين.
- الشعب المصرى طيب وعفوى.
- الشعب المصرى عاشق للاستقرار.

ـ الشعب المصرى فنان.

ـ الشعب المصرى زكى وحكيم.

* وتتفرع عن كل سمة مجموعة من السمات الفرعية.

ـ واكتشفت أن الشخصية المصرية اختلفت اختلافًا كبيرًا خلال الـ ٣٠ سنة الماضية حيث إن الشعب المصرى لم يعد يتكلم فى الأمثال. حتى أن بعض الناس يعتبرون الأمثال يعتبرونه موضع سخرية.

ـ وتجد أن المرأة طبعًا طول عمرها هى الحاملة لمثل هذه الثقافة وهى حاملة مثل هذا التراث المثلى وربما هى التى خلقته لكن الذى يبتكر هذه الأقوال السيارة شباب ومن الممكن أن تتفرد هذه الأقوال ويظل بعضها ويصير مثلاً لو ظل الاحتياج إليه.

* حاولت أرصد التحول فى الشخصية المصرية فى القرن الماضى وأوائل القرن الحالى فأخذت ثلاثة شهور فى بحث قصير نشرته إحدى المجلات بعنوان (واقع التحول فى الشخصية المصرية من خلال صفحات الحوادث)

ـ فاكتشفت أن هناك تحول فى الشخصية المصرية الودودة الطيبة العفوية تحول إلى أنها بدأت تتسم بقدر كبير جدًا من العنف ظاهرة خطيرة، ونلاحظ أيضًا ذلك بين أفراد الأسرة الواحدة لم يعد يوجد هناك تسامح ولامودة.

ـ وتجد أيضًا أن صفحة الحوادث أصبحت مليئة بالمتسول والحرامى والمدرس والقاضى والدكتور أى أصبح من الممكن أن نقول إن حاميها حراميها ـ أى حماة القيم وحماة الأمن وحماة الحق بدءوا يمارسون الجريمة.

ـ ليس فقط صفحات الحوادث فلو تتبعنا بريد القراء فى أى جريدة سنجد كم المشاكل التى يعانى منها المجتمع المصرى والتى فيها نحن لسنا الحكومة نضايق بعضنا وهى أيضًا تعتبر سمة سيئة فى الشخصية المصرية.

- وحتى إن بعضهم يمشى بالمثل القائل (أنا ليه أريحك لما أقدر أتعبك)

* ويرجع كل هذا التغيير فى الشخصية المصرية إلى الظروف الاقتصادية التى نمر بها وأيضًا الحراك الاجتماعى الذى أصبح شديدًا وعنيفًا وحادًا.

مظاهر التحول فى الشخصية المصرية

- أصبحنا نجرى وراء الصراعات بشكل غير عادى حتى وصل بنا الحال فى هذه الهجمة أن ينجح الإعلام والإعلان فى ترويج سلعة إلى أن تصبح شيئًا أساسيًا فى حياتهم فنجد الموبايل مثلاً شيئًا أساسيًا فى حياتهم وأصبح يوجد ما يشبه الهلع الاتصالى - الناس ماشية فى الشارع تكلم نفسها وتكلم بعضها بينما أنا أرفض هذه المسألة.

- معظم الناس يستخدمون الموبايل استخدامًا خاطئًا فقليل من يستخدمه الاستخدام الصحيح، فمثلاً مهندس يدير موقع.

- لكن نجح الإعلان فى أن يقول المحمول فى يد الجميع وابتدى بعض الناس يحس أنه جزء من الوجاهة الاجتماعية، وذلك لأننا نأخذ من الأمر قشوره حيث تعتبر هذه الظاهرة من الظواهر الغريبة التى اكتسبناها من الغزو ونقلدها عميانى دون أن ننظر لمساوئها.

- وأيضًا ظاهرة الأكل خارج المنزل والوجبات السريعة) تيك آواى (أيضًا لم يعد يوجد المعنى البسيط (أكلنا عيش وملح سوى)

- أيضا ظاهرة مشاهدة التليفزيون أكثر من الود والألفة بين الأقارب والحميمية - وأيضًا إدمان الكمبيوتر والإنترنت ويوجد من يستخدمها استخدامًا خاطئًا ولايضيف لهم منفعة، ويجب ألا نضيف ذلك المفهوم الخاطئ لهوايتنا وتركيبتنا وشخصيتنا.

* * *

المكون الاجتماعى

طـه محمد*

السمات العامة وأساليب التكيف

تعتبر أساليب التكيف مع الفقر أحد المكونات الرئيسية لثقافة الفقراء لما لها من تأثير على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للفقراء، ولما لها من أساليب إبداعية أنتجها الفقراء من واقع ظروفهم للتوافق مع أوضاعهم الاقتصادية ومايشعرون به من حاجة دائمة، وتطلعات مستمرة ورغبة فى التمثل بالطبقات العليا فى نفس الوقت مع ضيق ذات اليد، وحالة الفقر النسبى التى يعيشونها.

ومن أساليب التكيف اللاشعورية والتى يلجأ إليها قاطنى المجتمعات الفقيرة الزيادة السكانية، والتى تزداد بصورة رهيبة لا تتناسب مع مواردهم المتاحة، وهذه الزيادة تسير بسرعة مذهلة لدرجة يمكن معها القول إن الفقراء يستثمرون أطفالهم كما يستثمر الأغنياء أموالهم وأملاكهم، فيلجأ الفقراء إلى زيادة النسل، ليس نتيجة الجهل بمصالحهم، ولكن نتيجة عجزهم وبؤسهم فبعض شرائح العائلات الريفية تعتمد فى بقائها على ما يكتسبه الأطفال من دخل يضاف للعائلة، وهى وسيلة مهمة للتكيف والتى اصطلح على تسميتها (بعمالة الأطفال) ومن ناحية أخرى،

ونظرًا لعدم توافر الأغذية والخدمات الصحية يدرك الآباء أن أطفالهم سيموتون غالبًا فيلجئون إلى إنجاب المزيد من الأطفال ليضمنوا تعويض الفاقد من الأطفال والذى يشكل لديهم قوة أساسية.

وليس من الصعب علينا الكشف عن تأثير الفقر وأثره على محاولات تكيف الفقراء مع ظروفهم السكنية والبيئية فالفقراء يتصرفون إزاء ظروفهم السكنية بطريقة لاتخلو من إبداع ورشد ومواءمة، فنلاحظ أنهم غالباً مايحرصون على تطوير مساكنهم وتدعيمها بتشييد جدران خارجية، وحجرات إضافية، وسقوف أكثر صلابة، وربما طوابق أعلى، وذلك داخل المناطق العشوائية، ومن أبرز سمات ثقافة الفقراء تلك الأساليب التى يتبعها الأسر المصرية الفقيرة فى التكيف لمواجهة الفقر، ومن ذلك:

تتعايش هذه الفئة ـ الفقراء ـ بطريقة أو بأخرى مع غير الفقراء فى المجتمع مستكينة ومستسلمة لقدرها، فالفقر يخلق الحرمان والمهان، ثم عدم الرضا والقلق والغضب والذى قد يصل إلى حد التهيج ثم الثورة، فإذا ما وئدت هذه الثورة بشكل أو بآخر، كان الخوف والاستسلام والاستكانة واليأس والإحباط وكلها سمات تقف حائلا ضد ممارسة الإنسان لحياته بحرية.

الفقر لايولد إلا الفقر عادة، وأسوأ مافى هذا الفقر هو مصادرته للطموح، أى أن الفقراء بعكس مايظن الكثيرون تتحدد فرصهم فى النجاح لفقرهم، إما لأنهم فقراء أو لأن طموحهم قد تحدد لكونهم فقراء.

صحيح أن هناك بعض الحالات والأمثلة التى تشير إلى عكس ذلك، ولكنها تمثل نسبة محدودة جدًا من المواطنين بعكس الوضع عند الفئات متوسطة الدخول والفنية.

وفى المجتمعات الفقيرة يتم تبادل الخدمات باستمرار بين أفراد الأسر الفقيرة وبعضها، فتركن المرأة إلى جارتها لحماية أطفالها دون إعلان مسبق، وتستعير، منها بعض قطع الأثاث البسيطة فى حالة وجود ضيوف

وكذلك بعض الأدوات المنزلية كالأطباق والأكواب، وقد تسألها بعض الأطعمة أو اللحوم لتستر بها بيتها أمام الضيوف، كما يقول العامة.

كما قد تقترض الفتيات الحلى من بعضهن البعض، وكذلك الملابس، كما يشيع تبادل الأطعمة تحت اسم هدايا خاصة فى المناسبات مثل شهر رمضان أو العيدين، ويوم عاشوراء ويوم المولد النبوى وغيرها من الأعياد.

وقد يتفق الجيران على تنظيم جمعية (للحصول على مبلغ من المال بطريقة دورية، وقد يصل الأمر إلى تبادل الخدمات الصغيرة)، قدر من الملح ـ فص ثوم ـ بصلة ـ كوب سكر ـ كوب زيت ـ بعض الشاى (هذا التبادل المستمر ركن مهم من أركان الثقافة الحياتية للفقراء فى مجتمعاتهم، يستمدون منها جزءاً كبيراً من أمنهم الغذائى).

وهذا يجعلنا نتحدث عن تغذية الفقراء، الفقراء لديهم الأطعمة التى أصبحت رمزاً من رموز الثقافة الشعبية المصرية ومن هذه الأطعمة الفول والطعمية ـ الكشرى ـ العدس ـ البصارة ـ الكشك.

وقد أبدع المصريون فى تنويع الفول حتى قدموا منها نماذج توضح مدى إبداع المصرى فى تكيفه مع الفقر، فجعلوا منه أصنافاً وأطباقاً متعددة حتى يستيسغوا هضمه ولايملوا طعمه ومن ذلك:

الفول بالزيت الحلو، الفول بالزيت الحار، الفول بزيت الزيتون، الفول بالطحينة، الفول بالسمن البلدى، الفول بالبيض، الفول باللحم المفروم، الفول المطبوخ بالطماطم، الفول النابت، الطعمية وغيرها من الأصناف المختلفة للفول.

ويلاحظ أن طعمية الفقراء تمتاز برخص ثمنها التى تتوافق مع ظروفهم الاقتصادية، كما تمتاز باحتوائها على نسبة عالية من البروتينات النباتية وذلك لعدم أستطاعة الفقراء تناول البروتينات الحيوانية مثل اللحوم والألبان والأسماك لغلو ثمنها كما يلاحظ أن ثقافة الفول والطعمية والكشرى وحمص الشام قد انتشرت بين الطبقات الغنية كما

هى موجودة لدى الفقراء مما يوضح مدى تغلغل ثقافة الفقراء داخل المجتمع المصرى بغض النظر عن المستوى الاقتصادى للفرد.

وفيما يتعلق بتغذية الفقراء نلاحظ أن الطعام لديهم يرتبط بالكم لا بالكيف، وذلك لأن كل مايهم المواطن البسيط هو أن يملأ بطنه بغض النظر عن نوعية الطعام الذى يتناوله وجودته ونظافته، ولكن المهم فى الأمر هو سعر تلك الوجبة الغذائية، ولذلك لايجد العامة أى غضاضة فى الوقوف على قارعة الطريق لتناول طبق من الكشرى لدى أحد الباعة الجائلين الذى يغسل الأطباق فى جردل متسخ ولايراعى أبسط قواعد النظافة والصحة، وكذلك يتهافت العامة على عربة الفول والطعمية من على البائع يكتب شعارًا أعلى العربة) إن خلص الفول أنا مش مسئول (وكذلك بائع الكبدة والذى دائمًا مايكتب على الفاترينة (كلوا من طيبات مارزقناكم)

إذًا لايهم بالنسبة للفقراء مدى نظافة الطعام أو جودته ولايهم أى الأمراض قد يسببها تناول أطعمة الشوارع ولايهم مظهر البائع ومدى نظافته، ولكن المهم هو سعر الوجبة وتكلفتها، ويرجع ذلك إلى العامل الاقتصادى من ناحية وإلى غياب الوعى من ناحية أخرى.

كما يرتبط بتغذية الفقراء نوعية المشروبات التى يتناولونها، فالمشروبات الشائعة لدى عامة المصريين هى الشاى والحلبة والسحلب والقهوة واليسون، والعرقسوس، والتمر هندى والسوبيا وعصير القصب، وطبعا هذه كلها تباع لدى الباعة الجائلين أو فى المقاهى مما يتسبب فى انتشار الأمراض المعدية بين المترددين على هؤلاء الباعة.

ونتج عن هذا وجود مجموعة من الأمراض عرفت لدى الأطباء بأنها (أمراض الفقراء) ومنها مجموعة الأمراض المرتبطة بتناول أطعمة الشوارع مثل القولون وقرحة المعدة وتلوث الأمعاء والالتهاب الكبدى وبعض الأمراض الفيروسية وكذلك مجموعة الأمراض المرتبطة بسوء التغذية، وذلك نتيجة لتناول الفقراء نوعية معينة من الأطعمة لايغيرونها إلا نادراً،

وفى نفس الوقت عدم تناولهم الأطعمة الغنية بالبروتينات الحيوانية كاللحوم والأسماك ومنتجات الألبان والفاكهة.

مما يترتب عليه نقص بالغ لدى الفقراء فى بعض البروتينات والفيتامينات اللازمة لبناء الجسم والمحافظة على سلامته.

- وتؤدى زيادة الكثافة السكانية فى الأحياء العشوائية والتزاحم داخل الحجرة الواحدة إلى التقارب بين المساكن والأكواخ والحجرات، وضيق مساحاتها، ويؤدى هذا بالتالى إلى زيادة فى التفاعل والاحتكاك، ويساهم فى هذا ضيق المساكن الذى يدفع بالأسر إلى استخدام مناطق مشتركة ومتداخلة أمام وبجوار مساكنهم، فتقول الخلافات حول تلك المناطق المشتركة ومتداخلة أمام وبجوار مساكنهم، فتقوم الخلافات حول تلك المناطق المشتركة التى تم احتلالها، كل هذا يخلق جواً خانقاً يفضى إلى القلق وبالتوتر وزيادة فى معدلات المعارك، وخاصة بين الأطفال والنساء، وتزداد هذه المشكلة عندما تكون هناك خدمات مركزية يؤمها الجميع مثل وجود جمعية استهلاكية عامة، أو طلمبة مياه، أو دورات مياه، أو مغاسل عمومية - ويصاحب هذا الفقر دائما مشكلات أخرى مثل الجهل والمرض وانخفاض مستوى المعيشة مما يجعل من ممارسة الفرد لحياته بحرية وإن كان يخلق تحدياً يساهم فى إبداع الفقراء لنمط مختلف من التكيف مع الموارد.

ومن النماذج المهمة فى دراسة ثقافة الفقراء نموذج ثقافة الحارة، أى البيئة الحضرية للفقر، وهو مناخ له العديد من المفاهيم والمصطلحات التى تكونت بفعل التعايش مع البيئة، ومن أمثلة هذه المفاهيم مفهوم (الجدعنة)، ومفهوم (الفتونة)، ومفهوم (المرجلة والشهامة) و(الدفاع عن بنات الحتة)، ومفهوم الشرف والتباهى بالقوة العضلية.

وقد تفرز هذه الثقافة نموذجًا لشخصية يغلب عليها الادعاء فى تصرفاتها ادعاء الحكمة وعلو الهمة، وهذه التصرفات السيكوباتية تعرف فى العرف الثقافى والاجتماعى لدى المصريين بأنها (الشخصية

المدردحة)، والشخص المدردح هو الذى يستطيع أن يتصرف بفهلوة وذكاء، والفهلوى فى التراث الشعبى لدى المصريين هو الذى يستطيع أن يخالط الجن الأحمر، ويعايش فى نفس الوقت ملائكة السماء والأرض دون أن يجد فى ذلك غضاضة أو دون أن يتطلب هذا منه جهداً جهيدًا.

ويتميز الشخص المدردح الذى يشعر بالرضا المزيف بقدرته على التكيف السريع مع الوسط أو البيئة التى يتواجد بها اعتماداً على مرونته وفطنته وقابليته للهضم والتمثل للجديد، فتراه عليماً بكل شيئًا هكذا كما يدعى ومسايراً للأمور بسطحية لكى يغطى الموقف، ولايرتبط ارتباطاً حقيقياً بما يقوله أو بما يلتزم به من تصرفات كان قد أخذ على نفسه عهداً بتنفيذها، وهذه الشخصية التى يميل إليها الآن معظم الشباب لاتتحمل المسئولية، ومن هنا واعتماداً على الثقة على أصالة أو قدرات حقيقية، فإننا نجدها تعامل الأمور باستهتار، وتتهكم على الغير أحياناً وتدعى القدرة البارعة على حل الأمور فوراً، وكذلك القدرة على التخلص من المأزق، كما تخرج الشعرة من العجين والغريب فى أمر هذه الشخصية المدردحة أنها تنال إعجاب الكثيرين، بل وهناك من يضرب بها المثل عندما تظهر المشكلة التى تحتاج إلى حل رزين وفكر واع بحيث لايقوى عليها هذا المدردح، ولكنهم لفرط إعجابهم بسرعته وحيله المزيفة يتذكرونه فى كل المواقف وهم فى حسرة إذا صعب الحصول عليه، أو فى لهفة التشوق إلى سماع رأيه السديد عندما يأتى ومعه الحلول الواهية المعتمدة على المسكنات الموضوعية فى شكل التزييف والوصولية.

وإذا انتقلنا إلى جانب آخر فى المكونات الثقافية وأنماط التفكير لدى تلك الشريحة من المجتمع، سنجد أنها غالبا ما تقيس الوضع الاجتماعى للفرد بالبعد الاقتصادى وكمية الدخل ونوع العمل الذى يعمله،) ولانقصد بطبيعة الحال نوع العمل من الناحية الفكرية أو المعنوية، ولكن المقصود طبيعة العمل من ربح ودخل وفير (ولذلك نلاحظ أن كثيرين من الشباب الذين تخرجوا من الجامعات قد تركوا مهنهم لقلة الدخول المادية، وبدءوا

يزاولون أنشطة ومهنا أخرى تدر عليهم مبالغ كبيرة مثل العمل فى الفنادق أو التجارة أو السفر إلى الخارج للعمل فى أى عمل ليس له علاقة بمؤهلاتهم.

وبطبيعة الحال فإن هذا الاتجاه الذى بدأ ينتشر عند البعض قد عمل عمله فى تصدع القيم وانهيار المثل، وأصبح كل فرد من هؤلاء محبى المال عليه أن يصارع ويكافح ويجمع فى الأموال حتى ولو على حساب كرامته وصحته لأنه يخاف الفقر، ويخاف أن تقل الأموال مهما زادت، وتضيع فى زحمة هذه الهواجس والانفعالات كل بوادر القناعة وأمارات الرضا.

ويلاحظ أنه من السمات الأساسية لثقافة الحارة قيام معارك كلامية أو بدنية بين سكان تلك البيئة، وقد اتضح لهؤلاء أن تدخل الشرطة فى مثل هذه المواقف لايؤدى إلا إلى تجريح وضرب الأطراف المختلفة دون التعرف على أساس المشكلة أو صاحب الحق، أى أن نقطة الشرطة فى رأى هؤلاء تحاول دائماً التخلص من المشاكل عن طريق تأديب كل من يقترب منهم.

كما أن بعض سكان الحارة والمناطق العشوائية يكونون من أرباب السوابق، والهاربين، ويجرهم أى تعامل مع الشرطة إلى تفتيح قضايا سابقة هم فى غنى عنها.

وعلى هذا فإن ثقافة الفقر تفرض على أفراد مجتمع الحارة والعشوائيات موقفاً خاصاً من الحياة، هو موقف الحذر، والقلق، والتشكك وعدم الأمان من الماضى والحاضر والمستقبل.

ومن هنا فإن المجتمع الفقير - بظروفه الصعبة - يمجد قيم المداهنة مكان الشجاعة، والمواربة مكان الصراحة، والتحيز مكان العدالة والتشكك مكان الثقة، والفهلوة مكان الجدية.

وانعكس هذا على الأسرة الفقيرة، لا من حيث الإمكانيات فحسب ولكن من حيث الاتجاهات نحو الحياة، فالأسرة الفقيرة تضع فى شرايين

أطفالها اليأس والاستسلام وقيم القسوة وانتهاز الفرص والخطف والأخذ بحق وغير حق، وتمجد قيم المداهنة والمواربة والحذر والتشكك والفهلوة، وهذا كله هو تكيف الأسرة الفقيرة لما حولها، كما تتكيف مع ظروفها الصعبة.

وتختلط الحدود عند الفقراء فى موضوع الملكية، فالحدود بين الملكية الخاصة والعامة غير واضحة، فإذا تمكنوا من تحويل ملكية عامة إلى ملكية خاصة بطريقة أو بأخرى كان ذلك أفضل، أى أن الفقير يشعر بالراحة إذا تمكن من ركوب السيارة العامة دون وضع الأجرة، أو توصيل نور الكهرباء خلسة من أقرب عامود عمومى، أو التحدث فى تليفون عام بالعملة ثم استرجاع تلك العملة التى وضعها لاستعمال التليفون، أو ضم الجزء من الشارع أمام مسكنه ليصبح حرماً خاصاً به ليلعب فيه الأطفال الصغار وتمارس فيه الأمهات نشاطهن بالنهار، ويجلس فيه الرجال على دكة أو مصطبة فى المساء.

وتعتبر أساليب التكيف مع الفقر من المتغيرات التى تتغير بتغير المستوى الاقتصادى والاجتماعى، فالأساليب التى يتبعها كل نمط تختلف عن الآخر، وإن كانت هناك أساليب عامة فى الأنماط الثلاثة.

فمحاولات نمط مافى التكيف تأخذ صورة الثورة والخروج من دائرة الفقر، بينما نجد نمطاً آخر يحاول محاولات جادة للخروج فى الفقر بقدر ما يتاح له من إمكانيات مادية ثقافية وتغلب الاستكانة على محاولات النمط الثالث الذى يمثل أدنى صور الفقر.

أساليب التكيف مع الفقر الاقتصادى:-

يعتبر العالم فى سن مبكرة لأرباب الأسر هو الأسلوب السائد للتكيف بسبب النشأة الفقيرة، فالأسرة الفقيرة تدفع بأطفالها صغاراً إلى العمل المأجور، وتعد نتيجة ذلك سلاحاً ذا حدين فهى تحرم الأطفال من

طفولتهم، ولكنها فى نفس الوقت تدفع بهم إلى النضج المبكر من خلال الاعتماد على النفس منذ الصغر.

العمل فى أكثر من مهنة وهو أسلوب يلجأ إليه نسبة كبيرة من أرباب الأسر الفقيرة، وعادة ماتكون الأعمال التى يلجئون إليها أعمالا هامشية، أو أعمال خدمات وتختلف عن أعمالهم الأصلية.

وكلما اقتربت المستويات الاقتصادية إلى الانخفاض اقتربت المهن كذلك إلى الانخفاض، وإن كانت المهنة تشكل نوعًا من الوعى لبعض أرباب الأسر الفقيرة، حيث يلجئون إلى العمل الحكومى أيا كان نوعه، كنوع من الضمان والاستقرار المادى والنفسى.

● يؤدى انخفاض الدخل إلى صعوبة فى الإنفاق، وخاصة الإنفاق على ضرورات الحياة المتمثل فى طعام الفقير الذى يمثل أعلى بنود الإنفاق، فيغلب على طعام الفقراء المواد النشوية، وتناول اللحوم مرة فى الأسبوع، واختصار عدد الوجبات اليومية فى بعض الأحيان إلى وجبتين أو حتى وجبة واحدة، وينعكس ذلك على صحة الفقير، ويؤكد مقولة أن من لم يتحكم فى خبزه لايستطيع التحكم فى فكره.

● أما عن الأوضاع السكنية، فعادة مايكون السكن مستأجراً إيجاراً قديماً تدفع فيه بضعة جنيهات كإيجار شهرى وحتى من تتحسن ظروفه الاقتصادية ويستطيع الانتقال إلى مسكن آخر لايفعل إما لكى يدخر مسكنه القديم لأبنائه، وإما لتغلب ثقافة الفقر وعاداته عليه فلا يستطيع الخروج من مسكنه إلى مسكن آخر.

● أما نوع السكن وعدد حجراته فيتدرج من وحدة سكنية مستقلة إلى السكن المشترك، إلى نظام الغرفة الواحدة بمرافق مشتركة، ولعل أسوأ أنواع السكن هو ذو المرافق المشتركة التى تجعل الإنسان دائم الشعور بالحرج، مفتقد الإنسانية فى كثير من المواقف، ويؤدى به الأمر إلى قضاء احتياجاته داخل السكن) الغرفة الواحدة (مما ينعكس عليه صحياً

ونفسياً، وإن كان بمرور الوقت يتكيف هؤلاء التعساء مع أوضاعهم، ويقبلونها لعدم وجود البديل.

• وتعتبر الهجرة الخارجية أحدى الأساليب التى يلجأ إليها الفقراء للتكيف الاقتصادى، وقد يحدث أن تهاجر الزوجة تاركة زوجها وأولادها صغاراً من أجل العلم، وتوفير الاحتياجات المادية، وفى ظروف أخرى قد يؤدى ذلك إلى انهيار أسرى، وفى بعض الحالات التى لم تهاجر للخارج يكون عدم توافر نفقات السفر هو العائق.

• كما تلعب مساعدات الأبناء دوراً لايمكن إغفاله خاصة فى الحالات كبيرة السن، وتتراوح المساعدات ارتفاعاً وانخفاضاً حسب تعليم وعمل الأبناء الذى يؤثر بالتالى على دخولهم، وبجانب مساعدات الأبناء تلعب المساعدات الخارجية دوراً فى التكيف الاقتصادى، وبعض الفقراء يقبلون المساعدات الخارجية غير المتمثلة فى النقود لأن المساعدات النقدية تسبب لهم حرجًا شديدًا وجرحًا لكرامتهم وكبريائهم، ولكن هناك حالات أشد فقراً تقبل المساعدات الخارجية المتمثلة فى نقود تأتيهم من الزكاة والمساعدات الرسمية من الدولة والشئون الاجتماعية، وغير الرسمية متمثلة فى مساعدات الجيران وذوى الكرم أو الحصول على مبالغ منتظمة من الجمعيات الأهلية التى تساعد الفقراء والمحتاجين، هذا بجانب الحصول على معاش السادات.

• وللمرأة دور واضح فى التكيف الاقتصادى سواء أكانت عاملة أم ربة بيت، فقد تكون المرأة عاملة وتسهم بداخلها فى نفقات المنزل، أو تكون غير عاملة فتلجأ إلى وسائل أخرى فى التكيف كالعمل فى الخياطة أو البقالة (الدلالة)، أو مساعدة زوجها من خلال إرث (عقار) يوفر بند إيجار المنزل، أو محل تجارى يساعد فى زيادة الدخل.

• ويتم تبادل الخدمات والاحتياجات كإحدى وسائل التكيف وتسود بدرجات مختلفة، حيث يتم تبادل الأطعمة كنوع من المباهاة أحياناً،

كاحتياج فى أحيان أخرى، وبجانب الأطعمة يتم تبادل الملابس والحلى، فتلجأ النساء إلى اقتراض الملابس والذهب من جارتها فى المناسبات، ويتبادلن الخدمات فى رعاية الأطفال الصغار فى حالة الخروج، كما تتبادل الأشياء الصغيرة مثل (الملح والشاى والسكر وبعض الأدوات المنزلية) وبعض الأشياء غير قابلة للرد فى معظم الأحيان، فهى متبادلة باستمرار.

● ويعتبر الاقتراض والشراء بنظام التقسيط من الوسائل التى يلجأ إليها أرباب الأسر للتكيف الاقتصادى، فمعظم الأسر تلجأ إلى الاستدانة سواء من الأصدقاء، أو الأهل، كما أن الشراء بنظام التقسيط يحل كثيرا من الأزمات الاقتصادية، حيث تلجأ بعض الأسر إلى شراء احتياجات ـ تعد أساسية ـ بالتقسيط ولولا هذا مااستطاعت توفيرها (مثل كليم الأرض، وبعض الأجهزة الكهربائية كالخلاط والغسالة وبعض الأثاث)

● الجمعيات المالية الشهرية كوسيلة من أهم الوسائل التى تلجأ إليها معظم الأسر فى التكيف الاقتصادى، وعادة ماتضع فيها مبالغ كبيرة لتحصل على عائد كبير يكون مدخراً لديها، وفى حالة عدم توافر المال لسداد، قسط الجمعية الشهرى تسدد من المدخر، وبالإضافة لكونها وسيلة تكيف فهى تشكل مصدراً للأمان فيما توفره من مبالغ يعتمد عليها فى قضاء الاحتياجات أو تحسين ظروف المعيشة، والحالات الفقيرة جداً لاتلجأ إلى نظام الجمعيات لعدم توافر المال المنتظم.

أساليب التكيف مع الفقر الثقافى:

الطبيعى أن تسود الأمية فى الأوساط الفقيرة والأشد فقراً، إلا أن الفقراء كان لديهم العديد من الوسائل التى حاولوا بها الخروج من الفقر الثقافى أو التكيف معه ومنها:

● لجأت بعض الشرائح إلى الإصرار على التعليم وعدم الاكتفاء بمراحله الأولى فحصل هؤلاء المكافحون على شهادات متوسطة أثناء

العمل فى مهن بسيطة تدر دخلا ضئيلا، وحاول آخرون ممن لم يستطيعوا دخول المدارس أن يعلموا أنفسهم بأنفسهم، وهناك من الفقراء من لديه حرص شديد على تعليم أولاده مع نفس الحرص على متابعتهم دراسيا، وهناك من لايهتم باستمرار أبنائه فى التعليم إلا من يرغب منهم فما ذلك:

● ويلاحظ انتشار نمط التعليم المتوسط (الثانوى الفنى الصناعى أو التجارى، أو التدريب المهنى أو الزراعى) بين الفئات الفقيرة فى المجتمع، وهذا يرجع إلى اختصار وقت التعليم من أجل العمل سريعاً والحصول على العائد المادى من ناحية ولعدم قدرتهم المالية على نفقات التعليم العالى من ناحية أخرى.

● ولجأ آخرون إلى الارتقاء بمهنهم عن مهنة الآباء لتمثل ارتقاء ثقافياً وقد كانت حالات النمط الأول كلها دليلا على ذلك، وفى محاولات التكيف والارتقاء لجأ البعض إلى العمل الحكومى كمسمى وظيفى لحراك مهنى، وإن استمر العمل فى الخدمات والأعمال الهامشية مقصوراً على الفئة الأشد فقرًا.

● لجأ بعض أرباب الأسر الفقيرة إلى الزواج المبكر لأن تكاليفه لاتشكل عبئاً مادياً فى ظل توافر المسكن، وقد كان للجيرة والقرابة دور، ويعكس هذا سمة ثقافية على أساس أن الاختيار للزواج يتم من خلال معرفة سابقة، وتظهر هنا نتيجة غريبة هى أن الفقراء أكثر إقبالا على الزواج من غيرهم فالزواج يؤدى وظيفة مهمة للفقير إلى جانب أنه يجد فى الزوجة معيناً له، فهى ترعى أسرته وتساعده فى بعض أعماله ولو بصورة غير واضحة.

● وقد أصبح التعليم شرطاً أساسياً فى من يتقدم لزواج الابنة أو فى الزوجة التى يقعها عليها اختيار الابن.

● الملابس كمظهر ثقافى: توجد عدة وسائل للتكيف معه، فالذين هاجروا إلى الخارج أحضروا معهم كميات كبيرة من الأقمشة ويخزنونها

للحاجة أو للتبرك بها خاصة إذا كانت فى الأراضى الحجازية، أما الذين لم يهاجروا للخارج كانوا يشترون الأقمشة الرخيصة الصيفية أو الشتوية وتخزينها فى المنزل وفى حالة الاحتياج تكون موجودة كما شكل الشراء فى الكساء الشعبى الحكومى وسيلة من الوسائل، وكذلك القطاع العام ـ ومن الوسائل الأخرى شراء الملابس بالتقسيط أو شرائها من الدلالات أو من أسواق الكانتو أو الأسواق الشعبية والتى تباع فيها الملابس القديمة أو من بائع الروبابيكيا، أو الحصول على الملابس المستعملة أو فى غير حاجة إليها، أو من خلال عمل ربة الأسرة كخياطة (تجمع بعض القماش المتبقى لديها لتصنع منه ملابس لأولادها الصغار، ومن الوسائل الأخرى للحصول على الملابس خاصة فى النمط الفقير والأشد فقراً حصول بعض الأسر على الأقمشة أو الملابس من خلال المساعدات غير الرسمية من أهل الخير أو من الجمعيات الخيرية والمبرات.

● ومن الأساليب التى لجأ إليها الفقراء للتكيف مع المستوى الصحى عدة وسائل بدءًا من الأطباء ذوى الأجر المنخفض، وهؤلاء يلجأ إليهم من لديهم دخل مالى يسمح لهم بذلك، إلا أنه يوجد نوع آخر من الرعاية الصحية الخاصة منخفضة التكاليف والمنتشرة فى المناطق الشعبية وهى المستوصفات، والمستوصف عبارة عن حجرة فى أسفل منزل أو شقة صغيرة، غالباً مايكون القائم بالعمل فيها ممرضة كبيرة فى السن (حكيم) أو (تمرجى) ويقتصر عمل المستوصف على علاج الجروح السطحية أو القطعية، أو أعضاء مصل عن طريق الحقن، أو لف ضمادات أو تغيير على جرح، وقد يتطور الأمر بوجود طبيب صغير السن فيمارس كل أنواع التخصصات الطبية وربما دون دراية منه أو خبرة، ورغم ذلك تسير الأمور اعتمادا على أن هؤلاء البسطاء ليس فى مقدورهم الذهاب إلى عيادة طبيب متخصص.

● كما ينتشر فى الأحياء الشعبية العيادات الصحية التابعة أو الملحقة بالمساجد والكنائس، وهذه تقدم خدمة طبية منخفضة التكاليف، ولكنها

تشهد ازدحاماً شديداً من المرضى البسطاء، وفى نفس الوقت تبدأ عملها متأخراً نظراً لأن الطبيب ليس متفرغاً للعمل بعيادة المسجد أو الكنسية.

كما توجد عيادات ومستشفيات التأمين الصحى، وهذه غير متاحة لغير المؤمن عليه، ولذلك فيقتصر زائريها على موظفى الحكومة والقطاع العام، ورغم ذلك فهى لاتقدم لهم خدمة طبية جيدة وإنما يضطر المتعاملون معها إلى قبول سلبياتها لعدم وجود البديل وينطبق الأمر ذاته على المستشفيات العامة من حيث رداءة الخدمة الصحية المقدمة وتدنيها، ويضطر الفقراء فى الأقاليم إلى الارتحال إلى (مصر) القاهرة ـ لتوافر التخصصات الطبية الدقيقة بها من ناحية ولعدم استطاعتهم دفع تكاليف العلاج فى المستشفيات أو العيادات الخاصة بالأقاليم.

وفى القاهرة يتواجد الكثيرون من فقراء الأقاليم والعاصمة على مستشفى قصر العينى وباقى المستشفيات العامة حتى لتجديدات المرضى ونظراً لعدم وجود أماكن خالية يفترشون الأرض فى طرقات المستشفى.

وهنا يظهر أحد الأساليب الثقافية لدى الفقراء للتعامل مع واقعهم فالتمرجى بالمستشفى العام يمكنه توفير سرير نظيف ومكان جيد للمريض الذى يدفع الثمن أو المقابل وكذلك المعاملة الحسنة لها ثمن وتوفير أغطية الفراش والمستلزمات الطبية للمريض أو كرسى يجلس عليه المرافق له أو السماح للمرافق للمريض بالبيات معه بالمستشفى كل ذلك يمكن توفيره إذا تراضى الطرفان على المقابل المادى المناسب الذى يحصل عليه التمرجى.

ويدخل العاملون فى الأمن بالمستشفى فى هذه الوليمة لينالوا نصيبهم فلا يسمحون لأقارب المرضى بدخول المستشفى أو البقاء فيها بعد مواعيد الزيارة أو قبلها إلا إذا حصلوا على المقابل، وهكذا فكل الخدمات التى يمكن أن تحصل عليها داخل المستشفى العام هى نظير خدمات مجانية وواقعياً خدمات مدفوعة الأجر وقد يلجأ الفقراء والبسطاء اعتمادا على موروثاتهم الثقافية إلى الطب الشعبى والذى يرتبط بالخبرات التى

تواراثاها عبر الأجيال ورغم تراجعه وتراجع الاعتماد عليه مع انتشار العلاج الحديث إلا أنه عاد وازدهر وانتشر العلاج به وذلك لأن غلاء الأدوية الكيماوية، وارتفاع أسعار تذكرة زيارة الطبيب فى العيادة الخاصة جعل الطب التقليدى خارج متناول أيدى الكثيرين الأمر الذى جعل فئات مختلفة داخل المجتمع المصرى تلجأ إلى الطب الشعبى واستعمال الوصفات الشخصية فى العلاج.

وتعتبر الأعشاب الطبية أشهر أنواع العلاجات الشعبية التى يلجأ إليها الفقراء والبسطاء والعامة نظراً لسهولة تداولها فهى متوافرة لدى العطارين والعشابين المنتشرين فى المناطق والأحياء الشعبية والراقية على السواء وكذلك لرخص ثمنها، وارتباطها بالطقوس الدينية منذ عصور مصر القديمة مروراً بمراحل تاريخنا المختلفة، وحتى فى التراث الإسلامى حيث اشتهر نوع من الطب عرف بالطب النبوى، نظراً لاعتماد النبى ﷺ على الأعشاب والعسل فى العلاجات والوصفات الطبية.

كما يلجأ العطارون والعشابون لعلاج مرضاهم والمترددين عليهم طلباً للعلاج من أمراض مختلفة يلجئون إلى وصفات تم تجريبها منذ مئات وآلاف السنين توارثونها عبر الأجيال كما توجد بعض الكتب التى ألفت قديماً فى التداوى بالأعشاب يرجعون إليها مثل كتاب تذكرة داود الأنطاكى، وكتاب الزهراوى، وابن سينا وغيرهم كما يعتمدون على وصفات شعبية بسيطة لعلاج العديد من الأمراض فمثلاً يستخدمون قطعة من الصوف مع بعض الدهانات لعلاج التواء العظام أو يستخدمون مجموعة من أوراق الصحف المدهونة بالكيروسين والتى يتم وضعها على الصدر وربطها بإحكام من الليل حتى الصباح لعلاج البرد فى صدر المريض أو علاج الروماتيزم بين الفقراء والعامة الصفد والحجامة وهى استخراج الدم الفاسد من أى عضو أو جزء فى جسم المريض بواسطة استخدام كأس زجاجى توضع فوهته وداخلة قطعة قطن أو قماش ـ على المكان الذى يوجد به دم فاسد فى الجسم وبحيث يتم اشتعال قطعة القطن

داخل الكأس قبل وضعه على الجسم، فيتجمد الجلد ويتورم وهذا يعنى وجود دم فاسد أسفله فيتم إزالته باستخدام إبرة أو موسى لتشريط مكان الحجامة ثم يوضع الكأس عليها ويتم الضغط به فيتجمع الدم الفاسد ثم يتم إزالته.

ويرتبط العلاج بالحجامة بالمعتقدات الشعبية فيقول المعالجون بالحجامة إن هناك أيامًا دون غيرها يفضل فيها عمل الحجامة وهى أيام ١٧، ١٩، ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٢٩ من كل شهر عربى وذلك لأن ظاهرة المد والجزر المرتبطة بجاذبية القمر تؤثر على جسم الإنسان وهذه الأيام سابقة الذكر تكون فيها هذه الظاهرة واضحة وتساهم فى ظهور الأمراض والعلل الموجودة داخل جسم الإنسان على جسمه وهذا يسهل من عملية سحبها، وطردها من الجسم بالحجامة.

ويكون السبب فى لجوء العامة إلى الطب الشعبى هو افتقاد الأماكن الشعبية إلى دور الرعاية الصحية وعدم وجود مستشفيات للعلاج بها ولذلك فسكان هذه المناطق يلجئون إلى خبرة كبير الحجامة أو الشيوخ والعجائز الذين يتوارثون خبراتهم فى العلاج بالأعشاب والمياه المعدنية والجوفية، والكى، والتدليك والصفد والحجامة والوصفات الشعبية الأخرى.

ويرتبط بنوعية العلاجات المتاحة للفقراء نوعية الأمراض التى تصيب الفقراء فى العشوائيات والمناطق الشعبية، فنوعية الأمراض التى تحتاج قاطنى هذه المناطق تعتبر أمراضًا خاصة لاتتواجد بين سكان الأحياء الشعبية القديمة، وقد ارتبطت هذه الأمراض بتلك الأماكن نظراً للعديد من العوامل منها ضيق الشوارع وعدم وجود تناسب بين عرض الشوارع والحوارى والأزقة وبين ارتفاعات المبانى مما يؤدى إلى عدم دخول الشمس إلى هذه المساكن وعدم توافر الهواء النقى مع وجود روائح كريهة تبعث من الجدران الرطبة والأرضيات المثقلة بأنواع الملوثات وعدم توافر الإضاءة الذى يؤثر على إبصار ساكنى هذه المناطق وبصفة عامة عدم توافر

الشروط الصحية وانعكاسها على البيئة بشكل ضار للغاية... هذا بالإضافة إلى أن سياسة تنظيم النسل أو تحديد عدد أفراد الأسرة غائبة تماماً فى وقت تنعدم فيه الخدمات وتختفى المرافق من شبكات صرف صحى وحتى إن وجدت تكون حالتها سيئة للغاية فالشوارع والحوارى غارقة بمياه المجارى وماينبعث عنها روائح كريهة وتلوث مياه الشرب، وهى مكان خصب للبعوض وأمراض التسمم الغذائى والالتهاب السحائى والأمراض المعوية والمتوطنة، كالإصابة بالديدان المختلفة وعلى رأسها البلهارسيا والإسكارس والإنكلستوما والديدان المعوية المختلفة وغيرها من الأمراض وتأثير ذلك على اللياقة الصحيحة لسكان هذه المناطق وبالتالى التأثير على المستوى البيئى بشكل عام.

فمثلاً يعيش منطقة منشية ناصر منطقة عشوائية تحد حى مدينة نصر من جهة الغرب، يعيش فيها مايقرب من نصف مليون نسمة أكثرهم لايحصلون على الخدمات بينما يعيش بعزبة الهجانة نحو ١٧٥٠ نسمة يتزايدون بطريقة سريعة، ويحتل الغرفة الواحدة من ٥ إلى ٧ أفراد فتجد الطفيليات والميكروبات والفطريات بينهم بيئة خصبة تقوى وتتكاثر فيها وتنمو لتخرج منها أمراض غاية فى الشراسة ويزيد الأمر سوءاً إن هذه المناطق تغيب عنها الوحدات الصحية.

وتساهم قلة النظافة ونقص الوعى وكذلك غياب المياه النقية والنظيفة إلى انتشار العديد من الأمراض الجلدية فى تلك المناطق وعلى رأسها مرض الجرب والأكزيما والجدرى المائى حيث يعتمد أكثر تلك المناطق على مياه الشرب الموجودة فى عبوات صغيرة تباع لهم بواسطة سيارات.

كما يساهم تكدس القمامة والفضلات بالشوارع والأزقة فى انتشار الزواحف والحشرات الأمر الذى ينقل لسكان تلك المناطق أمراض خطيرة مثل مرض) الليتبوسبيروزس (وأعراضه تضخم الكبد وتضخم الغدد الليمفاوية وينتهى بالفشل الكلوى المميت وهذا مايمثل خطورة بالغة على السيدات والأطفال.

كما يصاب سكان تلك المناطق بالعديد من الأمراض النفسية مثل القلق والاكتئاب نتيجة انتشار الضوضاء دون منظر جمالى أو مساحات خضراء، وهذا يؤدى إلى زيادة الميل إلى الجريمة والعنف كما يؤثر التلوث السمعى والضوضاء إلى التأثير على السلوك العصبى والقدرة على التركيز والتذكر والتعلم وسرعة الاستجابة كما يؤثر على الوظائف الذهنية للمخ.

العلاقة بالأقارب والجيران كأسلوب للتكيف :-

تتراوح هذه العلاقة بين العمق والسطحية، فهى تشتد كلما ارتفع المستوى الاقتصادى الاجتماعى، ثم تتدرج كلما قل المستوى نظراً لأن الفقير يسعى وراء قوت يومه ويكون شغله الشاغل، إلا أن بعض الفئات يكون لديها قوة العلاقات مصدراً للأمان.

وفى طبيعة العلاقات تلعب المجاملات دوراً حيث التزاور، وأداء الواجب فى المناسبات السعيدة وغير السعيدة، والمناسبات التى تستلزم أداء واجب نقدى (النقوط) مثل الأفراح أو يوم السبوع عند ميلاد أى طفل، ولكن بعض الأسر الفقيرة لاتفضل أن تلجأ إلى هذه المجالات لأن الآخذ فى البداية لابد أن يتجه إلى الرد وهى لاتستطيع الرد، فتلجأ إلى رفض هذه المجاملات.

أما استغلال وقت الفراغ كأحد رسائل التكيف الثقافى، فقد تقدمت طرق قضاء وقت الفراغ بين القراءة والسفر والرحلات وزيارة الأهل والأصدقاء وحضور الندوات الدينية وجلسات الذكر وزيارة الأضرحة، ويعتبر التليفزيون هو الوسيلة الأكثر شيوعاً لقضاء وقت الفراغ بالنسبة للفقراء بأنه مصدر الثقافة الوحيد المتاح ويليه سماع الراديو وتبادل أطراف الحديث مع الجيران.

ولوحظ غياب الممارسات السياسية عن ثقافة الفقراء فهم يتجاهلون كلمة سياسة، ولاينضم أحدهم إلى الأحزاب السياسية، ويفضلون عدم الخوض فى هذا المجال وهذا أمر طبيعى يتفق مع انعدام قدرة الفقير على التأثير فى مجريات الأمور، فإذا كانت أسرته الصغيرة، فهل يتصور

بعد ذلك أن يبالى بشئون المجتمع المحيط أو بشئون السياسة الداخلية أو الخارجية.

وهذا لايمنع من إصدار الأحكام على السلطة أو الحكام سواء فى الداخل أو الخارج طبقاً لأهمية الموضوع ودرجة سخونته فمثلاً إذا كان الأمر يتعلق بارتفاع الأسعار نجد الفقير يصيب جام غضبه على المسئولين عن ذلك، كما تساهم الإذاعة والتليفزيون فى إثارة غضب العامة تجاه بعض القضايا القومية مثل قضية العراق وفلسطين.

ولكن المنطق يقول إنه كلما ازداد شعور الفقير بضعفه وبمشاكله الضاغطة زاد اهتمامه بمشاكله الذاتية، وقل اهتمامه بالمجتمع الخارجى وبقضاياه.

كما أن مفهوم المشاركة السياسية يتضمن جانبين أحدهما معرفى يتحقق بما يدركه الفقير أو بما يصل إلى علمه أو يسعى إلى معرفته من الشئون العامة أوالسياسية، والجانب الأخر سلوكى يتمثل فى المساهمة أو الاشتراك الفعلى فى الحياة العامة وكل مايرتبط بالمصلحة الشخصية تجد الفقير على وعى به، ولذلك فعدم المشاركة فى التنظيمات السياسية والحياة العامة هو أمر يدرك الفقير أنه لا يعود عليه بالنفع، وبناء على ذلك فهؤلاء يهتمون بالمشاركة الإيجابية.

وهنا يرى أنصار الاتجاه الاقتصادى فى تفسير الفقر أنه إذا وجد ما يسمى بثقافة الفقر فيجب أن ندرك أنها ثقافة مفروضة على الفقراء تفرضها مساوئ النظام الاقتصادى الذى يسود المجتمع وذلك النظام الذى يقهر إرادة الفقير ويفرض عليه السلبية والشعور بالإحباط والضعف. ولذلك فإن أساليب التكيف مع الفقر تؤدى إلى طبع الفقراء ببعض سمات الفقر فى الأحياء الشعبية كما تؤدى زيادة الفقر إلى زيادة التكيف معه، وهذا يعنى وجود مستويات مختلفة للفقر تختلف معها مستويات التكيف، والتكيف قد يعنى أساليب مواجهة الفقر، وقد يعنى الاستسلام

والقبول والرضا والقناعة بما هو فيه الأمر الذى يجعل الفقير لايشعر بإحاطات متكررة.

الفكاهة والسخرية كمنتج ثقافى للفقراء:

حب المصرى للفكاهة وخفة روحه هما دافعه للسخرية اللاذعة والتهكم حتى فى ساعات الجد والألم، وهو يسخر من نفسه، ومما يصيبه، وكأنه يستعلى على المحن، بأسلوب يبدو للعامة وكأنه وسيلة إضحاك، وإن انطوى على تلميحات لافعة، تسخر من الحياة ومن سلوك المجتمع، وتنتقده بشدة بهدف التأثير فى النفس بعنف، وبالطبع يسخر المصرى من ذاته أيضاً فيما يسميه نقاذ الفنون والأدب الشعبى «بالتحامق» بأسلوب المضحك المبكى.

ويبدو أنه توجد علاقة بين تعاظم موجات السخرية والنكات لدى عامة الشعب وبين حلول الأزمات، فمن الملاحظ أن المصريين عادة مايلجئون إلى ابتداع النكات الساخرة فى فترات القهر والبطش التى عانوا فيها من ظلم وقسوة وجبروت بعض الحكام، وهذه الفترات هى التى أنتجت التراث الشعبى للمصريين كذلك هى التى أوجدت الشخصيات الساخرة من الحكام والتى اصطنعها المصريون كيما يبعثوا فيها كل رغباتهم وأمانيهم فى التشفى ورد الصاع صاعين لحكامهم ومن تلك الشخصيات شخصية جحا، ولعل لجوء المصرى إلى هذه الحيلة بوضع مايريد قوله على لسان تلك الشخصية التراثية) جحا (يعد شكلاً من أشكال الحذر والخوف، إذ أن إطلاق النكتة الساخرة على لسانى هذه الشخصية قد أكسبها قوة، مع تجهيل لقائلها الحقيقى زيادة فى الحرص، ويبدو أن اصطناع السرور والمرح يعتبر أحد وسائل الشخصية المصرية فما التكيف مع الهموم والتصدى لها، وقد يعتقد البعض أن السخرية الدائمة والمرح المستمر والنكات التى لاتنتهى تعبر عن شخصية بعيدة عن الهموم والمتاعب والأزمان، ولكن الحقيقة إلى هذا أحد الأساليب النفسية والتى ابتدعها

المصرى البسيط دون وعى منه بأنها أحد الأساليب النفسية الناجحة فى مواجهة عوامل الإحباط والاكتئاب.

ويثبت ذلك أن المصرى البسيط الذى قد يتبادر أنه غير واع بصروف الحياة ويضحك منها، نجد أن ما يصدر عنه من سخرية فى نكته وآماله مليئاً بالحزن والشجن حتى أنه ابتدع لحالته تلك مثلاً يقول «شر البلية مايضحك» وهو بالفعل يهرب من البكاء باللجوء إلى السخرية والفكاهة. وهو بذلك ينتصر على البلاء ويستعلى على الأزمة، فالمصرى يلجأ إلى الفكاهة فى أحلك الظروف ولعل مما يثبت ذلك طوفان النكت اللذعة التى ابتدعها المصرى بعد نكسة يونيو١٩٦٧، ولعل النكتة الآن هى التى تحتل مكان الصدارة فى مجال سخرية الشعب المصرى من ظروفه حتى أطلق المصريون على أنفسهم لقب.:

«شعب ابن نكتة»، وبذلك يمكن اعتبار النكتة وبقية الأساليب الساخرة التى يلجأ إليها المصريون إنما هى وسيلة تفريغ لشحنة الكتب والقهر والحزن.

ويلاحظ أحمد أمين فى كتابة «قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية» أن أشد الناس بؤساً، وأسوأهم عيشة وأقلهم مالاً وهم أكثرهم سخرية، وهم صناع النكات على المقاهى الشعبية، وقائل النكتة بينهم محبوب مقدر.

فالألآم والخطوب والمحن إذا وصلت إلى الحد الذى لم تعد معه قابلة للاحتمال تتقلب لدى المصرى إلى سخرية وهزل، وإذا تجاوزت التراجيديا حجمها تحولت إلى كوميديا.

وتتسم السخرية المصرية بأنها تحمل فكرًا ذكيًا، ولغة متفلسفة، وخفة ظل وقدرة وكفاءة على التخيل.

وأما عن الكيفية التى يسخر بها المصرى، فإننا سنجد أنه بصفة عامة يكون لاذعاً فى اختيار ألفاظه، وفى وجه التشبيه أو الكناية، مع استخدام للرمز بشكل رائع، فهو يذكر شيئًا ليعبر عن شىء آخر تماماً.

وأما الموضوعات التى يسخر منها المصرى، فإننا نجده يسخر من الحماقة وقلة الحيلة، ومن عدم تقدير الغير له ولقدراته، ومن التطاول عليه، ومن التسيب والإهمال، ومن التكبر الكاذب والادعاء ومن الزهو الخيلاء، والاهتمام، ومن العمل غير المجدى، وهو يسخر ويشمت من هذه الأفعال ونتائجها معلنًا عن ذلك أحياناً بكثير من الاستهانة والاستعتاد التى قد تصور المصرى لأول وهلة على أنه إنسان يضرب عرض الحائط بكل القيم، ومن الأمثال التى ابتدعها لتدل على استهانته بكل شيء:

- اللى يعرف أبويا يروح يقوله، واللى كاتب كتابى يروح يحله
- ما بان منى زكاة عنى
- إسرف وصدق ياعبد الله
- ضربوا الأعور على عينه قال خسرانه خسرانه
- السجن للجدعان
- السجن للرجالة
- السكران سلطان زمانه
- المجانين فى نعيم
- خذوا الحكمة من أفواه المجانين
- إعمل ودن من طين والتانية من عجين
- طظ ياعاشور
- كله محصل بعضه
- علقة تفوت ولا حد يموت
- عمر الشقى بقى
- الرشوة حلت رحمة القاضى

ـ الدعوة الزور تفتح كيس القاضى

ـ ارشوا تشفوا

ـ حاميها حراميها

ـ مافيش على بال القرد غير سواد وشه

ـ قالوا للقردة اتبرتعى قالت دا وش واحد على الفضحة

ـ يفتى على الإبرة ويبلع الموزة.

ـ سألوا القاضى: الحيطة اتنجست، قال تنهد وتتبنى سبع مرات، قالوا دى الحيطة اللى بيننا وبينك، قال: أقل الماء يطهرها.

فهذه الأمثال الساخرة تعبر عن ما يمكن تسميته) الاستبياع (فالمستبيع هو الشخص الذى لم يعد يهمه شىء طالما الأمور «كلها محصلة بعضها «فالجنون هو السائد، والشقاوة لن تعنى العمر، والسكر سلطان «فلا تحريم للرشوة أو السرقة، أو الفضيحة، ومرحباً بالسجن طالما ساد اليأس، وشعر المرء أن من راح لن يعود، وأنها «خسرانه خسرانه»، ومن يستطع المحاسبة فليحاسب وكل هذه الأمثال الساخرة لاشك أن المصرى قالها فى أشد حالات يأسه من إصلاح الأحوال حين وجد القاضى مرتشياً، وحامى الحمى حرامى، والمفتى يغير فتواه لصالحه.

وإذا كانت بعض الأمثال تعكس لوناً من الاستهتار يتمثله المصرى يأساً أوتفكهاً مريداً من سوء أحواله، فيقوده ذلك إلى الاستهتاز بالقيم ويكملها بالاستهانة بالأشياء والأشخاص، فلا يأبه لشىء ولايبالى بأحد، ويستهين بالجميع، وقدعبر عن ذلك بالعديد من الأمثال ومنها ـ:

ـ الجنازة حارة والميت كلب

ـ الميت مش مستاهل القراية

ـ ما شىء يجى من الغرب يسر القلب

- يعنى فتح عكا؟

- جايب رأس كليب

- ياما جاب الغراب لأمه

- يعنى جاب الديب من ديله

- بعجز أغا ما فيه إلا شناب

- يعنى بضاعة والناس عليها جواعى

- لو كان فيه الخير ماكان رماه الطير

- كسبنا صلاة النبى - أى لم يربح شيئًا طالما أنه غير مادى»

ومن العبارات التى يرددها المصرى ويختزنها فى رصيده الثقافى المعبر عن بيئته وظروفه الاجتماعية والاقتصادية وحالة السخرة من واقعه وممن يعيشون معه فى هذا الواقع فرص هذه التعبيرات: -

- اخبط رأسك فى الحيط - مطرح ماتحط راسك حط رجليك

- (بله واشرب ميته)

- اللى يزعل يشرب من البحر

- هما شاربين أسلافنا

- هو أن الحيطة المايلة) أو هو أنا الحيطة الواطيه)

- وعلى من ذه بإيه أو وعلى من كده بإية

- انفلق

- أعلى مافى خيلك اركبه) للتعبير عن الاستهانة)

- أدى دقنى لو حصل) للتعبير عن اليأس)

- أقطع دراعى لو حصل

ـ إبقى تف على وشى لو حصل

ـ أبقى قابلنى لو حصل

ـ سعد باشا قال مفيش فايدة) ويضيف إليها البعض غطينى وصوتى ياصفيه ـ ويقصد صفية زغلول)

هذا وإذا كانت حالة الفقر والفاقة قد ولدت لدى المصرى نوعاً من اليأس والإحباط جعلته يتعامل مع هذه المشاعر بسخرية ولا مبالاة، فإن فقره وقلة حيلته قد جعلاه يشعر بهوانه وضآلة حجمه أمام الأثرياء والطبقات الغنية، وقد أنتج المصرى سلاحاً مضاداً لهذا الشعور بالهوان والضآلة إذ نجده أخذ يبدع الأمثال الساخرة مما لايشعرونه بأهيمته أو لايقدرونه حق قدره أو ينكرون عليه تميزه أو يشعرونه بفقره وفى ذلك نجده يقول:

ـ معنى الحب لايطرب

ـ لا كرامة لنبى فى وطنه

ـ لا كرامة لنبى بين قومه

ـ الشيخ البعيد سره باتع

ـ اللى تملكه اليد تزهده النفس

ـ زى القرع يمد لبره

ـ سكتنا له دخل بحماره

ـ كلمها تدهيك اللى فيها تجيبه فيك

ـ الحيطة الواطية ينطوا عليها الكلاب

ـ أول مايشطح ينطح

ـ خلى لك الجو

ولأن المصرى يحاول أن يثبت دائماً تفوقه وذكاءه كمحاولة نفسية تعويضية عن فقره وكسلاح لمقاومة الإحساس بصغر شأنه وعدم أهميته الناتجة عن فقره، نجده باستمرار يحاول إثبات ذكاء وسرعة بديهته، وهذا جعله ينتج كماً كبيراً من إبداعه الساخر فى مجال التندر على الحماقة والحمقى والمغفلين وقليلى الحيل ومن الأمثال التى صاغها فى ذلك ـ :

- من قل عقله تعبته رجليه
- رزق الهبل على المجانين
- الحاجة فى السوق تقول: «نينى نينى الخايب ييجى يشترينى»
- ماشفوهمش وهما بيسرقوا شافوهم وهما بيتحاسبوا
- لما تتخانق الحرامية يبان المسروق
- إذا تشاجر اللصان ظهرت الحقيقة
- دبور زن على خراب عشه
- لو جابوا للمجنون ألف عقل على عقله ميعجبوش إلا عقله (خالف تعرف) (زى الشريك المخالف)
- اشترى وجع قلبه بإيديه
- جه للموت برجليه
- أصحاب العقول فى راحة
- كانت قاعدة ومرتاحة جابت لها حاجة
- اللى يقدر يحلها بإيديه ليه يحلها بأسنانه
- إن طلع العيب من أهل العيب مايبقاش عيب) أى أن الحمقى لا لوم عليهم)
- قالوا تعرف الهايف بإيه، قال بكلامه، وتعرف الثقيل بإيه؟ قال بسؤاله

- مخه مركب شمال

- من يحبك يافتى يلبس هدوم الصيف فى الشتا

- عذر أقبح من ذنب

- يغرق فى شبر ميه

- ودنك منين ياجحا

- زاد الطين بله

- أجسام البغال وعقول العصافير

- قلة العقل مصيبة

- خربها وقعد على تلها

- لا منه ولاكفاية شره

- مش ناوى يجيبها البر لحماقته

- بيبيع الميه فى حارة السقايين

- يدلقوا القهوة من عماهم ويقولوا خير من الله جاهم

- بيقدم رجل ويأخر الثانية

- عين فى الجنة وعين فى النار

- كلمة تجيبه وكلمة توديه) أى متردد وودنى وهو نوع من الحمق)

- دويت هدومك ياهبيل من كتير الغسيل

- زى الجمل اللى يحرته يبطله) لمن يفسد عمله بحمقة)

- إتلم المتعوس على خايب الرجا

- حطوا عيشة على أم الخير

- أعمى يقول لأعمى صدفة سعيدة اللى اجتمعنا

- عمية تخفف مجنونة وتقول لها حواجبك سودة ومفرونة

- اتبع البوم يوديك الخراب.

- عايبة بتعلم خايبة. الاثنين نايبة.

الآن المصرى ليس له مصدر رزق غير عرقه وتعبه وكفاحه فى عمله سواء كان فى الحقل أم المصنع فإن العمل أصبح قيمة من القيم العليا لديه وبالتالى فإنه بطبيعته الساخرة راح يوظف أمثاله وفكاهاته فى انتقاد الكسل والكسالى خاصة وأنه يشعر بالاستفزاز من قبل الأثرياء الذين لاعمل لهم غير إنفاق الأموال على الملاهى والملذات ولذلك نجده يسخر ويستهزئ بالكسل والكسالى قائلاً:

- زى تنابلة السلطان يقوم من الشمس إلى الضل بعلقة.

- زى الكلاب يحب الجوع والراحة.

- راس الكسلان بيت الشيطان.

- أكل ومرعى وقلة صنعة.

- قشش على ميتك تسخن

الآن المصرى لديه قدر كبير من الاعتزاز بنفسه، ويكبره أن يشعره أحد بفقره أو أنه أقل منه، فإننا نجد أنه اشتد فى سخريته على فئة المتكبرين، وقد اقتربت هذه السخرية من الفكاهة بجمعها بين الأضاد المتناقضات من الأمور فمثلاً يقول:

- زبال وفى إيده ورده.

- ملقوش فول يشوه، جابو عبد يلطشوه.

- ملقوش عيش ينتشوه، جابوا عبد يلطشوه.

- عرايا مقفقفين جابوا بعشاهم ياسمين.

- من بره هلا هلا ومن جوه يعلم الله.

- من بره طق طق، ومن جوه فاش وبعه.

- فقرا ويمشوا مشى الأمرا.

- أمة عياشة وعامل باشا.

- بدل اللحمة والتتجان هات لك قميص ياعريان.

- فقر وعنطزة.

- بواب ومالوش باب.

- عما يم على البهايم)

- حسنة وأنا سيدك.

- شحات وعايز رغيف طرى.

- زى شحات الترك جعان ويقول مش لازم.

- زى براغيت القنطرة، عرى وزنطرة

- زى ديك الخماسين عريان ومنظر.

- قلة وعامل قناطة.

- قال إية ناقصك ياعريان؟ قال الخاتم يامولاى.

- ميغركش الباب وتزويقه، بص على نشفان ريقه.

- من بره رخام ومن جوة سخام

- من بره هلا هلا الله ومن جوه يعلم الله.

- نفخة وشَمخة وبصلة فى الجيب.

- كلب أجرب وانفتح له مطلب.

- زى الأغوات يفرحوا بأولاد أسيادهم.

- قالوا للحمار أبوك مين؟ قال خالى الحصان.

- القرعة تتباهى بشعر بنت اختها.

- أقرع ونزهى.

- غشيم ومتعافى.

- زى الطبل صوت عالى وجوف خالى) أى منفوخ على الفارغ).

- مكسحة وتقول للصايغ تقل الخلخال.

- أخته فى الخمارة وعامل أمارة.

- إيش كبرك عنه وانتى بنت عمه.

- إيش انتيى فى الحارة يا منخل بلا طارة.

- أنا وحشة وأعجب نفسى وأشوف الحلوين تعرف نفسى.

ويظل المصرى ساخراً مستهزءاً بكل من يذهو بنفسه أو يتفاخر ويتعالى على الآخرين، لأن هذا يشعر المصرى وخاصة الفقير بدنو منزلته ولذلك صاغ العديد من الأمثال التى تسخر من هؤلاء المتفاخرين بأنفسهم ومنها:

- الطول على النخل والتخن على الجميز.

- زى الطاووس يتعاجب بريشه.

- زى الغراب يتعاجب بعوارة عينه.

- ماتتهزيشى مافى الوسط إيش.

- من عجبه حسه علاه ومن عجبه جسمه عراه.

- زى قبور الكفار من فوق جنينه ومن تحت نار.

- عامل فرخة بكشك.

- عايق ومتضايق (عايقة ومتضايقة).

- ميعجبوش العجب ولا الصيام فى رجب «من شدة إعجابه بذاته».

- ابن بارم ديله.

- سبع البرومبة.
- زى قنصل الوز.
- عامل قمع.
- عامل أبو على.
- عامل قعر مجلس.

وإذا كانت الأمثال الساخرة من الزهو والكبر من الكثرة إلى الدرجة التى تجعلها عنصرًا من عناصر ثقافة الفقراء، فإن هذا يجعلنا نرصد جانبا مهمًا من جوانب الشخصية المصرية ألا وهو إتسامها بالتواضع، فالمصرى متواضع بطبعة، غير ميال إلى الفخر بل يسخر منه، إلا أن كثرة الأمثال التى تسخر من الكبر والزهو والفخر لا شك تعكس أن هذه السمات موجودة فى عدد غير قليل من المصريين، وإلا لما صدر عن الوجدان الشعبى هذا الكم من السخرية من المتكبرين، داعيا إياهم إلى ترك هذه السمة ونبذها فى أسلوب ساخر يتفق وطبيعة الروح المصرية المتفكهة المعبرة بسخرية عن كل ما لا يعجبها، مقومة للمجتمع وأفراده بأسلوبها الخاص.

ومن أساليب الفكاهة الساخرة لدى الشخصية المصرية التندر على بعض الشخصيات بوصفه أصحابها بكلمات ذات دلالات مفهومة للجميع، ومن هذه الألفاظ:

«هلفوت - حرفوش - خرفور- هفيه - دلدول- دهل- خيخة- خرنج - لوح - لطخ - كاورك».

كما ابتدع المصريون الكثير من الأمثال للتندر على الشخص عديم الشخصية ومن هذه الأمثال:

- قاعد زى قرد قاطع.
- زى شرابة الخرج.

- قاعد يقشر البصل.

- لا شغلة ولا مشغلة.

- قاعد ذى الشيخ اللى انقطع ندرة.

- سكتم بكتم.

- فنجرى بق.

- طلع على فاشوش.

- قاعد زى العمل الردى.

- زى خيال المآتة.

- كداب زفة.

- زى رجل البنطلون.

وبجانب الدور الخطير الذى تؤديه الفكاهة للترفيه والضحك والتسلية للتخفيف من حدة مصاعب الحياة والحد من تواتراتها، بجانب هذا الدور الخطير، فهى قوة فعالة ذات أسلوب نفاذ يهز الأعماق، وهى من أبرز مميزات الشخصية المصرية وأبعدها أثرا فى تكوينها الثقافى فمنذ أقدم العصور عاش المصرى بها يكافح أحداث الزمن، الفرس والرومان والترك، وحتى عندما جاء نابليون إلى مصر لاحقه الشعب بنكاته، وخاصة بعد أن هزم فى عكا، وحتى اليوم تطلق هذه العبارة للحد من مبالغة الفرد فى تقدير أهمية عمله، فيقولون «يعنى فتح عكا» كان نابليون يصرخ من ملاحقته الشعب له بالنكات التى وضعته موضع الاستخفاف والاستهانة، فكان يذيع على الشعب المصرى منشورات يحضهم فيها على عدم الاستماع إلى كلام «الحشاشين البطالين»، كما يذكر الجبرتى فى تاريخه.

والنكتة تعتمد على الذكاء، وسرعة البديهة، وحدة الفهم، واليقظة والصراحة، حتى لو كانت تتضمن التورية والمجاز، وقائل النكتة يقصدها صريحة لإصابة هدف معين، ولو استعان على ذلك بالإشارات والتلميحات

إلا أنه فى النهاية يرمى إلى الكشف عن مقصده، لذلك فهو يستعين بأسلوب فكهى يحقق له ذلك الهدف، ويدفع الآخرين إلى المشاركة فيما تخلقه النكتة من جو يسوده المرح والارتياح.

إن العيوب الاجتماعية نوع من التصلب والجمود والتخلف عن مجاراة المجتمع ولا سبيل أجدى من الفكاهة، والتهكم فى تقويم الإعوجاج وعلاج أمراضه.

إن التهكم لون من السخرية المفلسفة، أو الفلسفة الساخرة، ومن هنا كان التهكم الاجتماعى صورة من نظرة صاحبه إلى الحياة، وللفكاهة فى مصر دلالات مختلفة، منها الدلالة السياسية، والاجتماعية، فليست الفكاهة صادرة من المتفكهين للضحك والإضحاك فحسب، وإنما هى فى كثير من حالاتها تصوير للحالة السياسية بألوان فيها تحكم أو سخرية أو نقد أو دعابة، أو غيرها من ضيوف الفكاهة، وذلك بأن الناس لا يستطيعون أحيانا أن ينالوا من حكامهم بالأسلوب الجدى مخافة البطش أو العقاب. فيلجئون إلى الأسلوب الفكاهى لأنه مضمون العاقبة. وهم فى كثير من الأحيان يشعرون بالضغط الواقع عليهم فيتخففون منه، ويخففون عن أنفسهم بألوان من الفكاهة، ويحاولون تقويم الحكام وهدايتهم سواء السبيل، أو تقويم المجتمع وعلاج أمراضه، أو الثأر من الأقوياء الجبارين، وهذه وتلك صدى للحياة السياسية، وصورة لشعور المحكومين ونظرته إلى حكامهم.

لقد تهكم الشعب المصرى وتندر ببطش الحكام وجهلهم، والاستئثار بخيرات الوطن لهم ولأتباعهم من مصريين وأجانب، وكانت تلك التهكمات والسخريات سرًا وهمسًا، ولكنها كانت تسرى بين الناس مسرى النسيم بين الأنفاس فتجعلهم عامة يضحكون حتى فى أشد أوقات المحن وأعصب الظروف، فتحقق بينهم جميعا وحدة وتماسكا هما دعامة الحياة الاجتماعية فى كل بلد فى حضارة عريقة مثل مصر.

ويبدو أن صفة التهكم والسخرية متأصلة فى الشعب المصرى بحيث يمكن اعتبارها مكونًا ثقافيًا أصيلاً لهذا الشعب، فقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته أن أهل مصر يميلون إلى الفرح والمرح والخفة، والغفلة عن العواقب، ولا شك أن هذا القول له مدلوله فيما انطبع عليه عامة الشعب من ميل صادق إلى المرح والبهجة والانصراف عن المشكلات الكبرى، ما أمكن حتى أنهم نظروا لعدم تدخلهم الجاد فى السياسة أمكن الكثير من الشخصيات الأجنبية أن تستولى على الحكم فى بلادهم وتقييم لها ملكا ودولة حاكمة، إلا أنهم فى ذلك منصرفون بفعل إيمانهم بالقضاء والقدر.

ولا عجب بعد كل ذلك أن يقابل المصرى لكل ما مر بحياته خلال الأجيال والعصور، من تناقضات وأخطاء وتعسف من تناقضات وأخطاء وتعسف من الحكم الغاشم، بسلاح يناسبه، ألا وهو السخرية اللاذعة، والنكتة البارعة أو الفكاهة المعبرة، ثم هو بعد ذلك إنسان يسرى عن نفسه بالغناء، وأن جمل معانى البؤس والفاقة، والرقص حتى ولو كان جنائزيا، وبالاستمتاع بجلسات السمر التى يصغى فيها المار بباب الشاعر، والأدب الشعبى الذى انطلقت من الحكم والأمثال.

وعلى هذا فكلما مر المجتمع بأحداث أيا كانت تلك الأحداث سياسية أو اقتصادية فإنه كثيرا ما تظهر نكات مرتبطة بتلك الأحداث يكون لها أكبر الأثر فى اللذة والفكاهة عندما تسمع فور وقوع تلك الأحداث ويسهل التعرف عليها وفهمها وتفسيرها لإشاراتها الساخرة المتخفية إلى حادثة من تلك الأحداث التى هزت الجمهور فى تلك الفترة بالذات.

وربما يرجع اللجوء إلى النكتة عندما تزداد عوامل القهر والضغوط السياسية الاقتصادية بالذات إلى أن النكتة تعفى صاحبها من المؤاخذة ولا تجعل الآخرين يجدون معه فى الحساب والتخفيف، وكأنما يحتال فى أحلامه على تحقيق الأمانى التى تفوته فى اليقظة وتشغل باله دون جدوى فهو يستعين بالنكتة أو بالحلم للتغلب على الصعوبات، وذلك لتيسير الواقع والإعفاء من الكلفة والمشقة.

وتمتاز النكتة المصرية بطابع خاص بها وهو الجمع بين التنفيس عن الحرج وبين وصف الحاكين بالغفلة والبلاهة، وسبب هذا راجع إلى الظروف الاجتماعية لا إلى طبيعة الضحك فى النفس الإنسانية، ذلك أن الحاكم كان عبر فترات تاريخية طويلة من تاريخنا القومى كان أجنبيا عن أهل البلد، ولذلك كان المصريون لا يجدون حرجا فى التشفى فيه ولو عن طريق النكتة.

وبصفة عامة فإن النكتة توجد فى كل مجتمع حسب ظروفه وحاجاته ووفقا لعلاقاته بجيرانه، ومن الطبيعى أن يوجد خلاف بين الأمة الوادعة والأمة الكادحة والأمة المترفة والأمة التى تعانى فقرًا مزمنًا وضغوطاً سياسية واجتماعية، وقد رصد لنا التراث شخصيات اشتهرت بالسخرية والتندر بالحكام ومنها شخصية جحا الذى جاء على لسانه الكثير من النوادر، ومهما يكن من أمر فإن أغلب ما ينسب له لا يمكن أن يكون قد صدر عنه. فإن كثيرا من الفكاهات والنكات التى تصاغ فى شتى الإنماء تنسب إلى شخصية هزلية شهيرة حتى تنال اسما وشهرة، ولعل هذا يشير إلى أحد الأساليب الثقافية لدى العامة فى التعامل مع قهر السلطة.

وقد اصطنع الخلق القومى فى بلدنا مثل هذه الحيل الدفاعية كأسلوب يعتمد عليه للتعبير عن مشاكله وكوسيلة ذات أثر فى حل تلك المشكلات حتى ولو كانت بطيئة الأثر يحتاج إلى وقت غير قصير إلا أنها فى النهاية تؤدى إلى جادة الطريق وتمهد للنجاح.

ولعلنا نستطيع أن نقرر أن خلقنا القومى الذى يعمد بنا إلى تلك الحيل إنما هو يتستر وراءها كى ينال مآربه فهو لا يقوى على الصراحة والعلانية بل يتخذ هذه الأساليب لتحقيق غايته، ولعل الظروف الاجتماعية والسياسية التى عاشتها مصر منذ أيام الفراعنة إلى الوقت الحاضر وتوارد الحكام الأجانب عليها جماعة تلو الأخرى، ثم موقف عامة الشعب من كل ذلك كنقاد ومتفرجين، لعل هذا هو ما جعل الخلق القومى يتسم

بتلك الصفات فيجيد النكتة وينزع إلى الفكاهة بما تحويه من نقد وتوجيه وتنفيث وتفريج.

ويذكر لنا إدوارد وليم لين فى كتابة المهم عن (المصريون المحدثون) عاداتهم وشمائلهم أن المصريين يميلون إلى الهجاء، وكثيرا ما يظهرون ذكاء فى تهكمهم ومرحهم، وتساعدهم اللغة العربية على استعمال التورية والحديث المبهم الذى يتهكمون فيه بكثرة، وتهجوا الطبقات السفلى أحيانا حكامها فى الأغانى، ويسخرون من القوانين التى يقاسون بسببها كثيرا، وقد شاعت إحدى تلك الأغانى فى أسوان، وكانت هذه الأغنية دعاء صادقا بأن يبيد الطاعنون حكامهم المستبد وكاتبه، وكانت فى مصر كلها أغنية ذائعة أثناء زيارتى الأولى ألفت لزيادة ضريبة «الفردة» وكانت تبدأ بالمقطع التالى «ياللى عندك لبدة، بعها وأدفع الفردة».

* * *

الارتباط بالأرض كمكون لثقافة البسطاء:

ومن العناصر المهمة والمكونة لثقافة المصرى ولشخصيته هى ارتباطه بالأرض واعتزازه ببلده، ولذلك لم يكن يرحب بالسفر أو الهجرة حتى وقت قريب، بل لعل ما نراه الآن من هجمة شديدة على السفر للعمل فى الخارج أو الهجرة، مرده إلى الظروف الاقتصادية الضاغطة على الأغلبية العظمى من المصريين خاصة قطاع الشباب الذى تحول ظروفه المادية دون الأمل أو الحلم ولا نقول تحقيق الحلم أو الخطو نحو تحقيقه، بالإضافة إلى ما ألم بالمجتمع المصرى حاليا من محسوبية ووساطة ورشوة، ولعل أهم ما جعل الناس تشعر بالإحباط فى مجابهة هذه الآفات هو الكثرة العددية التى قللت من فرص الناس فى الحصول على عمل أو فى إيجاد فرصة للظهور فى أى مجال ورغم ذلك فالمصرى إذا اضطر للسفر تلاحظ أنه يدخر فى غربته لينفق فى مصر ويعمل بدأب فى الغربة من أجل العودة إلى مصر، كما أنه فى أحاديثه يسهر من أصل البلاد التى يسافر إليها ويستعلى بذاته

على كل ما يمارسونه، فهو يدرك قيمته ومعدنه، ويعتبر احتياجه إليهم انقلابا فى الأحوال غير منطقى.

ويعبر المصرى فى ثقافته ومأثوراته الشعبية عن ارتباطه بمصر بالعديد من الأمثال مثل:

- مصر أم الدنيا.
- مصر المحروسة.
- عمار يا مصر.
- عظيمة يا مصر.
- اللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى.
- والذوق مخرجش من مصر والذوق ما فتشى باب النصر.
- مصر أم الذوق.

الصبر كأحد سمات الشخصية المصرية

يتطلب التعايش فى ظل الازدحام السكانى والحياة فى كتل بشرية ضخمة قدرا من التنازلات وتجنب التطرف فى التعامل مع الآخرين، والمصريون هم كذلك فعلاً، ففى رأى أحد المستشرقين الروس فى دراسته بعنوان «مصرة المصريون» يقول فى باب عنوانه:

«ستة آلاف عام من الصبر» أن «المصريين دائمًا وكثيرًا ما يعثرون على الوسط الذهبى، إنهم يبحثون دائمًا وكثيرًا ما يعثرون على الوسط الذهبى، وهم يسعون إلى قبول الجديد دون التفريط فى القديم وإلى اتباع الأساليب العنصرية، ومع الإبقاء على التقاليد بل ويريدون حتى القيام بالثورة دونه عنف وبدون تغيير يذكر، وعلى الرغم من تفجرات التعصب فالمصريون الآن وفى الماضى البعيد أظهروا دائما أنهم يتحلون بقدر كبير من التسامح الدينى.

لقد عاش المصرى فى ذلته، واستكانته ألف ظلم الحكام والسادة وقسوتهم، فصار الخضوع عادة له، لا من فقر بل من الظلم، والقهر يسومه السادة المتسلطون حكم الطغيان، ويعاملون كطفل يؤمر وليس له حق المناقشة، ألف من الحكام جانب القسوة والشدة، فأصبح لا يعرف علاقته بمن هم فوقه إلا على هذا النحو، وإذا وجد من بعضهم جانب اللين استنكره، ورآه شيئا يفوق ما ألفه أو تعوده، أصبح لا يفهم الشفقة، ولا يعرفها لكثرة ما قاسى من الظلم والهوان، وما عومل به من الشتم والضرب والفظاظة.

وعلى هذا فقد قامت العلاقة بين السلطة والشعب على عدم الثقة والعداوة، إلى درجة أن الفلاح مثلا يفضل حل مشاكله دون اللجوء إلى السلطات إذ يدرك أنه لأن يجد سوى المماطلة والابتزاز ورغم أن العلاقة بالسلطة مفعمة بالخوف والريبة غير أن الموقف من السلطة معقد ومتناقض، فالمصريون لا يثقون بالحكام ويكرهونهم وفى نفس الوقت يحسدونهم ويتملقونهم ولو ظاهريا، ويشير (وليم لين) إلى أن العناد الفائق والتمرد يتعايشان لدى المصريين مع التزلف، فحياته ضجر ومعيشته ونشاطه الاقتصادى ونجاحه وتوفيقه لا تتوقف على قدراته وجهوده بقدر ما تتوقف على حسن علاقاته بأصحاب المراكز والنفاق والتزلف منتشران، فالتدرج الهرمى للمجتمع يتطلب الطاعة اللإدعات، والاستسلام يعزز الاستبداد فحتى الموظف المصرى الصغير يشعر بالفرحة عندما يحصل ولو على قدر ضئيل من السلطة الفعلية وهو يقرن حصوله على مركز فى سلم البيروقراطية بالتشريف والتكريم وبإمكانية الإثراء الشخصى».

ولم يلجاء الشعب المصرى وهو فى غاية اليأس إلى التمرد ضد السلطة إلا فى الحالات القصوى ولكن حتى فى هذه الأحوال النادرة كان المتمردون من الفئات الفقيرة فى المدينة وليسوا من الفلاحين فالفلاح المصرى كان أول من لجأ إلى المقاومة السلبية وإلى العصيان المدنى فى التاريخ، فالفلاح المصرى يجيد إجادة تامة أساليب عدم تنفيذ الأوامر، والتهرب من

الضرائب، والتنصل من تنفيذ التعليمات التى ليست فى صالحه، والتظاهر بالوظيفة ثم القيام بعكس المطلوب. وقد فقد المصرى القدرة على المبادرة رغم شطارته فى التهرب من المسئولية، وإلقاء اللوم على الآخرين أو على القدر «إذ يرى المصرى أن السلطة تحرمه دوما من حق اتخاذ القرارات، بينما تكبله العادات بقيود صارمة، فإنه كثيرا ما يفقد روح المبادرة والشطارة.

لقد استوعب المصرى خبرة الأسلاف فى أن العقاب دائما وينال أصحاب المبادرة وفى أحسن الأحوال ذهن بلا فائدة وما أقل ما يتوقف على شطارته وأفضل وسيلة للحفاظ على راحة البال هى الخضوع أو التظاهر بالخضوع، أو الصبر جميل، تلك وغيرها هى الحكم الشعبية الواسعة الانتشار فى مصر، تسمعها تتردد باستمرار وتراها مكتوبة بالزخارف على جوانب الشاحنات وعلى واجهات الدكاكين وفى الدواوين فى الحكومية، وأصبح الصبر وليس المبادرة أو الكفاح هو السبيل لبلوغ المأمول.

ويرتبط الصبر. وفقدان روح المبادرة بالإيمان بالحظ والبخت «قيراط حظ ولا فدان شطارة» والصبر تؤمن به الفئات الدنيا غير أن القمم العليا تحظ به، إن القدر على التحمل والصبر والنزعة القدرية تجعل من المصرى جنديا جيدا، وقد قال أحد الضباط الروس الذين عملوا مستشارين فى الجيش المصرى ليس أسوأ من الإسرائيلى إذا واجهه فردا لفرد، بل هو على الأرجح أفضل منه وقد كرر هؤلاء الوصف الذى أعطاه «وليم لين» للمصريين منذ مائة وخمسين عاما عندما قال:

«-الفلاحون الخاضعون للسلطة يبدون بسالة وشجاعة فى الصدمات التى تنشب بينهم ومنهم يكون جنود ممتازين».

ويرتبط الصبر بالحرص على الرصانة فى الحديث والسلوك العام، وبخاصة لدى كبار السن، وكذلك الحرص على إظهار العواطف فى حدود

معينة، وذلك لا يعنى التبلد، أو الخلو من المشاعر والأحاسيس فعاطفية المصريين تقرن بصبرهم، ومن لم فهم سريعو الغضب والانفعال والاشتباك مع بعضهم البعض وتبادل السباب والشتائم، وبخاصة فى الأوساط الشعبية البسيطة.

ورغم تأصل صفة الصبر لدى المصريين، حتى أن الكاتب جعل له فصلا وضع له اسما «ستة آلاف عام من الصبر» إلا أنه ثمة حدود لصبر المصريين، وبعدها ينفجر العصيان، الجماهير فى ربع القرن الأخير، لدى تنحى جمال عبدالناصر إثر هزيمة يونيو ١٩٦٧، ثم فى تشييع جنازته، وفى الثامن عشر التاسع عشر من يناير ١٩٧٧ إثر قرارات الأسعار الشهيرة، وهو الانفجار الذى أجبر الحكومة على التراجع عن زيادة الأسعار، لكن المصريين يثرون بسرعة سواء على مستوى الفرد أم على مستوى الجماعة، فبعد أحداث يناير العاصفة عاد الناس إلى شئونهم وهمومهم اليومية».

أثر القهر السياسى على ثقافة الفقراء:

لقد كان القهر السياسى، فساد النظم السياسية والإدارية مصدرًا أساسيًا من مصادر تكوين سلبيات الطابع القومى المصرى على حد قول العديد من الباحثين والكتاب ومنهم المستشرق وليم لين، كما رصد عبدالرحمن الكواكبى فى سفره المهم «طبائع الإستبداد ومصارع العباد» العديد فى الصفات السلبية التى التصق بالشخصية القومية نتيجة القهر والاستبداد وهما ما ميز النظم السياسية الحاكمة آنذاك وحتى ذلك يقول:

«العوام هم قوت المستبد قوته بهم عليهم يصول، وبهم غيرهم يطول بأسرهم فيتهللون لشوكته، ويغضب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة ويهينهم فيشنون على رفعته ويغرى بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته، وإذا أسرف بأموالهم يقولون عنه إنه كريم، إذا قتل ولم يمثل»

يقصد لم يمثل بجثة القتيل يعتبرونه رحيما، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب، وإن نقم عليه منهم بعض الأباة قاتلهم كأنهم بغاة الحكومة المستبدة تكون مستبدة طبعا فى كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطى وإلى الفراش إلى كناس الشوارع، ولا يكون كل لا يهمهم جلب محبة الناس، إنما غاية مساعهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته، وأنصار لدولته، وشرهون للأكل السقطات من ذبيحة الأمة وبهذا يأمنهم ويأمنونه، فيشاركهم ويشاركونه.

أدى هذا الاستبداد والقهر إلى تأثيرات سلبية فى أخلاق الناس كما أثر على تكوينهم الثقافى فالقهر السياسى إضافة للقهر الاقتصادى - أدى إلى أضعاف الأخلاق الحسنة وإفسادها.

مما يجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه، لأنه لم يملكها حث الملك ليحمده عليها حق الحمد، ويجعله حاقدا على قومه لأنهم أعوان للمستبد فى استبداده به كما يجعله ذلك فاقدا لحب وطنه لأنه غير أمن على الاستقرار ويوجد لو انتقل منه، وضعيف الحب لعائلته لأنه ليس مطمئنا على دوام علاقته معها، وتختل الثقة فى صداقة أحبابه لأنه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافؤ، وقد يضطرون لأضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون.

أسير القهر والاستبداد يملك شيئًا ليحرص على حفظه، لأنه لا يملك مالا غير معرض للسلب، ولا شرفًا غير معرض للإهانة، ولا يملك الجاهل منه أمالاً مستقبلية ليتبعها، ويشقى كما يشقى العاقل فى سبيلها.

والاستبداد والقهر السياسى يضطر الناس إلى إباحة الكذب والتحايل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحس وإماتة النفس.

وهذا الاستبداد يتخلل بعد ذلك علاقتنا الاجتماعية والعائلية فالطفل وهو جنين نجد فى الغالب أن أبوايه متأكدان متشاكسان، ثم إذا تحرك فى بطن أمه حرك شراستها أو ضربته، وإذ إنها ضيقت عليه مقره ألفتها

الانحناء خمولا أو التقلص لضيق الفراش، ومتى ولدته ضغطت عليه باللفافات فإذا بكى تألمًا سدت فمه بثديها، أو شفتيه مخدرا عن جزء فى نفقة الطبيب، فإذا ما فطم يأتيه الغذاء الفاسد يضيق معرفة ويفسد مزاجه، فإن كان طويل العمر وترعرع يمنع من الرياضة لضيق البيت، فإن سال واستفهم ليتعلم يزجر ويلكم لضيق خلق أبويه، فإذا قويت رجلاه، يدفع به إلى خارج البيت إلى مدرسة الألفة على القذارة وتعلم ضيع الشتائم والسباب، فإن عاش ونشأ ووضع فى مكتب (كتاب) أو عند ذى صنعة ويكون أكبر القصد ربطه عن السراح والمراح لا يبرح يقاسمهم شقاء الحياة، ويجنى غيره كما جنى عليه أبوه، ثم هو يتولى التضييق على نفسه حتى بتشغيل الثياب التى تقيد حرية حركة جسمه، ويتولى المستبد الضغط والتضييق على عقله وعلمه وأمله.

ومن قاموس الأمثال الشعبية التى أبدعها المصرى فى تراثه الثقافى كأحد مظاهر تكيفه مع القهر والاستبداد السياسى نسوق الأمثلة التالية:

- أرقص للقرد فى دولته.
- اربط الحمار مطرح ما يحب صاحبه.
- اللى بدك تقضيه إمضيه، واللى بدك ترهنه بيعه، واللى بدك تخدمه طيعه.
- اللى يتجوز أمى أقوله يا عمى.
- اللى يطاطى لها تفوت.
- إن دخلت بلد تعبد العجل حش وارمى له.
- إن كان لك عند الكلب حاجة قوله له يا سيدى.
- الأيد اللى ما تقدر تقطعها بوسها.
- بات مغلوب ولا تبات غالب.
- حاكمك غريمك إن ما طعته يضيمك.

- ضرب الحاكم شرف.

- طلب الغنى شقفه، كسر الفقير زيره.

- رضينا بالهم والهم مش راضى بينا.

والأمثال السابقة جميعها تحض على النفاق والخضوع والاستسلام كأسلوب أمثل للتعامل مع السلطة المستبدة، ومن الأمثال التى تحض على المدارة والبعد عن الصراحة والمواجهة كأسلوب للتعامل مع القهر السياسى نرصد الأمثال التالية:"

- اكتم سرك تملك أمرك.

- أكره ودارى وحب ووارى.

- اللى تداريه تغلب فيه.

- وحد يقول للغولة عينك حمرة.

- حط رأسك وسط الروس تسلم.

- دارى على شمعتك تقيد.

- سفيهك دارية واعمل كحك وأديه.

- اتمسكن لما تتمكن.

- يا قلبى يا كتاكت يا ما انت مليان وساكت.

- فى الوش مراية وفى القفا سلاية.

- كما أوضح المثال الشعبى عاقبة خدمة السلطة والانصياع لها ومما ذلك.

- آخر خدمة الغز علقة.

- آخر المعروف ضرب الكفوف.

- اللى تقول عليه موسى يطلع فرعون.

كما صاغ المصرى فى تراثه الثقافى العديد من الأمثال التى تخص على السلبية والأنامالية والبعد عن المشاكل ومصادرها والحذر والحيطة كرد فعل طبيعى لاستبداد السلطة ومقرها وتضيقها عليه، ومن ذلك.

- أردب ما هو لك ما تحضر كيله، تتعفر ذقنك وتتعب فى شيله.
- اصبر على الجار السوء يا يرحل يا تجيله داهيه.
- أقل باب يحوش الكلاب.
- اللى يخرج من داره يتقل مقداره..
- إن جار عليك جارك حول باب دارك.
- الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح.
- باب مردود شر مطرود.
- الباب المقفول يرد القضا المستعجل.
- يا عين إن شفتى ما رأيتى، وإن شهدوكى قولى كنت فى بيتى.
- الحيطان لها ودان.

كما صاغ المصرى العديد من الأمثال التى تحض على الرضا والقناعة وهذا يدخل فى إطار المسكنات التى كان يبتديها للتعامل والتكيف مع الضغوط أساسية والاقتصادية التى يرزح تحتها، ومن ذلك:

- اللى عنده عيش وبلله عند الفرح كله.
- اللى ما يرضى بحكم موسى يرضى بحكم فرعون.
- اللى ما يرضى بالخوخ يرضى بشرابه.
- إن حضر العيش يبقى المش شبرقة.
- من رضا بقليله عاش.
- من شاف بلوة غيرة هانت عليه بلوته.
- اللى يأكل بالخمسة يلطم بالعشرة.

وأما عن نظرة المصرى للسلطة رأيه فيها وكيفية التعامل معها فتلاحظ أن السلطة لدى المصرى ارتبطت بذكريات سيئة، ولذلك فقد صاغ العديد من الأمثال التى توضح نظرته السلبية لها ومنها:

- ابن الحاكم يتيم.
- ابن الحرام يطلع يا قواس يا مكاس.
- ارشفوا تشفوا.
- اطعم الفم تستحى العين.
- اللى فى أيده القلم ما يكتبشى نفسه شقى.
- اللى له ظهر ما ينضربش على بطنه.
- إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه.
- زى كرابيج الحاكم اللى يفوتك أحسن من اللى يحصلك.
- السلطان من هيبته بيتشتم فى غيبته.
- يا فرعون مين فرعنك قال ملقيتشى حد يردنى.
- يا بخت من كان النقيب خاله.

الإيمان بالخرافات كعنصر ثقافى:

ومن الملامح المميزة لثقافة لفقراء فى مصر الإيمان بالخرافات التى تأصلت فى مجتمعنا، فأصبح من يؤمنون بها، يسيرون فى حياتهم على قواعد ومبادئ سلوكية لا يحيدون عنها رغم أنها مبادئ بالية، أكل عليها الدهر وشرب، ولكن تبدوا عليهم السعادة من أجل تمسكهم بتلك العادات والخرافات. فمثلا تراهم يؤكدون عند «كتب الكتاب» - عقد قران أو زواج - أنه «إذا انحطت حته سكر تحت لسان العروسة وبعدها انحطت فى كوب ماء وشرب منه العريس يتفقان مع بعضهما».

وقد تراهم يذكرون عن يقين أن «العاقر إذا طلعت السلم بالعكس تستطيع أن تحمل بعدها»، كذلك إذا تأخر أحد الأطفال عن التكلم قالوا على سبيل المثال «دق المية فى الهون يخلى العيل اللا ما يكلمش يتكلم».

كما يؤمن هؤلاء بما يعتقدون أنه علم الكوتشينة وعلم الفنجان، وعلم الكف وعلم الطوالع وطوالع الرجال والنساء وما يسمى بالطوالع الحدس، وغيرها.

وكل هذه العلوم الزائفة تعيش وتزدهر فى المجتمع المصرى فى ظل مناخ ثقافى اجتماعى لا يرى الاعتراف بالعلم العصرى.

كما يؤمن آخرون بما يسمونه (العلم اللدنى) وهم لا يعترفون بالعلم العصرى أيضا ويرون أنه لا علم إلا العلم اللدنى، ولكنهم لا يستطيعون إثبات أى شىء عن هذا العلم الذى يدعونه، كما لا توجد أدلة لديهم على وجوده أو الفائدة المرجوة منه سواء فى الدنيا أو الآخرة.

وللوصول إلى هذا العلم مستويات ومنازل وأساليب الوصول إليه عديدة ومن هذه الأساليب (حلقات الذكر) ومعلوم أن سواء كانت جنايات أو جنحا أو مخالفات، وسواء كانت جرائم منظورة أو غير منظورة.

– أن يقن مجتمع الفقراء موقف المتمرد أو الثائر، والملاحظ أن تمرد المصرى فى ضوء التاريخ أو ثورته لم يكن أبدا يقصد اغتصاب حقوق الغير، بل كان دائما بقصد الدفاع عن النفس والحرية والحقوق والكرامة.

كما توجد أساليب أخرى اتبعها المطحونون من الفقراء لمواجهة القهر والمحن، وتختفى هذه الأساليب وراء بعض القيم التى تدعو إليها بعض الأمثال الشعبية ومن ذلك:

من رضى بقليله عاش.

– من خاف سلم.

– يا بخت من بات مظلوم ولا باتشى ظالم.

- الله يولى من يصلح.

تعاليم الإسلام الجليلة تدعو إلى ذكر الله سبحانه وتعالى على أن يكون هذا الذكر بالطرق الواردة فى الكتاب والسنة الصحيحة. والملاحظ أن حلقة الذكر قد أصبحت حاليا ظاهرة اجتماعية تعددت وظائفها فهى تعقد فى الموالد، وفى الأفراد، وفى المواسم، نجد ذلك فيما يسمى بـ (الحضرة) وفى حفلات الموالد، وفى حفلات الزواج، وفى حفلات الطهارة (الختان) وفى شهر رمضان، وقد تكون حلقة الذكر الأسلوب الوحيد للاحتفال، وقد تكون أحد الأساليب للوفاء بالنذور.

والملاحظ أن حلقة الذكر تعتبر «إحدى الجماعات المرجعية» العامة لأعظائها، وهى فى هذا الضوء ذات فاعلية كبيرة فى تماسكهم وترابطهم. وقد تعتبر حلقة الذكر من النوفذ الاجتماعية التى يستطيع عن طريقها أن ينفس بعض أعضاء المجتمع المصرى عن الشعور الجماعى بالعدواة المتولدة من التوترات والإحباطات الموجودة فى هذا المجتمع. وقد تشكل جماعات «حلقة الذكر» فضلا عن ذلك «جماعات ضاغطة» لها قوتها ونفوذها فى محيط مشات الألوف إن لم يكن الملايين من البشر، وهى بذلك قد تستغل فى سبيل مصالح الآخرين.

ويلاحظ أن المنتسبين إلى هذا العلم يدعون العلم بكل أنواع العلوم، فهم العلماء العصريون تارة، وهم العلماء المزينون حفظة التراث المصرى الأصيل تارة أخرى، وهم العلماء الدنيويون الواصلون العارفون تارة ثالثة، ولعل وجود هذه فى المجتمع المصرى مرجعه إلى ضعف تأثير العلماء العصريين فى الوقت الحاضر. ومن ثم إلى غلبة العلماء الآخرين.

والعرف على أهل الفهلوة ليس أمرا صعبا، فأنت تجد الأشخاص الذين يبحثون باستمرار عن أقصر الطرق وأسرعها لتحقيق الأهداف الدنيوية والأخروية على السواء، كما أنهم يتجنبون العناء والجد المطلوبين عادة فى اجتياز العقبات للوصول إلى تحقيق هذه الأهداف والغايات،

ويكون همهم ليس إنجاز العمل على أكمل وجه، وإنما إنجازه وتحقيق أهدافه وغاياته حتى لا يقال عنهم أنهم عاجزون عن ذلك.

ومن سمات علماء الفهلوة والشخصية الفهلوية والشخصية الفهلوية ما نلاحظه عندما يعجزون عن تقبل الحقائق الموضوعية، أى عندما يعجزون عن تقبل الواقع وفقًا كما تفرضه الظروف الحرجة من تصريف سريع مما يضطرهم إلى إخفاء العيوب والفشل والنقائص بغية إنقاذ المظاهر والحافظ على ماء الوجه.

كما يتسم الفهلوي فإنه يدعى معرفته بكل شتى ويرى أن الباقين لا يعلمون ولا يوفون شيئًا، كما يعتبر من المدافعين والرافعين لشعار «أهل الثقة» أولاً ثم أهل الخبرة «أخيرًا وآخرًا» ، فالهلوى هو الانتهازى المتلوى المنافق.

ومن العناصر المؤثرة فى التراث الثقافى للمصرين علم الحكمة، هو له سبع وسائل كما يتمكن منه طالبة وهى علم الأعداد - علم الأوفاق - علم الحروف - علم الطبائع الأربعة علم الكواكب والأفلاك والبروج والمنازل علم الاختبارات النجومية وسعدها ونحسها وشرفها واتصالاتها علم الأسماء والرقى والدعوات وقد ألفت فى هذه العلوم السبعة مؤلفات كثيرة، ومن هذه الكتب نجد كتاب منابع أصول الحكمة «للامام ابن على البونى» ويتضمن أربعة أقسام هى: الأصول الضوابط، ريفية المشتاق فى معرفة الآفاق، شرح البرهنية المعروف» بشرح العهد القديم وشرح الجلجوتية الكبرى.

وللإمام البونى أيضا كتاب «شمس المعارف ولطائف العوارف» ويتضمن أربعة أجزاء تحتوى على أربعين فصلا وأربع رسائل وهى:

ميزان العدل فى مقاصد أحكام الرمل، وفواتح الرغائب فى خصوصيات الكواكب، وزهر المروج فى دلائل الربوج، والطائف الإشارة فى خصائص الكواكب السيارة ومن الكتيبات التى ألفت فى تلك الموضوعات الخاصة نجد كتيبا يحمل عنوان المندل الخاتم السليمانى والعلم الروحانى

للإمام الغزالى وهو من تأليف عبدالفتاح السيد الطوخى، ويتضمن كما يقول المؤلف جملة أبواب وأقسام وطلاسم وفوائد وأفاق فى العالم الروحانى وللطوخى كتب أخرى عديدة منها «النور الربانى فى العلم الروحانى» الذى حوى، كما يقول المؤلف، «كثيرا من الفوائد العظيمة المجرية التى يحتاج إليها كل فرد فى جميع حوائجه.

ومنها كتب:

- دليل الحيران فى طالع الإنسان.

والزايرجة الهندسية فى كشف الأسرار الخفية «وكتاب» الأسرار فى علم الأخبار و«إغاثة المظلوم فى كشف أسرار العلوم و«سحر الكهان فى حضور الجان» والبيان فى علمى الكوتشينة والفنجان و«هداية العباد فى أسرار الحروف والأعداد.

و«الكباريت فى إخراج العفاريت والمشتمل على القدرة الإلهية فى المعالجة الروحانية، والحكمة الربانية فى المعالجة الجنسية وكشف اللثام عن جعفر الإمام.

والقواعد الفلكية فى عمل النتائج السنوية».

و«الدرة البهية فى العلوم الرملية».

و«أحكام الحكيم فى علم التنجيم».

و «النجاح فى علوم النفس والتنويم والأرواح» وغيرها من الكتب التى جعلت هذا النوع من العلوم الخرافية تملأ مناخنا الثقافى حتى الآن، ولايزال يجد مريدنى فى كل أنحاء مجتمعنا المعاصر، وبخاصة فى محيط سكان سكان الريف وفى محيط الكثير من سكان الحضر، وإذا لا حظنا أن للكوتشينة علمًا وإن للفنجان علمًا فما رأى المؤمنين بتلك العلوم وأنصارها فى علوم الطب الكيمياء والبيولوجيا ولكن ما هى أهداف تلك العلوم الخرافية.

نلاحظ أن من يمارس هذه الوسائل يدعى القدرة على دور التصرف على جميع ما فى الكائنات من خير وشر وجلب وطرد.

وأما ميادين هذا العلم القائم على الدجل الشعودة والتنجيم فهى تشمل كل ما يخطر على بنى البشر من أمور تتصل شئون حياتهم وحياة من حولهم أو تتصل بأحلامهم وأحلام من حولهم، وقد تتضمن ما يتعلق بالصحة والمرضى، والمحبة وبالعداوة، وبقضاء المهمات، وبجلب النفع، وبدفع الضر وما يتعلق بالزواج أو الطلاق وبرفع الظالم، وباستخدام الملاكة وبإحضار الأرواح العلوية والسفلية وتسخيرها عن طريق ممارسة هذه الطقوس بطريق مباشر أو غير مباشر يعتقد الكثيرون من أعضاء مجتمعنا المعاصر أنهم يستطيعون، مثلا تحقيق الفنى والصلاح والفلاح، ونوال القبول والعز والرفعة والبركة، وكشف الخبايا والكنوز وجلب التوفيق والصواب، وجلب الهيبة والوقار، وجلب الفتوح، وتحسين الأخلاق، ونوال المناصب والترقى، وفهم العلوم وزوال البلادة، وبسط الرزق، وإحياء القلوب، وزوال النسيان، وإزالة الكسل والإعياء، وحل المربوط والمسحور وجلب المحبة القوية أو التهيج والهيمان وإذهاب الصداع ومنع ألم البرد ، وقطع النزيف والرعاف، وإزالة أوجاع الرأس والرمد، وإزالة آلام الحمى ووجع البطن، والنجاح فى العمل، وتسهيل الولادة ومنع الخوف والوسواس وإلا من الغرفة ومن المخاوف والخلاص من السجن، ومنع الوحوش والطير من الزرع ومنع السوس عن الحبوب، وجلب الحمام إلى البرج، وجلب الغائب ورد الأبعد، وجلب الزبون، وجلب الخطاب، والصلح بين المرأة وزوجها أو زواج المعطلة للزوج الغنى أو صلح المطلقة أو التفريق بين المرأة وزوجها، أو نقل الصخور ونسف التلال.

كما تملكتهم تلك العلوم السحرية. كما يؤمنون بذلك من عقد لسان المؤذى، وتسليط الصداع والحمى على الظالم، ورجم دار الظالم أو إخراجه من داره، أو إهلاكه أو عقمه أو إخضاعه وإصابة الظالمة بالنزيف

أو عقمها، أو قهر الجبابرة والأعداء وقمع الأضداء ، أو إرسال الهواتف للتفريق بين المجتمعين أو إخراج العدو من البلد!!!

كما يؤمن المدينون والمعتقدون فى كرامات الأولياء بقدرة الأولياء على فعل أى شىء مهما كانت درجة استحالة تحقيقه، ومن الأمثلة الطريقة على ذلك أنه فى الخامس من أكتوبر عام ١٩٥٥ أرسل أحد المواطنين الطيبين رسالة إلى ضريح الإمام الشافعى، يطلب فيها من الإمام الشافعى عقد جلسة شريفة يحضر فيها معه سيدنا الحسن وسيدنا الحسين والست زينب أم هاشم وجميع أهل بيت النبى (ﷺ) وذلك لمسح وإزالة إسرائيل واليهود من على وجه الأرض المقدسة فى خلال أسبوع.

ومثال آخر لذلك أنه عندما وردت الأخبار إلى القاهرة باحتلال نابليون الإسكندرية ورشيد ودمنهور وزحفة على القاهرة اجتمع العلماء بالأزهر فى هذه الآونة كل يوم يقرءون البخارى وغيره من الدعوات، وكذلك اجتمع مشايخ فقراء الطريقة الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية، وغيرها من الطوائف وأرباب الأشاير، ويعملون هم مجالس بالأزهر وكذلك أطفال الكتاتيب، يذكرون اسم الله اللطيف وعده من أسماء الحسنى».

ويروى لنا طه حسين فى سيرته الذاتية «الأيام» أنه لما حل وباء الكوليرا بقريته وتساقط الكثيرون بسبب هذا الوباء اجتمع رجال الدين ووزعت الأحجبة (حجاب على الأهالى لتمنع عنهم الوباء).

إن تأثير الإيمان بالعلوم السحرية والطقوس الخرافية علم الأفلاك والبروج والرقى والدعوات والطالب وغيرها على عقول الإنسان المصرى فى ضوء ظروفنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تأثير رهيب، أنه لأول وهلة ييسر لهذا الإنسان البحث المستمر عن أقصر على السواء، إن تأثير هذا الوهم يجنب الإنسان المصرى المعاصر العناء والجد

المطلوبين عادة فى اجتياز العقبات للوصول إلى تحقيق هذه الأهداف والغايات.

ويكون همه ليس إنجاز العمل على أكمل وجه وإنما إنجازه.

لغة الشارع كأحد عناصر ثقافة العامة :

تتسم لغة الشارع المصرى كأحد المكونات المهمة لثقافة الفقراء بعدة صفات منها وجود قدر من السرية تحيط به كمفرداتها، كما أن كلمة واحدة من مفردات هذه اللغة يمكنها اختزال عبارة طويلة أو مجموعة من الكلمات الدالة، كما تتسم لغة الشارع المصرى بارتباطها بنوع الحرفة التى يزاولها شخص ما، فهناك لغة لكل من العوالم ـ المنجدين ـ الحرامية ـ النجارين ـ بائعى القماش ـ تجار الذهب ـ مدمنى المخدرات ـ أطفال الشوارع (وغالبًا ما يطلق على هذه اللغة لدى أهل الحرفة أو الطائفة أهل الحرفة أو الطائفة اسم «السيم» أحيانًا ولا يمكن التعرف على هذه اللغة بعيدًا عن القيم التى تحملها، ولغة الشارع المصرى الآن تنحو نحو التكثيف والاختزال، فبدأت الكلمة الواحدة تعبر عن موقف أو سياق كامل، وتطور الأمر لتصبح أجزاء من الكلمة تقوم بهذا الدور.

فعلى سبيل المثال تصف لغة الشارع الرجل بعديد من الصفات سلبية أو إيجابية تم اختزالها فى كلمة واحدة، كل كلمة لها دلالات يعرفها المواطن المصرى والمجتمع بصفة عامة منها «رجالة : ـ قش ـ ورق ـ هلس ـ هفأ ، وكذلك يقولون (راجل : ـ شربة خرج» ـ «حمار شغل»، «داقق عصافير» ـ «رجل بنطلون» ـ «مختوم على قفاه» ـ «نابه أزرق» ـ «بتاع نسوان» ـ «عامل أبو العريف» ـ «بتاع كله» ـ «أما يتبلش فى بقه فولة». هذا بالنسبة لصفات الرجل السلبية، أما بالنسبة لصفاته الإيجابية فإنهم يقولون:-

«راجل» مخلص ـ بركة ـ ملو هدومه »

يملا العين ـ ابن أصول

ابن حلال - ابن ناس ابن عز

● «متربى فى بيت أبوه»

● إن تأمل هذه اللغة يوضح مدى قدرتها البلاغية الإشارية فالكلمة الواحدة قد تصف مكانة الشخص، وصورته، كما أنها توضح معانى كثيرة رغم أنها مفردة ولم تدخل فى جملة مفيدة، بل إنها ترمز للسلوك الإنسانى الذى يبدو عليه الإنسان الموصوف بها وتبدى خللاً فى كثير من المفردات.

● هذا بإضافة إلى أن كل طائفة عن الحرفين قد اخترعت لنفسها لغة سرية لها قانونها الخاص، فكل جماعة تشعر بالاحتياج إلى الدفاع عن نفسها حيال البيئة التى تعيش فيها تخترع سيما أو لغة سرية تخفى بواسطتها أفكارها وشئونها عن غيرها، وهذا يدل على حالة من التوجس من المجتمع كما يوضح أحد أساليب التكيف مع أوضاع المجتمع التى تدعو إلى الريبة والشك فى الآخرين من جهة كما وضح الرغبة فى تضليل الآخرين لأسباب عديدة منها ما هو نفسى ومنها ما هو اجتماعى أو اقتصادى، ومنها ما هو سياسى وعلى هذا فلكل طائفة من الحرفيين والصناع والتجار قاموس يتفاهمون بمفرداته، إذ يستخدمون هذا القاموس ضد الوسط المعادى لهم، وهم يكونون بهذه اللغة عالمًا قائمًا بذاته رغبة منهم فى الانفصال والانعزال عن المجتمع الذى قهرهم وسلبهم حقوقهم أو الذى جعل منهم فقراء ومن آخرين اعتبار بالإضافة لإحساسهم بعدم الشعور بالأمن وشعورهم بالضياع.

● وهنا يمكننا التفريق بين نوعين من أنواع لغة اتساع الأول وهى التى تشيع بين فئات مختلفة من التجار والصناع والشباب والكبار وتعبر عن بعد ثقافى يشمل المجتمع المصرى بصفة عامة بكل ظروفه وأوضاعه والثانية هى اللغة التى تقتصر فى تداولها على طائفة واحدة بعينها لا يستعملها ولا يعرف قاموس مفرداتها غير أفراد تلك الطائفة.

• ومن العبارات والكلمات الدالة على النوع الأول من لغة الشارع نرصد بعض النماذج على سبيل المثال:-

١- الأبلتين لدع فى دهاليز الحياة :

عبارة تدل على الخواء أو الفوضى فى الحياة، وغالبًا ما تدل على الفلس ومعناها أن الحياة أصبحت خربة.

٢- اعمل دماغ :

عبارة مشهورة عند المدخنين، ويقصد بها الحالة المزاجية عن المدخن، فهم يقولون عامل دماغ، وقد أخذ هذا التعبير فى الاتساع حتى أصبح يشمل غير المدخنين، فحين يرى أحد الشباب سعيدًا بعد مقابلته حبيبته، يقولون عنه، باين عليه عامل دماغ، كما أصبحت تدل على الإشباع من شىء ما.

٣- إديها جاز :

عبارة تقال فى مواقف المشاحنات بين الأصدقاء لإشعال هذه المشاجرة مثل «إدى الخناقة جاز عشان تولع «أو شعللها».

٤- إيه النظام :

بمعنى إيه الموضوع، وأصبحت تتداول من أجل السؤال عن الأحداث التى تجرى أو حدوث شىء جديد، التى تجرى أو حدوث شىء جديد، وغالبًا ما يكون الرد «النظام فى العظام».

٥- احلق :

هو لفظ لا يعنى الذهاب إلى الحلاق لقص الشعر، لكنة يفيد تجاهل الغير مثل «احلق له» أى لا تفكر فيما يقول فهم لا يستحق، العلاقة هنا تأتى من المشابهة فى نتيجة فعل «الحلق» فقص الشعر يؤدى إلى تطايره حيث لا حاجة له فيتم التخلص منه بالقص، وكذلك فى العلاقات الإنسانية «احلق له» أى قص له موضوعه، أو تجاهله.

٦- إشاعاتى :

· وتعنى الشخص القادر على إصدار الشائعات بمعدلات سريعة.

٧- أتـارى :

مصطلح على سيارات الشرطة الخفيفة لمشابهتها بشكل السيارات الكارتونية فى الفيديو جيم والأتارى. كما أنه لها دلالة توضح رغبة عارمة فى التندر والسخرية.

٨- إحنا اللى بهيظنا الفهايص :

عبارة يطلقها قائد مجموعة من الشباب الفاسدين افتخارًا بنفسه، ومعناها أنا الذى جعلت الجميع يغيب عن الوعى «وواضح ما فى صياغته من تفخيم للذات».

٩- أوزى :

لفظ يطلق على الفتيات الصغيرات الجميلات ممن فى سن بنات المدارس الثانوية والإعدادية، وما شابه ذلك.

١٠- اشتغله :

أى إكذب عليه، ولا تعطه معلومات صحيحة، وقد تأتى فى يساق خداع شخص على سبيل الجد، أو على سبيل المزاح، فهم يقولون فى هذا السياق هذه العبارات «أكله البالوظة» «أون أستهبل عليه» وحينما يكون الشخص فطنًا، ويدرك ما يحاك له فيقول لمن يحاول إخداعه «إنت بشتغلف» ومن الاشتقاقات المتعلقة بها «اشتغاله» وتطلق على الواحدة من هذه الأفعال، كما تدل كلمة «شغال» على القيام بالفعل (الخداع).

١١- ابعته :

لفظ بمعنى اخدعه، أو اكذب عليه، حتى نسخر منه ونضحك على تصرفاته.

١٢- تشريد :

بمعنى إفشاء الأسرار أو الأخبار وهى تقارب الاستخدام العامى «ماتسيحش» والأخيرة قد تكون مأخوذة من الصياح بمعنى الجهر بصوت عال أو من السياحة بمعنى نشرها مع كل حركة، ومفردة تشريد تستخدم بمعنى عدة سياقات، ومنها «أناها أشرد لها» أى سوف أقوم بفضحها» «وبلاش تشريد» أى لا تنقل ما قلته لك.

١٣- ثبت :

ولهذه المفردة معنيان الأول هو «تثبيت فلان» أى سلبه معنى النقود أو الممتلكات فى الطريق العام قصرًا بواسطة التهديد باستخدام آلة حادة أو سلاح أبيض كأحد أفعال البلطجة.

أما المعنى الثانى لها فهو إقناع شخص ما بفكرة أو التغرير به فمثلاً إذا قلت كلامًا معسولا لفتاة وانجذبت إليك فأنت قد ثبتها.

كما أوضح العامة عن سخطهم على الأوضاع السياسية على الخطاب السياسى بسخريتهم منه وذلك بترديد معانى ساخرة من بعض مفردات الخطاب السياسى ومنها تفسيرها تلك المفردات كالتالى:

- العولمة: هى عملية تحول اجتماعى وثقافى وفنى تتزعمه العوالم.
- الشفافية : سمة ضرورية للملابس المستخدمة فى العولمة.
- الجات : مصيبة وجات على دماغنا.
- التنوير : عملية تتم فى الشوارع عندما يسكنها وزير.
- الخصخصة : تحدث فى الحدائق يوم شم النسيم مع أكل الفسيخ.
- صندوق النقل : ما يفرقش كثير عن صندوق الزبالة.
- النظام العالمى الجديد : وندوز إكس بى.

● أما النوع الثانى الذى يمكن رصدة فى لغة الشارع هو اللغة الخاصة بكل طائفة حرفية على حدة، ويمكن أن نرصد هنا بعض النماذج الدالة على ذلك ومنها :-

● لغة المنجدين :

● تستخدم هذه اللغة بين المنجدين والموبيليا، لاشتراكهما معًا فى احتراف التنجيد، وقد قاموا بتشفير أو ترميز هذه اللغة حتى يستطيعوا استخدامها داخل البيوت التى يقومون بالتنجيد فيها، إذ أن تنجيد «العفش» لا يتم خاصة فى الريف المصرى (إلا فى بيوت الراغبين أو بجوارها لعدة أسباب منها أن حاجات التنجيد كثيرة فلا يعقل حملها قطنًا وقماشًا ثم الإتيان بها مرة أخرى، فضلا عن فرحة الأهل والجيران بهذا الطقس الذى يصاحبه الغناء والتوزيع الشربات، كما أنه يقوم بالإعلان عن مقدم الزواج أو قرب الانتهاء من تجهيزاته، كما يتم خلاله عرض ما تم تنجيده كنوع من التباهى أمام المارة والجيران.

● فى هذا المناخ العلنى تأخذ اللغة السرية الخاصة بالمنجدين مجراها، ومعظم المفردات تتصل بالأكل، وبقدرة الزبون على الدفع، أو ما يتصل بـ ما يمثل عيبًا كوصف صاحب أو صاحبة البيت، ويتم إدراج مفردات هذه اللغة داخل جمل أو تركيب لغوى للتعمية؛ وقد تبدو الكلمات واضحة أمام المتلقى لكنها لا تعنى ما تم الاتفاق عليه وفى لغة التواصل ويمكن رصد بعض مفردات تلك اللغة:-

● ابعتها : اسكت.

● إبرة : بنت أو سيدة.

● العذيب : الرجل .

● ما حلى : حلو - طيب .

● العدوانة : اللحمة (لحوم).

- نقابل : نأكل .
- شاويش : أرز .
- أحبال : عيش بلدى.
- كيتان أو كيتانه : ليس أو ليست على ما يرام .
- المقطف : البيت .
- سبح : مكرونة .
- رآبص : يرانا .

هكذا تتكون جمل هذه اللغة من تلك المفردات كأن تقول (العديب - رابص) «أي الرجل يرانا»، إبرة كتيانه ، أي امرأة غير جميلة أو فقيرة وليست كريمة، حسب سياق الجملة.

لغة تجار الأقمشة .

الدفش : الزبون .

حزي نضار : بض أو شوف.

الدفشه السفاري : زبونه صغيرة السن.

الدفشة : الكباري : زبونه صغيرة السن.

الدفشة الكباري : زبوني كبيرة السن .

ماعوط : فلوس.

رجج مولود : حرامي.

ألخ : إمش.

ويحتل فيعل الأمر «حمزي» مكانًا رئيسًا فى تركيب هذه اللغة فهم يقولون:-

حزي قبل ما يألخ : أي قص القماش قبل أن يمشي.

حزى الدفايش : أى انده الزباين.

حزى مابوط : اقبض الفلوس.

الدفة من عينه : أى أنه زبون تعبان.

* * *

• مؤثرات سياسية وإعلامية

أزمة الثقافة عند الفقراء

أمانى مسعود

الإعلام وثقافة الفقراء

إيناس أبو يوسف

الأثرياء وثقافة الفقراء

أحمد المجدوب

الانتشار العالمى وثقافة الفقراء

سلوى بكر

التهميش السياسي أزمة الثقافة عند الفقراء

أماني مسعود

أزمة الثقافة عند الفقراء

أمانى مسعود

(تعتبر ثقافة الفقر «هى إحدى المشكلات التى يجب أخذها فى الاعتبار عند دراسة عناصر الخلل الاقتصادى والاجتماعى والسياسى وخصوصًا فى عملية التنمية والمشاركة السياسية فوجود أكثر من أربعمائة منطقة عشوائية فى مصر يسكنها أكثر من سبعة ملايين مواطن تسود بينهم ثقافة الفقراء والتى تتكون من مجموعة سمات أهمها تصاعد أعمال العنف التى قد تصل للإرهاب وخصوصًا أن البيانات تشير إلى أن أغلب حوادث السرقة وأكبر نسبة من المسجلين جنائيًا يقيمون فى هذه المناطق كما تشير الإحصائيات فى مصر إلى تزايد معدلات الفقر إذ وصلت نسبة السكان الذين يعيشون فى فقر مدقع فى القاهرة وحدها معدلات خطيرة ناهيك عن أن نسبة أخرى من إجمالى الحضر يعيشون تحت خط الفقر وقد واكب كل ذلك تزايد فى معدلات العنف مما يفرض معه دراسة دور سياسات الدولة فى بلورة ثقافة الفقراء وهى تلك الثقافة الفرعية التى تحدد دورًا مغزى مهم.

(وأذا أردنا الحديث عن ثقافة الفقراء «فيجب فى البداية أن نعرف ثقافة الفقر» إن تداخل مفهومى الفقر والتهميش السياسى لدى الفئة التى

تعانى من تدهور أحوالهم المادية والسكنية أفرز ذلك ثقافة فرعية خاصة بهم اصطلح نظريا على تسميتها بـ) ثقافة الفقراء ·والتى يعتبر الاغتراب والسلبية السياسية وتدنى الوعى السياسى أحد أهم مكوناتها السياسية.

ولقد لفت مفهوم «ثقافة الفقر» الانتباه إلى أن هناك فرقًا بين الفقر كمفهوم اقتصادى غير متفق على أبعاده وعناصره وكيفية قياسه وعدم قصوره على المناطق العشوائية فقط (على سبيل المثال)، وبين تفريخ هذا الفقر لثقافة خاصة به ليست بالضرورة حكرًا على سكان المناطق العشوائية متدنية المستوى العام وإنما من الممكن أن تتواجد هذه الثقافة ذات السمات الخاصة لدى أى شريحة من فئات المجتمع ككل.

وإذا حاولنا النظر إلى دور الفقر وثقافتهم فى مصر فى ظل سياسات الدولة فلابد أن نتحدث عن مفاهيم الفقر والتهميش إذ يرى الكثير من علماء الاجتماع الأمريكيين أن الفقر فى العالم الثالث هو سياق عام وليس قاصرًا على فئة بعينها ولكن هناك إجماع على أن من أهم سمات ثقافة الفقراء هو عدم المشاركة السياسية) ولما لذلك من تأثيرات نظرًا لكثرة عدد هذه الفئة (وأيضًا الحرمان المتعددة الأبعاد وانخفاض الدخل والحصول على المسكن والعمل الذى يضمن البقاء ولقمة العيش بصعوبة وأيضًا من سماته زيادة درجة الاغتراب الاجتماعى، كما أن هناك سمات أخرى تتمثل فى التردد وافتقاد الثقة بالنفس وتقلب المزاج والنظرة المتشائمة للمستقبل والخوف والريبة دائمًا حيال الآخرين تعتبر ثقافة الفقر المصطلح الأكبر شيوعًا بين سكان العالم الثالث حيث إن هناك دراسات عديدة أجريت على العلاقة بين ثقافة الفقر كثقافة فرعية وثقافة المجتمع كله. ويعتبر أوسكار لويس هو صاحب مفهوم ثقافة الفقر و أول من ربط الفقر بسمات ثقافية معينة فسمات الأسر الفقيرة التى تتبنى «ثقافة الفقر» هى التى ليس لديها إمكانيات توليد الذوات فهم أقل تعليمًا لا ينتمون لاتحادات عمالية، ليسوا أعضاء فى إضرابات سياسية لا يشاركون فى الحياة مما يؤثر بسلب على الحياة السياسية بصفة خاصة

فهم ينتقدون كافة مؤسسات الدولة ولايثقون فى الحكومة ويؤدى ذلك فى النهاية إلى تدنى درجة اندماج الفقير فى المجتمع وأنشطته، فالحقيقة أن مصطلح «ثقافة البسطاء هو ثقافة فرعية داخل الثقافة الأم للمجتمع، فثقافة الفقر هى رد فعل الفقير تجاه موقفة ووضعه.

وتمثل حلقة من جهود الفقراء ليتكيفوا مع مشاعر اليأس والإحباط حينما يعجزن عن تحقيق نجاح على أى مستوى فى مجتمعهم الأكبر، وأود هنا أن أقول «محو الفقر أسهل بكثير من محو ثقافته» والجدير بالذكر أن الفقراء يعلمون دائمًا على تخليد ثقافة الفقر حتى لو كان ذلك يحدث بشكل تلقائى فأطفال المناطق الفقيرة فى سن السادسة أو السابعة يتبنون التوجيهات الثقافية الرئيسية فى منطقتهم ويستوعبون نفسيا القيم الثقافية المحلية وبذلك يتم تبنى ثقافة الفقر وتوارثها من جيل لآخر.

وقد حددت بعض الدراسات خصائص ثقافة الفقر أنها: الصراع من أجل البقاء البطالة - انخفاض الأجور - انخفاض معدل الادخار انعدام الخصوصية - الوازع - هجر الزوجة الممارسة المبكرة للجنس الاستسلام والقدرية.

فالفقراء وفقًا لتلك الثقافة ذوو ولاءات تحتية لا يعرفون سوى مشكلاتهم وجيرانهم وطريقة حياتهم.

ومن ذلك نؤكد أن ثقافة الفقر لا تنتقل من جيل لآخر بحكم الوراثة بل تنتقل من جيل لأنه لم يتعلم غيرها.

وعندما نتحدث عن تأثير ثقافة الفقراء على سياسة الدولة إما بالسلب أو بالإيجاب فهناك مقولة تقول «الدولة - المواطن» فيجب أن ندرس ونتناول السياسات العامة ودرجة انحيازها أو حيادها مع مواطنيها فقد تكون الدولة استبعدت أو قامت بتهميش قطاعات شعبية معينة وإهمال لقطاع الفقراء وانحيازهم ضدهم فى سياستها وهذا هو الذى أفرز هؤلاء الفقراء.

فى الدولة النامية هناك ضعف للروابط السياسية بين الحكومة من ناحية وفقراء المدن من ناحية أخرى وفى ظل ضعف هذه الروابط يصبح العنق السياسى أمرًا مألوفًا.

وكثيرًا ما يعتبر العنف وعدم الاستقرار السياسى نتاجًا للحرمان الاقتصادى والفقر ولكن أيضًا فالتهميش الاجتماعى يعتبر نتاجًا لعجز الدولة عن بلورة سياسيات عامة غير منحازة لطبقة معينة داخل المجتمع وعجزها عن تحقيق الاستقلال النسبى والرضاء الجماهيرى الذى يحقق لها القوة.

وإذا أردنا التحدث عن مدى تأثير النظام السياسى بمصر على ثقافة الفقراء فإننا إذا تتبعنا سياسات الدولة فى مصر لنقيس ما إذا كانت الدولة بأجهزتها ومضامين سياساتها قد عكست تفضيلاتها أم تفضيلات طبقة اجتماعية تحقق لها الثراء والقوة وأيضًا ما إذا كانت الدولة فى مصر تاريخيًا قد استبعدت بعض الفئات الاجتماعية من عوائد النظام السياسى، وتأتى هنا السياسات العامة للدولة لتؤكد أن الفقراء مستهلكون فى حاجة إلى الطاقة (غذاء) ومتابعة (صحة) وتطوير (تعليم) ورعاية اجتماعية حتى يستطيعوا أن يؤدوا دورهم فى العملية التنموية، ويقودنا ذلك إلى دراسة إلى أى مدى لعبت سياسات الدولة فى مصر دوراً فى تهميش قطاعات اجتماعية معينة.

فعندما ننظر إلى السياسات الاجتماعية ويفترض أن ترتبط السياسة الاجتماعية عمومًا بالفئات الفقيرة طالما تهدف تلك السياسة إلى حماية فئات المجتمع الأقل دخلا ومواجهة متطلباتهم وإشباع حاجاتهم الأساسية وقد حصرت بعض الدراسات هذه الفئات الفقيرة فى المتعطلين وذوى المعاش، الضمان الاجتماعى، العاملين فى القطاع العام (درجة ثالثة فأقل) والعمالة الزراعية الأجيرة والعاملين فى القطاع الخاص غير الرسمى، ومنذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ والدولة تحاول مد مظلة التأمين بكل أنواعه إلى كل فرد فى الدولة وكانت أعباء الدولة قبل عام ١٩٧٥ قاصرة على

المعاشات الخاصة إلا أنه مع بدايات السبعينيات وزيارة حدة الفقر مصر صدر قرار ٦٦ لسنة ١٩٧١ بتأسيس بنك ناصر الاجتماعى ليساهم فى تشكيل المجتمع القائم على أسس الكفاية والعدالة والتعاضد إذ يقدم هذا البنك مساعدة مالية لغير القادرين بقروض دون فائدة للمشروعات الإنتاجية التى يقيمها الأفراد ولهؤلاء الذين يواجهون صعوبات اقتصادية واجتماعية، وهناك الضمان الاجتماعى وهو الذى تلتزم به الدولة وتهدف لضمان حد أدنى لمستوى دخل الفرد وحصوله على حق فى وقت الكوارث والحوادث وهو نظام شامل للتأمين والمساعدات العامة، وكذلك الرعاية الاجتماعية وهى مجموعة الجهود والبرامج التى تهدف لمساعدة من عجزوا عن إشباع حاجاتهم الضرورية ولم يتمكنوا من التفاعل مع المجتمع، وبالرغم من كل هذه الجهود إلا أن نسبة الأنفاق على الخدمات الاجتماعية وخصوصًا الخدمة الاجتماعية للفقراء (ليست على الوجه الأكمل إذ انخفضت من ٤,١٪ فى سنة ١٩٨٠ إلى ١,١٪ فى سنة ١٩٨٨والـلافت للنظر هنا أن الدولة تسعى لرفع معاشات طبقة اجتماعيه تعتبر عليا كالوزراء والموظفين العموميين ومن يعملون بالقطاع الحكومى لمواجهة التضخم وارتفاع الأسعار وتبقى فئه الفقراء والتى لا تزال فى قاع الهرم المجتمعى كما هى دون أية زيادات لتتدهور أحوال تلك الفئة العريضة التى لم تنجح الدولة فى تحقيق حد أدنى من مستويات المعيشة لها من خلال نظام التأمين الاجتماعى حيث اعتمدت الأسر الفقيرة على أبنائها حتى يتسنى لهم ضمان الدخل مستقبلاً بعد أن تخلت عنهم دولتهم ويعتبر ذلك هو عامل رئيسى فى تفشى ثقافة الفقراء بين هذه الفئات، ويبدو أن كافة التغيرات الاقتصادية فى مصر يتم تطبيقها بالفعل بشكل أسرع من أن تكون هناك شبكات أمان اجتماعية ملائمة لحماية هؤلاء الفقراء.

ومع الثمانينات صدر القانون ١١٢ لسنة ١٩٨٠ ليمد مظلة التأمينات الاجتماعية لفئات من البشر كانت محرومة من التأمين الاجتماعى

وشملت فئات مثل عمال التراحيل والزراعة المؤقتين وعمال الصيد وبائعى الجرائد ومنادى السيارات والباعة الجائلين وماسحى الأحذية وكل هؤلاء ومن المفترض أن يدفعوا اشتراكًا شهريًا (٣٠) قرشا ويحصلوا على معاش شهرى قدرة (١٢) جنيها عند بلوغها سن الـ (٦٥) والحقيقة أنه يحصل على هذا المعاش نحو نصف مليون مواطن وبلغت حجم تلك الفئة نحو (٤) ملايين مواطن.

ومن ذلك يمكن القول بأن الدولة فى مصر من خلال مضامين سياستها لعبت دورًا فى استبعاد بعض فئاتها من العملية التوزيعية وخاصة خلال فترتى السبعينيات والثمانينات وقد يكون هذا من أهم أسباب تعمق ثقافة الفقراء وانتشارها بين قطاع عريض من فئات المجتمع المصرى والذى أدى بدوره إلى إبعادهم عن لعب دورهم السياسى فى العملية السياسية للدولة.

فيوجد بالقاهرة بجانب إسكانها الرسمى الذى يقيمه القطاعان العام والخاص بترخيص حكومى ثلاثة أنواع أخرى من الإسكان خارج نطاق الإشراف الرسمى لأجهزة المدينة التخطيطية والإدارية وهى الإسكان العشوائى والإسكان الهامشى وإسكان المقابر والحقيقة أن الاهتمام بالعشوائيات لم يبدأ إلا مع أوائل التسعينيات وتشير إحدى الدراسات إلى أن عدد المناطق العشوائية فى مصر قد بلغ نحو (٩٦١ منطقة منها ٨١ منطقة يجب إزالتها فورًا ونحو (٨٨٠) منطقة يقترح تطويرها ويستلزم ذلك اعتمادات تصل إلى (٥٥٠ ,٢٥) مليون جنية، ويسكن كل هذه المناطق نحو ١١ مليون نسمة ولقد تم تطوير حتى مايو ١٩٩٦ نحو ٩٠ منطقة عشوائية.

إذا أردنا التحدث عن الدور السياسى للفقراء فى مصر وتأثير ثقافتهم على العمليةالسياسية فماذا نقول؟

● نطلق على الفقراء فى لغة السياسة (الشرائح المهمشة) وهذه الشرائح تندفع لمشاركة فى الاضطرابات السياسية نتيجة إحساسها بالظلم واتساع الفوارق الطبقية بينها وبين الطبقات الأخرى فهى شرائح تعيش على هامش ثقافتين فى المدن ونتيجة لشعورهم بضعف مكانهم السياسى فيستشعرون فى زعزعة أواصر النظام وهى بالطبع لا تخشى من مغبة أو نتيجة ذلك لإحساسها بالقهر الاقتصادى والاجتماعى.

● وهناك اتجاهات رئيسية لدراسة العلاقة بين ثقافة الفقراء وتأثيرها على السياسة.

١. فالفقراء منشغلون بأمور حياتهم طلبًا للرزق ويعود هذا الفقر الشديد للحالة السلبية واللامبالاة.

٢ - يمثل السكان الهامشيون قوة التغيير فى المجتمع وخاصة إذا ما قاموا بدور المعارضة ضد الأوضاع القائمة.

٣ - الفقراء ينخرطون فى أعمال العنف كرد فعل لما حل بهم (من ارتفاع نفقات الحياة أو أسعار الغذاء)

وهنا أستطيع القول أن سكان العشوائيات ليسوا كتلا بشرية فقط بل هم قوة سياسية أيضًا وبناء على ذلك فلاشك أن عدم إشباع حاجات المواطنين الأساسية فى هذه المناطق التى تسود فيها) ثقافة الفقراء (يترتب عليه عدم استقرار سياسى والدليل على ذلك حدوث أعمال عنف من الفقراء فعبر أربع سنوات ١٩٩١) (١٩٩٤) شهدت مصر (٧٥) احتجاجًا عماليًا.

والآن هناك سؤال أخير ألا ما الدور السياسى للبسطاء؟

فهم بشكل عام أكثر رفضًا للآخر سواء تمثل هذا الآخر فى الأغنياء أو الحكومة ولقد تأكدت الصورة السلبية للحكومة لدى الفقراء لقناعتهم

بضرورة تغيير الحكومة لأن سياستها منحازة ضدهم، ويمكن القول بأن للفقراء مفهوما خاصًا للسياسة إذ يغيب عن عقولهم السياسة بمعناها الفلسفى المرتبط بالحقوق والواجبات فلديهم القدرة على مناقشة مشكلاتهم اليومية ولكنهم لا يدرون ولا يتابعون إلا ما يمس حياة الفقراء وتمكينهم لزيادة اندماجهم مع المجتمع الخارجى ليس بصفتهم سكانا يعيشون على الهامش ولهم ثقافتهم الخاصة ولكن بصفتهم جماعات منسية من هذا المجتمع ومستعبدة من صانع القرار، ولذلك أقول فى النهاية إنه يجب إعادة اختيار مفردات «ثقافة الفقراء» سياسا على الطبقة الفقيرة فى مصر لأنهم لايبدون أى اهتمام بالعملية السياسية، لا يصوتون فى الانتخابات، وينقصهم الوعى السياسى..

* * *

دور الإعلام فى ثقافة الفقراء

إيناس أبويوسف

الإعلام وثقافة الفقراء

إيناس أبو يوسف

بدون شك الإعلام بالنسبة للفقراء هو الإعلام المرئى والمسموع فهو بالنسبة لغالبية الشعب المصرى الأداة الترفيهية والتثقيفية الوحيدة فى حياتهم فهم لا يملكون ما يمكنهم من أن يقضوا أوقات فراغهم بالخارج أو الاهتمام بالأنشطة؛ لأن الحياة بالنسبة لهم قاسية جداً، وبالتالى التليفزيون أو الراديو يعتبران الوسيلة الوحيدة للترفيه وقضاء وقت الفراغ وبالتالى يحصلون منه على بعض المعلومات أو الثقافات: وما إلى ذلك.

فالدراما مثلا بالإضافة إلى أنها أداة للتسلية يمكن للمشاهد أن يستخلص منها العبرة والعظة فهى فى الغالب محاكاة للواقع المعاش.

وبالطبع هناك بعض الأشياء التى لا تصدق لإنها بعيدة جداً عنهم، وأذكر حين قمنا ببحث عن الصعايده فقالوا إن الصعيدى الموجود فى المسلسلات لا علاقه له بواقع الصعايدة، وأنه لا يمكن أن تكون قضية الصعايدة هى حرق الأرض وقتل المواشى ولكن هناك أشياء بدون تتسلل إلى العقول والقلوب وبعض المفاهيم على فترات زمنية بعيدة تأخذ شكلاً آخر..

وطبعاً بالنسبة للحصول على معلومة ففى رأيى أن وجود قنوات عربية إخبارية وخصوصاً فى الأحداث التى مرت بنا فى الفقرات الماضية،

جعلت عددًا كبيرًا جداً من الفقراء حريص على أن يتابع مثل هذه القنوات الفضائية، خصوصاً أنه للأسف الشديد لا يجد ما يلبى احتياجاته بالنسبة لقنواتنا الأرضية التى لا تعطى نفس الجرعة من الأخبار أو المتابعة.

- فى رأيى أن المشكلة الأساسية فى الإعلام أنه لا يملك هوية، لا هوية قومية ولا هوية ثقافية، فالإعلام من الممكن أن يلعب دورا أساسياً فى الحفاظ على قيمنا الثقافية التى لدينا وتدعيم المداخل الحضارية الثقافية بمعنى أننا لدينا الآن قنوات فضائية مفتوحة ولا يستطيع أحد الحجر على الآخر.

لكن لو قدم الإعلام المصرى بشكل جيد وتقنية عالية وخصوصاً أننا لا نفتقد إلى إمكانيات سواء كانت مادية أو فنية أو تكنولوجية فنحن نملك كل ذلك لكننا للأسف الشديد لا نملك قاعدة قوية من الإعلام أو قيمة ثقافية تستطيع أن تجعل المواطن المصرى لدية قناعة بأهمية هذه القيم مهما تعرض بعد ذلك لقنوات تحمل قيمًا أخرى، لأننا للأسف نظلم القيم ونقدم أشياء كثيرة متضاربة مع بعضها ويرجع ذلك إلى أمرين.

إن موقفنا أصبح أضعف من قنوات فضائية كثيرة جداً، فقد كان لنا المبادرة وسبق الإعلام المصرى كل ذلك ودربنا هؤلاء الإعلاميين ومنهم الكثيرين الذين تعلموا فى كلية الإعلام وكانت النتيجة فى النهاية أنهم سبقونا، ونحن تقهقرنا نتيجة عوامل كثيرة دخل فيها أن القائمين بالاتصال ليس لديهم الثقافة الكافية وكذلك الوساطة والمحسوبية وعدم الاستعداد لتقديم جديد وكل هذه العوامل آثرت بدون شك على ثقافة الفقراء.

فالثقافة التى تقدم للفقراء من خلال وسائل الإعلام لا أرى فيها انتماء أو احترام يقيم التعليم والمهنة، فقد أصبحت القضية هى أننا نقدم رجال أعمال فجأة أصبحوا من الأثرياء ولا تعرف متى تم ذلك ومن أين وكيف جاءت كل هذه الأموال الطائلة.. ولا يعكس الواقع كل ذلك.

فكأننا نقول للناس جربوا الفهلوة والتحايل على القانون ولا نقول للناس هناك قيم أخرى غير المال أبقى فى النهاية مثل قيمة العلم والامتهان بمهنة معينة، ولكننا للأسف الشديد لا نقدم ذلك.

وعلى الجانب الآخر، فلدينا تغريب شديد جداً فى المضمون وفى الشكل، فإلى الآن نقدم فناجين الشاى كأن فى الثقافة المصرية هناك من يشرب الشاى فى الفناجين وأطقم الشاى ولديه السفرجية والشغالون، ويقدم هؤلاء على أنهم طبقات وسطى يعيشون، فيلات وقصور، ناهيك عن البرامج التى تكون عبارة عن ترجمة حرفية لبرامج ليس لها علاقة بواقعنا واحتياجاتنا وأضف إلى ذلك أنها شكلاً وموضوعاً ليس لها علاقة بثقافتنا.

هل يستمد المجتمع المصرى قيمه وثقافته من الإعلام؟

ويطبقها كما هى لا أقول إن هناك من يقلد الإعلام، ولكن واضح أن هناك من يقلد الإعلام، ولكن واضح أن هناك تخبط فى الإعلام، وبما أن هناك تخبطًا فنحن لا نضمن فى أى ظرف يرى المشاهد ذلك، وما هى درجة استيعابه لما يقدم له وللأسف الشديد عنصر المشاهد لدينا مغيب فلا يوجد أبحاث ضخمة جدا ولا طويلة المدى خاصة بآراء المشاهدين، وتوجد لجنة تابعة لاتحاد الإذاعة والتليفزيون تقوم بعمل استطلاعات للرأى ولكن فى موضوعات محدودة جداً وأغلب الأسئلة تكون عامة، وليست متعمقة أو خاصة بالغرس الثقافى والاجتماعى بل كلها ما هى البرامج التى تعجبك وتوقيتها، أى أنها خاصة بالتقنيات وليس القيم الثقافية والاجتماعية.

ولذا فعندما يقول بحث اجتماعى مثلاً أن رجل الأعمال قفز إلى المرتبة الأولى فى أولويات طالبات الجامعة، ففى رأيى أن هذا نتيجة الدراما التليفزيونية وتقديمها لهذه النماذج بدون توضيح والثقافة الخاصة بهم، وكيف تعلموا وماذا فعلوا فى حياتهم والجهد المبذول للوصول إلى

هذه المكانة فنجد أنه بين حلقة وأخرى الأبطال تركب السيارات الفارهة وغير محتاجة للتعليم، بمعنى أن أغلبهم تجار وغير متعلمين، وطبعاً ليست هذه القيم المطلوب التركيز عليها ثقافياً ونحن نبدأ القرن الواحد والعشرين فلابد أن يكون التاجر والفلاح متعلم، والتأكيد على هذه القيم فنحن فى حاجة إلى التاجر والفلاح والعامل ولكن يجب أيضاً أن يكونوا متعلمين، لأن مأساتنا عربياً أن لدينا نسبة أمية عالية جداً.

- هل هناك واقعية معينة نجح فيها الإعلام فى تغير نظرة المجتمع لفكرة معينة.

- لكى لا تكون مجتمعين، حدث على فترات زمنية طويلة أن أثر الإعلام على المجتمع، ولى رأيى أن التليفزيون فى بدايته كان مبدعًا وهذا الإبداع أدى إلى غرس قيم عظيمة جداً من بينها تعليم الفتيات فمقولة أن البنت لابد أن تتعلم وتصل إلى الجامعة كانت هذه القيم موجودة فى فترة الستينيات وقدمت فى أشكال كثيرة جداً وكان هناك دفع مجتمعى لهذه القضية، وتدخل هذه القضية ضمن قضايا كثيرة نجح فيها التليفزيون، لكن للأسف تحول التليفزيون فى الفترة الأخيرة من مبدع إلى ناقل، فمسألة النقل أنتجت خللاً ما وأصبح عرض القضايا الخاصة بالمرأة مثلاً أو الطفل بشكل فج، وكأنه لا توجد مشاكل حقيقية وإنها دعاية جوفاء، رغم أن ذلك ليس صحيحاً، فكلنا يعلم أن لدينا مشاكل خاصة بالمرأة والطفل ومشاكل اجتماعية ضخمة لكن طريقة المعالجة تتم بشكل فج جداً فيؤدى ذلك إلى رفض المتلقى لها، والقول أن هذه الإعلانات والدعاية ليس لإرضاء (س) أو (ص) (من الناس فقط. وهذه هى مشكلتنا فى الإعلام).

- والمسألة الأخرى هى أننا ليس لدينا استقرارية بمعنى أن تقوم بحملة ما فى هذه السنة وتنتهى الحملة، وتبدأ أخرى ثم تنتهى وهكذا.

فنلاحظ عدم الاستمرارية والتواصل وبالتالى القدرة على التأثير فى هذا الإطار تقل، كما أن لدينا ولعًا بالتغطيات الاحتفالية والمهرجانات

والافتتاحات وما وراء كل ذلك لا يعنينا وبالتالى فهذا تستطيع للمسائل وللجهد المبذول فى هذه المؤتمرات سواء كانت عملية أو حتى احتفالية خاصة بحدث معين وراء جهد ولكن لا يظهر إلا الاحتفالات والرسميات ولهذا فالناس لا تجد نفسها فى التليفزيون فلا يجد المشاهد العادى من يشبهه بل يجد المسئولين الرسميين مختلفى الشكل عن معاناة الفرد العادى، وهذه أيضاً قضية أخرى وأن يقوم بما يسمى بالحملات الطويلة والتى تأخذ أشكالاً متعددة لكى تستطيع مثلما كان يؤثر فى الماضى.

تأثير الإعلام على اللغة العربية

التباهى بالمصطلحات الأجنبية قضية مهمة لا يمكن أن يكون هو من يحمل ثقافة البلد أو الأمة، وحتى لو كان يستخدم لغة عامية أو لغة بسيطة لكى ينزل بها إلى الناس، ولكن للأسف ظهرت أنواع من الصحف تستخدم ألفاظًا وكلمات وتغيرات غربية وهذه مأساة، فهذه التغيرات باللغة العربية وتساعد فى إضعاف الذوق العام، وأريد أن أقول أن هناك أغنية أجمع كل النقاد والفنانين والملحنين وكل من هو متخصص فى الموسيقى بأن هذه الأغنية لا علاقة لها بالكلمات أو اللحن أو الصوت، وفوجئت من عضو فى لجنة المؤلفين والملحنين أن هذه الأغنية عرضت فى المحطات العربية الصيف الماضى ٢ مليون مرة وهذا بالطبع هبوط بالذوق العام، بمعنى أن يحاصر المشاهد بهذه الأغنية بهذه الطريقة يحدث له هبوط بالذوق العام لمصلحة من كل هذا لا أعرف.

لقد قيمنا الفضائيات خطأ، فلكى ننافس كان لابد من المزيد من العرى والمزيد من المشاهد واللقطات الخارجة التى تعرض على أساس المنافسة، لكى يكون لنا السبق فى هذا التنافس فى رأيى أن هناك محطات فضائية عربية محترمة جدًا عرفت كيف تجذب المشاهد بدون وجود هذا الأسلوب وذلك بالفكر والجرأة ما زلت مصره بأننا نستطيع عمل ذلك عندما ننتقى المشتغلين المؤهلين والمتدربين جيدًا فيكون لدينا ذلك ونبعد عن القنوات

الفضائية التى تقدم مالا يقدم حتى فى القنوات الأوربية أو الأمريكية، وحتى فى المجتمعات التى تقبل ذلك فلابد أن يكون لديها مبرر لتقديمه على الشاشة، ولكن لا بوجود مثلا مذيعة تقدم نشرة الأخبار وتظهر بمظهر مبالغ فيه، وهذا غير معقول فلم أر مثل هذا فى رأى دولة غربية سواء كانت أوروبا أو حتى الولايات المتحدة الأمريكية، ويلتزم وجود مبرر لذلك، فنحن نتصور أن التنافس فى المظهر فقط.

مظاهر هذا التأثير يظهر فيما تراه الآن فى الجامعة مثلا فلم يعد هناك وسط فأصبح هناك فئة مغترية جدًا أو فئة متحجرة جدًا فقد انتهت الوسط، لأن هناك من صدم فهرب من الواقع وبحث عن أفكار أكثر من العادى.

أو أن يحدث العكس بأن تتسلخ الناس عن المجتمع وتصبح مغترية جدًا وهذا ما يحدث فى الشارع الآن.

فلا أجد من يشبهنى أو يشبه الأشخاص العاديين تأخذ المسألة بالوسطية، فنجد الغالبية العظمى من الناس متشددة على طرفى النقيض سواء على اليمين أو لليسار وفى كلتا الحالتين عندما نبعد عن الوسطية تكون فى مشكلة.

ولابد أن يعد الإعلام قضايا مجتمعة وليست القضية هى تحسين صورتنا أمام الآخرين بل الآخرين يحترمون جدًا من يحترم مجتمعه والواعى لقضايا وأولوياته وبذلك سوف تتغير نظرتهم لنا عندما نكون أكثر واقعية وصراحة مع أنفسنا لكن ما نفعله للأسف غير حقيقى فنحاول تحسين صورتنا بالباطل وهذا يؤدى إلى أن نفقد جوهرنا الداخلى ولا نصدق خارجياً.

معروف عالمياً أن قراءة الصحف أصبحت أقل وأن من يقرأها من هم فى أواسط العمر أو متقدمو العمر، وهى مشكلة أساسية للصحافة، كما أن الشباب الذى يقرأ يكون من خلال الحاسب الآلى وشبكة المعلومات

الدولية لكن لا يوجد قراءة فالعولمة طرحت ثقافة الصورة بشكل أساسى ودقيق وبالطبع الشباب الموجودة فى المدن أكثر تفتحاً من شباب الريف، والطبقات المتوسطة أكثر من الطبقات الدنيا كل هؤلاء يتعرضون للوسائل الحديثة فى المشاهدة لكن لا يوجد تحت أيدينا فعلياً أبحاث كبيرة تعطى مؤشرات أو نسب خاصة بماذا يشاهد المراهق أو طلبة الإعدادى أو الجامعة مثلاً.

فالواقع أن الأبحاث معظمها فردية، وتكون العينة قليلة العدد وبالتالى يصعب أن تمثل المجتمع.

ومن هنا أتمنى أن تتبنى المراكز البحثية هذه المهنة، وأن تقوم بعمل أبحاث كبيرة، لأنه يتطلب مركزًا بحثيًا يقول لنا أين نحن لأن مثل هذه النتائج لا يستطيع أحد أن يستشفها بسهولة.

وأذكر أن آخر بحث قمنا به فى اتحاد الإذاعة والتليفزيون كان فى صعيد مصر عن برامج المرأة ووجدنا أن ١٠٦٠ من العينة لا يملكون تليفزيونًا، والكل متصور أنه أصبح شيئًا بديهيًا.

ـ إذًا عندما يتم عمل مثل هذه الأبحاث وتظهر النتائج احتياجاتهم ويتم توجيه الراديو إليهم عوضاً عن التليفزيون.

فنحن فعلاً بحاجة على أبحاث تعطينا صورة بانورامية لعلاقة الناس بالإعلام ومدى تأثرهم به وما هى القنوات التى يصدقها المجتمع وما هى نوعية البرامج المفضلة لديه وهذه مسألة أساسية.

* * *

الأثرياء وثقافة الفقراء

أحمد المجدوب

الفقر له معان مختلفة وحين أقول الفقر لا أعنى الاحتياج فقط ولا أعنى هبوط المستوى المادى لمجتمع إلى مستوى أقل من مثيله فى البلاد الأخرى ولكن الفقر الحقيقى قد يكون لأناس ميسورى الحال ولكن طريقتهم فى التصرف فى ثرائهم فقيرة غاية ما يكون الفقر وهذا ما يطلق عليه بثقافة الفقراء فالفقر ليس وضعاً اقتصادياً فقط ولكنه وضع من أوضاع البشر وضع عام يتصرف فيه الإنسان بفقر ويفكر أفكارًا تؤدى إلى فقر أكثر واحتياج للغير أكثر بمعنى آخر هو مرض يصيب الاقتصاد ويصيب العقول ويصيب الخيال أيضاً.

هناك فقراء يعيشون بصعوبة ولكن ثراءهم الروحى يتيح لهم أن يستمتعوا ويمتعوا من حولهم.

إن ثقافة الفقراء تفرز فى النهاية أفكارًا فقيرة ومعتقدات أكثر فقراً وقد حوصر الفقراء والذين يعتنقون ثقافة الفقر إلى اللجوء لفهم خاطئ تماماً للذين ودائماً ما يرددون مقولة الإمام على كرم الله وجهه التى تقول «لو كان الفقر رجلاً لقتلته». فالحقيقة أن هناك ثقافة عامة وهناك ثقافات فرعية وهذه الثقافات تختلف أولاً باختلاف المستوى الاقتصادى والدخل.

وثانياً حسب المهن وأحياناً تختلف الثقافات باختلاف الموقع فمثلاً ثقافة الصعيد مختلفة عن ثقافة الوجه البحرى وهنا عندما نقيس ثقافة الفقراء فهذا يعنى مصطلحًا غامضًا ومضللاً لأن الفقر فى حد ذاته ليس ثقافة وإنما هناك عوامل مختلفة تكون ثقافة من بينها المستوى الاقتصادى الذى يلعب دورًا فى تواجد ثقافة فرعية لها سمات خاصة بها تجعلها تختلف تماماً عن الثقافة العامة للمجتمع ككل، فمثلاً عندما ننظر لإحدى المناطق العشوائية التى تعانى من الفقر نجد ثقافة متدنية جداً توجد فيها ليس فقط السبب هو الفقر وإنما أيضاً لعدم وجود بنية تحتية مثل الصرف الصحى ومياه نظيفة صالحة للشرب وشوارع نظيفة ونظام فى طريقة تهوية المساكن وكل هذه العوامل تلعب فى المناطق الراقية تكون هناك العادات والتقاليد وأسلوب معين فى الحياة وسلوك للأسرة وخصوصية فى المنزل واستقلال تام عن الجيران لكن فى الأماكن العشوائية تختلف المسألة تماماً فليس هناك شىء يسمى خصوصية فالبيوت متداخلة والأبواب مفتوحة ليلا ونهارًا والذى يقال داخل المنزل يذاع بالخارج وإلى آخر ذلك وهذا هو ما يسمى بثقافة الفقراء، إذًا فالظروف المختلفة تتفاعل مع بعضها البعض لتفرز الثقافة وليس فقط الفقر أو الغنى وأود هنا أن أعطى مثلاً دائماً ما يغيب عنا فاليوم لدينا شريحة فى المجتمع أطلق عليها رجال الأعمال "الذين يحاولون أن يصنعوا من أنفسهم طبقة عليا بعد أن كانت مصر ليس بها طبقة عليا من أيام الرئيس الراحل عبد الناصر عندما قضى على أصحاب الملكيات والمصانع والشركات بعد الثورة ثم حاول بعض ضباط الجيش أن يصنعوا طبقة ولم ينجحوا فى ذلك ولعل أهم الأسباب فشلهم هى أن «الطبقة» ثقافة قبل كل شىء والثقافة لا تشاع بين يوم وليلة وإنما هى أسلوب حياة وطريقة تفكير ووعى للعلم فالطبقة تحتاج إلى أكثر من مائة عام لكى تتكون، وهنا نلاحظ أن هذه الطبقة الغنية ثقافتها هى ثقافة الفقر لأنهم جاءوا من الطبقة الدنيا أو من الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى وأحضروا معهم

ثقافتهم والدليل على ذلك أننا إذا نظرنا للكتاب فنجد أن حالته تتدهور والصحف تبيع أقل والأغانى فى هبوط مستمر والمسرحيات تدنى مستواها وكل ذلك لأن هذه الطبقة المقتدرة هى التى تشترى وهى التى تسمع الأغانى وتدخل المسرحيات وهذه هى ثقافتها، وبالتالى فهم فى الظاهر طبقة عليا ولكن عندما تنظر فى ثقافتهم نجدها ثقافة متدنية، ونلاحظ أن الخروج عن القانون عندهم متاح وهذا لم يكن أبداً موجود فى الطبقة العليا القديمة بالعكس فهى كانت حريصة جداً على سمعتها وسلوكها ومظهرها، ونجد أيضا أن الطبقة العليا الموجودة عندنا الآن يتسمون بغرور المال الذى جاء نتيجة للثراء السريع الذى جعلهم يتحدون القوانين ليقولوا نحن هنا وهى "ثقافة الفقراء" بعينها وليست ثقافة الغنى التى تسود فى الطبقة العليا.

وهنا أقول إنه ليس الغنى وحده أو الفقر وحده الذى يصنع ثقافة معينة فرعية كانت أو رسمية وإنما هى مجموعة من العوامل التى تتفاعل مع بعضها لكى تخرج ثقافة ما.

والدليل على أن ثقافة الوجه القبلى مختلفة تماماً عن القاهرة وعن الوجه البحرى والسبب فى ذلك هو الطبيعة (البيئة الطبيعية) اختلاف طبيعة الحياة هناك ويأتى عامل الفقر أيضاً متمثل فى ضيق الرقعة الزراعية فهى محدودة جداً وكثرة الناس ومع كل ذلك انخفاض الناتج المحلى وأيضا وجود إهمال من جانب الحكومة المركزية فكل هذا أنتج ثقافة فرعية هى ثقافة الفقراء وناهيك عن وجود نوع من الشدة والقسوة وغير ذلك من الأمور التى أنتجت كلها نوعًا من البشر متحدين جداً ولهم طبيعة خاصة وفكر متشدد ومختلف وهنا يأتى السؤال:

فهل من الأفضل أن نوحد الثقافة؟!

لابد أن أشير إلى أنه فى وقت من الأوقات كان ذلك هدف الحكومة المصرية وخصوصا أيام الإرهاب فقد اعتقد البعض أن القضاء على

الإرهاب سيتحقق إذا جعلنا ثقافة الكل واحدة، ولكنى كنت من المعترضين بشده وذلك لأنه من المستحيل أن يكون هناك مجتمع له ثقافة واحدة فهذا شىء ضد الطبيعة، وهناك مثل أبسط ففى المنزل نجد الزوج يحب الموسيقى القديمة على سبيل المثال والزوجة تحب الأغانى السريعة وهكذا فلابد من وجود الاختلاف فتواجد الثقافة الواحدة فى المجتمع الواحد هذا ضد الإبداع.

فببساطة وجود ثقافات فرعية إلى جانب الثقافة العامة يؤدى إلى وجود تصارع الأفكار بحيث يكون دائماً هناك الجديد ويكون هناك مجال للإبداع والابتكار والخلق على عكس لو كنا جميعاً ننتهج ثقافة واحدة فنصير كأيام الزعيم جمال عبد الناصر عندما أنشأ اتحادًا اشتراكيًا موحدًا.

وأود هنا إن أقول ثقافة الفقر التى ينتهجها الفقراء ونطلق عليها ثقافة الفقراء ليست عيباً فمثلاً نجد فى الريف أيام الامتحانات كان هؤلاء الفقراء يذاكرون دروسهم تحت أعمدة الإنارة وهذا نوع من أفضل الاعتماد على النفس بعكس الطالب المدلل الذى لا يذاكر فهو يتسم بالوصولية ودائماً يقول "هل من مزيد".

(مدى حضور التراث بشكل عام على الفنون الشعبية والعادات والتقاليد للناس الذين ينهجون ثقافة الفقراء)..

أولاً - فهؤلاء الفئة غير متأثرين بالمرة بالتراث والدليل على ذلك أنه قديما عندما يكون هناك فرح كان الرجال يجلسون بمفردهم فى حجرة والسيدات يفرض بطريقتهن فى حجرة أخرى لكن الآن السيدات والرجال يتواجدون فى مكان واحد وعندما يعرض ذلك بالخارج أو أمام أى أجنبى ليس من هذه البلدة فقد يقتنع أن هذا هو الفن الشعبى الأصيل وهذا بالطبع يعتبر تدخلاً سلبيًا فى الفن الشعبى أفقده حريته وجماله فالفن الشعبى ميزته الأساسية فى التلقائية والعفوية التى يقوم عليها وهذا غير

موجود فى الفن الشعبى المصرى الذى نراه الآن، أما إذا أردنا الحديث عن العصر الفرعونى مثلاً بشكل خاص فيجب هنا أن أشير إلى أن العصر الفرعونى ليس عصراً واحداً وإنما هو عصور مختلفة وقد تعرضت البلد فى هذه الفترة لغزوات عديدة وكانت كل غزوة تأتى بثقافتها التى تتفاعل مع الثقافة الموجودة وينتج عن ذلك ظهور ثقافة جديدة.

فالثقافة كائن حى يغير ويتغير ويتشكل فى ضوء متغيرات كثيرة على مدى التاريخ ولذلك نستطيع القول إن الثقافة المصرية العربية ليست ثقافة إسلامية خالصة أو عربية خالصة.

فبالرغم من أننا كلنا عرب إلا أننا مختلفون فى الثقافة فمثلاً نحن وسوريا مختلفون مع أن أصولنا كلها عربية لكن هناك عوامل أثرت وأدت إلى هذا التباين الذى قد يشتد أو يخفت حسب ظروف كل بلد فتلاحظ أن الفروق ضئيلة بيننا وبين سوريا ولكن بيننا وبين المملكة العربية السعودية على سبيل المثال كبيرة وذلك لأن السعودية لم تتعرض من قبل فى تاريخها للاستعمار ولا لفتح أو لغزو ولم تتأثر بثقافات أخرى بل إن ثقافتها هى الثقافة الإسلامية القديمة، وإنما نحن نتغير باستمرار بدءاً من الحملة الفرنسية وما تلاها تباعاً على التاريخ المصرى، ففى النهاية أقول إن ثقافتنا فى مصر هو توليفة من الثقافات المختلفة التى تعاقبت فى مصر على مر العصور وأثر ذلك على موقع مصر الجغرافى الذى جعلها معبراً وجعلها هدفاً فى نفس الوقت لجيرانها.

ولى كلمة أخيرة وأود أن أقولها عن" ثقافة الفقراء " التى هى تعتبر ثقافة الأغلبية العظمى من فئات الشعب المصرى وهى أنه فى مصر سهولة كبيرة جداً فى استقبال كل جديد وغريب كما أننا أكثر الشعوب العربية إقبالا على التقليد حتى لو كان أعمى لأننا اعتدنا على هذا فمثلاً عندما ظهرت فكرة المسرح فى أوروبا جاء إخواننا من الشام وفتحوا المسارح فى مصر فارتادها الشعب المصرى واستمر فى التردد عليها وللعلم فنحن الدولة العربية الوحيدة التى بها حال المسرح نشط وسارعنا

أيضاً بإصدار الجرائد أول ما ظهر هذا فى العالم أنشأنا أيضا السكك الحديدية وهكذا، فطبعاً اعتيادنا على التلقى جعل لدينا سهولة كبيرة جداً فى قبول كل جديد وغريب وهذا من شأنه أن ينشأ ثقافات فرعية وثقافات رسمية ويتخذ الفقراء فى وسط هذا كله ثقافة لهم يستطيعون فهمها ونهجها وهى ما تسمى "بثقافة الفقراء".

الانتشار العالمى وثقافة الفقراء

سلوى بكر

تتباين الثقافة داخل المجتمع الواحد، وفقاً للوضع الاقتصادى، الاجتماعى، للجماعات، الشرائح، الطبقات المختلفة الموجودة بذلك المجتمع، والقاسم المشترك الأدنى المشكل بعناصر هذه الثقافة هو ما يمكن أن يطلق عليه الثقافة القومية، وعلى مر التاريخ المصرى فإن الغالبية العظمى من المصريين كانت من الفقراء، وقد استطاعت هذه الغالبية وخلال ذلك التاريخ الممتد إنتاج ثقافتها الخاصة والمغايرة لثقافة السلطات الحاكمة، وخصوصاً أن هذه السلطات على الأغلب كانت تكريماً لاحتلالات أجنبية غريبة عن نسيج المجتمع المصرى المتوحد والمندمج منذ عصور تاريخية سحيقة.

وقد غلب ثقافة الفقراء المنهكين بالعمل الشاق سعياً وراء الرزق الطابع الشفاهى، ورغم هذه الشفاهة، فقد استمرت هذه الثقافة وتواصلت عناصرها على مر الأزمنة، بينما توارت ثقافة السلطات الحاكمة، فالمسرح الفرعونى المقدس الذى ظل حبيس جدران المعابد غربت شمسه بينما استمر المسرح الشعبى الجوال، والذى كان يجوب صاحبه البلاد من الجنوب إلى الشمال، رغم اضمحلال الحضارة الفرعونية، ويتسرب فى

مسارب مسرح السامر وخيال الظل والحكواتى وغيره من الأشكال الشعبية المعبرة عن ثقافة الفقراء ويتم إنتاج ثقافة الفقراء ضمن شروط اقتصادية اجتماعية صعبة، فلدى الفقير لا يوجد فائض يُنفق على الثقافة فالثقافة يجب أن تكون ذات قيمة نفعية استعمالية مباشرة وواضحة وتعبر عن الحال هماً وفرحاً ولا توجد مسافة واضحة وكبيرة بين المنتج والمستهلك لهذه الثقافة، فشاعر الربابة، أو مطرب السامر، أو صانع تمثال "شكوكو" الذى يبيعه مقابل زجاجة، هو يعيش ضمن الشروط المعيشية التى يحياها مستهلك سلعته، وتلعب الأمية وتدنى المستوى التعليمى دورا واضحاً فى تكريس ثقافة الفقراء، والتى باتت تتأثر بمؤثرات خارجية عنها بسبب سطوة الإعلام والمتغيرات العالمية، وتدّخل التكنولوجيا فى المنتج الثقافى بصفة عامة فأصيبت هذه الثقافة الفقيرة بتشوهات، وعناصر رداءة أفقدتها الكثير من براءتها وأصالتها القديمة مثلما جاءت الفقراء أنفسهم كتلة سكانية عشوائية وخصوصاً فى المدن الكبرى يصعب تصنيفها ضمن قوى منتجة بعينها كقوة الفلاحين الفقراء أو العمال الصناعيين الفقراء أو الحرفيين وأصحاب المهن الفقراء.

ثقافة البسطاء والإعلام

يدخل الإعلام الراهن على مستوى العالم ضمن دائرة اقتصاديات السوق المهيمنة، وأهدافه وثيقة الصلة بهذه الاقتصاديات، والخدمة الثقافية فى هذا الإعلام تأتى ضمن هذا الإطار، وعلى عكس ما تم خلال فترات الاستقلال الوطنى، ومحاولة التحرر من اقتصاديات السوق، والتى كان يتم خلالها تقديم ثقافة من خلال الإعلام، تنمو نحو تنمية المجتمع بالثقافة، فإن الإعلام الحالى يتوسل بالثقافة للتخديم على اقتصاديات السوق وتتضح هذه المسألة أكثر ما تتضح فى الإعلام المرئى، والذى يتشكل أساساً ويقوم على دور يتلخص فى التعريف بالسوق لدى أوسع جمهور ممكن وتشكيله ثقافياً ووجدانياً للتعامل مع هذا السوق

الاقتصادى، فالبرامج والمواد الإعلامية فى مجملها تحولت إلى مساحة زمنية تملأ وتسد الفراغ الزمنى بين الإعلان عن منتج اقتصادى ومنتج آخر، لذلك فمسلسلات "أوبرا الصابون" وبرامج الـ"talk show" واللقاءات مع نجوم السينما والتليفزيون إلى آخره هو المعطى الإعلامى اللازم فى هذه الحالة، ومن هنا فثقافة المجتمع "القومية" أو ثقافة أوسع تجمعات شعبية "ثقافة الفقراء" تتراجع وتغيب ضمن هذا الدور الإعلامى الحديث المشار إليه، فالإعلام المرئى قد يستهدف التعبير عن ثقافة المجتمع وثقافة الشعب وتنميتها ولكنه يستهدف تحويل أوسع جمهور، وأوسع شرائح اجتماعية، إلى مستلكين عبر إعادة هيكلتها ثقافياً لتكون مهيأة لحالة التلقى الاستهلاكى.

غرابة ثقافة البسطاء

سادمفهوم الاغتراب فى أدبيات علم الاجتماع للدلالة على جنوح الإنسان الشرقى نحو الثقافة الغربية التى تكرست بفعل عهود الاستعمار الأوروبى الطويلة وسرعان ما استخدم هذا المفهوم للدلالة على شعور الإنسان المستعمر ثقافياً بفقده لعناصر ثقافته الأصيلة ومقوماتها المانحة لهويته الثقافية المميزة، إلا أن ما يحدثه الإعلام الآن يتجاوز ذلك الوضع، فهو يحدث نوعاً من الغرابة الإنسانية وليس الاغتراب لدى الإنسان الفقير، فالإعلام الحالى يعمل على تدمير وتحطيم كل مكون ثقافى للإنسان الفقر أولاً، ليتم ملء وشغل ذلك الإنسان بمكون ثقافى جديد لا يعبر عن متطلبات ثقافية حقيقية لذلك الإنسان تقوم على الجانب النفعى الاستخدامى المعين له على مواجهة العالم وصعوباته، باعتباره مساحة تعبير ممكنة، لكن ذلك الإعلام وهو يعمل ضمن شروط السوق المفروضة وفقاً للعولمة، يكرس احتياجات ثقافية وهمية ومفاهيم تتعامل مع الإنسان كما فى المقام الأول، فالكم هو سؤال السوق والاستهلاك أولاً، وهكذا فالغرابة الإنسانية التى تهيمن على مجموعة نسوة فقيرات يشاهدن

مسلسلاً مكسيكياً أو عربياً على شاكلته "أوبرا صابون" تنتج عن عناصر الإبهار المصنوعة والمشكلة من أناس بالغى الأناقة يتحركون فى بيوت وأماكن ويعبرون عن هموم لا علاقة لها بهاتيك النسوة وإعادة إنتاج مفهوم المرأة يتم من خلال تلك أيضاً فالمرأة وفقاً لهذا النوع من المسلسلات تتمتع بمواصفات نوعية لا علاقة لها بالمتفرجات من هؤلاء النسوة.

إن إعادة تشكيل مفاهيم / قيم ثقافية تتعلق بالذات/ النوع، عبر هذا الإعلام السوقى "نسبة إلى السوق وأن تجعل الأمر تأويلاً لفظياً آخر"، يؤدى إلى بروز ما يسمى بـ"ثقافة الوهم" وهى الثقافة التى تلبى حاجات فعلية للفقراء، ولا تستند إلي معطيات واقعهم الفعلى، وتعمل على فصمهم عن مكوناتهم الثقافية الأولية التى جاءت كمنبثق طبيعى عن حياتهم المعاشة.

إعلام السوق والعنف الاجتماعى

عبر تكريس نموذج لا يمكن تحقيقه فى الواقع، وعبر تخليق غرابة إنسانية، إذ يتحول الفقير إلى كائن تم نفيه وإبعاده باعتباره لا يمثل النموذج/ السوبر الإعلامى، فإن حالات عدم الانتماء إلى الهيئة الاجتماعية، وكراهية الذات باعتبارها ذاتاً غير مطلوبة، فإن العنف سيصبح سلاحاً مطلوباً سعياً إلى التوافق المطلوب سواء مع الذات أو مع الآخرين فى محيطها، كما أن تدمير عناصر كل ثقافة قومية عبر هذا الإعلام سيؤدى بالضرورة إلى بروز ظاهرة أنا فى مواجهة آخر، بدلاً من ظاهرة أنا ضمن أنا جمعية يلضمها نسيج هذه الثقافة القومية.

إن تقديم برامج عن الثقافة الشعبية أو الفن الشعبى أو مسلسل أبطاله من الفلاحين الفقراء، لا يحل المشكلة، فالأمر ليس أن يقوم باحث متخصص بالحديث عن الفلكلور، ثم يعقب ذلك موال غنائى لمطرب شعبى يقدم ضمن البرنامج... إلخ.

الثقافة

ـ لفظة الثقافة تبدو للوهلة الأولى وكأنها لفظة فضفاضة ولكن نستطيع القول أن الثقافة فى معناها العام هى مجمل القيم والمفاهيم التى تتكون وتتشكل لدى الإنسان نتيجة لخبراته السابقة نتيجة لخبراته السابقة نتيجة لخبراته المتوارثة ونتيجة لكل جهد يمكن أن يبذله فى سبيل الوصول إلى مفهوم للعالم.

ـ داخل كل مجتمع لا توجد ثقافة واحدة ولكن توجد ثقافات وهذا فى حد ذاته يعد نوعاً من الغنى الإنسانى ولكن هناك فى داخل كل مجتمع ثقافة تتسيد تسود وفقاً لعلاقتها بالسلطة وفقاً لعلاقة أصحاب القرار فهذه الثقافة تسبق ثقافة المجتمع ككل ولكن داخل مجتمع توجد ثقافات.

ـ فى المجتمعات الفقيرة حيث الكتلة البشرية السكانية من المواطنين تكون من الفقراء فهذه الكتلة تنتج ثقافتها.

وثقافة هذه الكتلة هى ثقافة مؤثرة ومتأثرة مثلها مثل أى ثقافة أخرى داخل المجتمع تعبر عن أية جماعة إنسانية داخل المجتمع.

ـ ثقافة الفقراء عادة يستند إلى الموردين الشفاهى السمعى لا ترتبط كثيراً بما تقرره المؤسسة التعليمية أو المؤسسة الثقافية فثقافة الفقراء ـ لا تتأثر بهما كثيرا فهذه الثقافة لديها إشكاليات كثيرة جداً بها جوانب راقية وبها جوانب إيجابية ولكن تشوبها سلبيات كثيرة تكريسها ليس مطلوباً ولكن أيضاً التفاعل معها وتفهمها هو أمر مطلوب جداً وهو أمر يجب أن تعيه المؤسسة الثقافية لكى تؤثر فيه وتغير إذ ما أمكن ما هو سلبى به.

أدب الفقراء

ـ فى البداية لابد من التأكيد على وجود أدب الفقراء سنقول مثلاً أن الموال والأغنية الشعبية هى الأدب الشفاهى فى مجمله وأيضاً الرقص الشعبى كل هذه الأمور هى بالتأكيد نتاج ثقافى للفقراء.

- الثقافة هى احتياج من خلاله يعبر الإنسان عن ذاته يعبر الإنسان عن رؤيته للعالم كل جماعة الإنسانية أيا كان مستواها الاجتماعى أى كان مستواها الثقافى أو الفكرى هى تنتج هذا الفن فهناك بالفعل فنون ينتجها الفقراء ولكن ليس بالضرورة أن تكون هذه الفنون رائعة أو عظيمة هى قد تكون رائعة فى جانب منها مثلها مثل فنون الأغنياء وثقافة الأغنياء ليست بالضرورة أن تكون رائعة أو عظيمة.

وأيضاً إيجابية فى بعض جوانبها وغير إيجابية فى جوانب أخرى ولكن بالتأكيد هناك ثقافة وفن للفقراء.

من يدافع عن الفقراء وعن ثقافتهم

- المدافع عن ثقافة الفقراء هو كل إنسان صاحب ضمير وعلى مر العصور التاريخية كان هناك الأغنياء أيضاً الذين يدافعون عن الفقراء وعن ثقافة الفقراء مثلاً بالموسيقى فالموسيقى الكلاسيكى التى تبدو كأنها موسيقى للتحية أو للطبقات العليا المرفهة. بيتهوفن أستخدم كثيراً الموسيقى الشعبية فى موسيقاه هارتز الألمانى استخدم الموسيقى الشعبية فى موسيقاه استخدم الأسطورة فى موسيقاه فإن هاوزن هى منتوج أسطورى شعبى الأسطورة هى منتوج شعبى فى النهاية ليس لها صاحب لا تستطيع القول أنها أتت من طبقة معينة ولكن هى ملك للجميع إذاً الفنان المثقف المبدع هو صاحب الضمير يدافع دوماً عن ثقافة الفقراء وعن هموم الفقراء أستطيع مثلاً أن أتحدث عن فنان عظيم مثل جوياً حتى فان جوخ عندما رسم الكيلو البطاطس فى حانة فقيرة جداً نستطيع أن نتحدث أيضاً فى الفن التشكيلى عن يروجل عندما رسم هذه المجاميع الهائلة وهى تتصارع بروجل الشيطان الابن فى لوحته هو أيضا مدافع إذا لا يوجد نظاماً ولا توجد مؤسسة تدافع عن فقراء بهذا المعنى.

فالمؤسسة لا يمكن أن تدافع عن الفقراء ولكن الفنان المبدع هو الذى يمكن ويستطيع أن يدافع عن الفقراء وعن ثقافتهم وبالنسبة للمؤسسة الثقافية

لدينا أنا أستطيع أن أربط هذا الكلام بمؤسساتنا الثقافية الراهنة وما قبل الراهنة فالمؤسسة الثقافية فى مصر نشأت لتخدم على السياسة على الأقل هذا ما عرفناه منذ عام ١٩٥٢ حتى الآن المؤسسة الثقافية تخدم على السياسة ولكن هناك خصوصية شديدة فى هذه المؤسسة الثقافية وعلى مدى تاريخها وهى أننا دولة فقيرة دولة الأمية تسود فيها منذ فترة طويلة دائماً المؤسسة الثقافية هى التى تضع فى اعتبارها وهى تخدم على السياسة التأثير فى الكتلة من الناس أو من الشعب بأدواتهم أو بوسائلهم ومن هنا كانت مثلاً فكرة الثقافة الجماهيرية الشهيرة وأنا أرى أن هذا الدور وإن كان هو يبدو سلبياً على المستوى النظرى ولكن على مستوى الأرض والواقع حقق إيجابيات عديدة وغنى نعلم أن من خلال المؤسسة الثقافية ثم جذب عدد كبير جداً من المبدعين ومن المثقفين وتم تكريسهم وتدريسهم كمبدعين يعنى الثقافة الجماهيرية خرج منها عشرات من المبدعين الذين رفضوا المجتمع على مستويات كثيرة قد نتناقش فى أداء المؤسسة الثقافية الراهن الذى قد نختلف ونتفق عليه ولكن أتصور أن مصر من البلاد التى تنفق كثيراً على الثقافة ولكنها لا تتلقى مردوداً يلائم هذا الإنفاق هى تبذل جهداً كبيراً ولكنها لا تتلقى ما يتوجب من مقابل لقاء هذا الجهد ومن هنا يكون التوقف لتقييم أداء المؤسسة الثقافية لتقسيم أدائها هذه مسألة بالغة الأهمية أتصور أن تقييم الأداء يرتبط أيضاً بفكرة أساسية وهى هل أفضل العناصر الثقافية الموجودة فى المجتمع هى الممثلة والتى تقوم على العمل الثقافى وهذا هو السؤال

أثر العولمة على الثقافة المحلية

- هذا طبعاً موضوع كبير قد يحتاج إلى مؤتمر مثلاً ولكن أن أقول إن الثقافة الشخصية أو ثقافة الفقراء لديها مصدات هى تحاول أن تحول بين رياح العولمة إن جاز هذا التعبير بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات لأنها ليست كلها سلبيات وهذه المصدات من الموروث الشعبى التراث كل ما

هو قديم وهنا تكون الإشكالية والإشكالية هى إنه ليس كل قديم جيد وليس كل جديد عظيم وآلية هذه المصدات قد تكون آلية بدائية أو آلية لا تتناسب مع حجم رياح هذا المتغير العالمى ينتج هنا تشوه نحن عندما نعود إلى الأغنية الشعبية مثلاً فى ظل هذه العولمة فينتج لنا شعبان عبد الرحيم قد نضحك قليلاً أو تجد هناك طرفة ولكن هذه هى المهزلة أن يخرج علينا شعبان عبد الرحيم فيقول أنا بكره إسرائيل وهو هناك يعبر عن رغبة شعبية أو موقف شعبى ولكن هل التعبير أصبح ساذجًا إلى هذا الحد إذاً هذه الآليات آلية الدفاع عن الموروث والثقافة الشعبية عن الهوية وعن الأنا الجمعية قد تكون هذه الآلية آلية ضعيفة ومشوهه كما ضربت مثل الآن وهنا دور النخبة المثقفة فى المجتمع أن تعيد النظر فى وسائل تلاقيها مع الثقافة الشعبية والفن الشعبى.

الأدب والثقافة الشعبية والمحلية

- الأدب وعاء عميق شامل قادراً على استيعاب العديد من رموز الثقافة الشعبية وعلى التعبير عن هموم وآمال القطاعات العريضة من الناس فى أدق تفاصيلها فى كل ما هو إنسانى فيها هذا هو دور الأدب وعلى الأدب أن يحفظ اللحظة فى ذاكرة الأجيال المقبلة من ناحية وعليه أيضاً أن يرشد هذه اللحظة إذا استطاع وأن يتشوف ويتنبأ بما لا تراه العين العادية.

ونحن نتحدث عن مصر والمجتمع المصرى سأضرب مثالاً فى مجتمعنا، المرأة المصرية ما زالت منقوصة المواطنة بمعنى ما نص عليه الدستور من مساواة بين المواطنين بصرف النظر عن الدين أو الجنس أو اللون هذا لا يطبق فى جوانب عديدة فيما يتعلق بالمرأة المصرية فالمرأة المصرية من وجهة نظرى منقوصة المواطنة هذا بسبب التشريع من ناحية وبسبب القيم السائدة من ناحية ثانية بسبب تكريس الإعلام لصورة محددة للمرأة فى مجتمع لذلك مواجهة هذا ليس لغزاً ولذلك المرأة فعلاً تشعر إنها كائن مهمش وهى مهمشة مرتين مهمشة باعتبارها مواطنًا منقوص المواطنة

أيضاً فى بعض الجوانب وباعتبارها امرأة نوع من ناحية أخرى مواجهة هذا ليس لغزاً نحن نحتاج إلى ضفاف للديمقراطية بمعناها الأشمل ليست الديمقراطية أن أذهب إلى الصندوق الانتخابى وليست الديمقراطية أن يكون لى بطاقة انتخابية ولكن الديمقراطية هى أن أحصل على تفويض كمواطنة أو كمواطن من حقى أن أسير فى شارع نظيف من حقى أن يطبق القانون على الجميع سواء ما يطبق على بعض الناس بطريقة ويطبق على البعض الآخر بطريقة أخرى من حقى أن أحصل على فرصة عمل من حقى أن أحصل على فرصة جيده للتعلم لأن التمييز الاجتماعى الآن فى مصر يتم من خلال التعليم قل لى أين تتعلم وماذا تتعلم أقول لك من أنت فإذا هذه هى الديمقراطية الحقوق الإنسانية الأولى حقى أن أكون إنسانًا أحصل على ما هو إنسانى أن أسير فى شارع نظيف أن يطبق القانون بشكل عادل على الجميع المخطئ ينال عقابه والذى لا يخطئ فهو مواطن كريم هذه تفاصيل بسيطة يعانى منها الرجال وتعانى منها النساء مرة أخرى بوصفهن نساء.

هذه هى الإشكالية وهذا هو التهميش وهذا التعبير التهميشى أنا أفضل أن استخدم بدلاً منه العشوائى لأنها أخطر من التهميس، التهميش يعنى أن تستبعد من المتن الاجتماعى جماعة أو أشخاص ولكن العشوائى ألا تحرم الجماعة أو الأشخاص من أدوات تعينهم وخبرات تعينهم على اتخاذ قرار بما يتعلق بحياتهم أو بالمجتمع ككل.

الذى يعين الناس على اتخاذ القرار هو الخبرة التعليمية المعرفة التعليمية الخبرة القانونية وهذا أيضاً أمر غائب فى المجتمع المصرى.

مصير الثقافة الشعبية

هذا الأمر فعلاً أمر مصرى شديد الخصوصية بسبب أنه تاريخياً الثقافة الرسمية هى ثقافة الأجنبى والغريب أن مصر عبر تاريخها محتلة منذ أيام اليونان والرومان إلى آخره فكانت هناك دائماً ثقافة الأجنبى أو

الغريب وكانت هناك دائماً الثقافة المصرية ولكن ولعظمة الأمر كانت دائماً الثقافة الأجنبية ثقافة المؤسسة الحاكمة هى تستجيب للثقافة الشعبية والثقافة الشعبية لأنها عريقة وقديمة قابلة دائماً لتطويع هذه الثقافة الوافدة أو الثقافة الأجنبية ففكرة الازدواج الثقافى بين المؤسسة الحاكمة وبين الثقافة الشعبية هى فكرة صحيحة ودائماً موجودة ولكن ليست فى وضع التوازى لم تكن أبداً هذه المسألة فى وضع التوازى ولكن كانت دائماً فى وضع التلاقى حينا والتنافر حينا فى وضع التقاء فى نقاط تماس أو نقاط تقاطع أو الافتراق حينا آخر، الثقافة الشعبية هى التى أفرزت الملامح العظيمة ملحمة الظاهر بيبرس مثلاً والظاهر بيبرس كان على رأس السلطة والمؤسسة المملوكية ولكن عندما تتلاقى مصلحة الشعب أو الناس مع مصلحة المؤسسة تنتج الثقافة الشعبية.

وعندما يحدث هذا الافتراض هذا الانفراد بينهما فيكون ذلك بسبب مواصفات سياسية واجتماعية داخل المجتمع ولكن عموماً الشعب المصرى لديه ثقافة عريقة هو هاضم للثقافات الأخرى هاضم لثقافات المؤسسات الأجنبية الوافدة ويستطيع أن يطورها ويحولها ويكفيها وفقاً لمعطياته الثقافية ولذلك حتى على مستوى الدين باعتباره جزءًا من المنتوج الثقافى الشعبى المصرى استطاع دوماً أن ينتج النسخة المنقحة المصرية من المسيحية فكان لدينا القبطية ولدينا أيضاً كما أقول النسخة المنقحة من الإسلام حيث إن الإسلام فى مصر أصبح معتدلاً ملائماً لحياة الناس روحه السمحة هى الروح فى الصيغة الدينية يجعل هذه الأشياء هى نتيجة لوجود ثقافة شعبية عميقة داخل المجتمع المصرى.

- ودائماً سيتحدد المصير وفقاً للنتيجة الشعبية حتى على المستوى الشعبى هناك نخبة ثقافية النخبة الآن فى المجتمع المصرى هى نخبة ضعيفة غير مؤثرة معزولة لا ترى جيداً لما هو آتى ولما هو قادم وعليها أن تجمع نفسها وأن تعيد نفسها بحيث تتلاقى مع الثقافة.الشعبية مرة أخرى.

* * *

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. maktabetelosra. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg





مازلت أحلم بكتاب لكل مواطن، ومكتبة فى كل بيت. لأن الثقافة هى وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر وإعلاء المثل العليا، وقيم العمل، وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التى دعت إليها جميع الأديان، وتكوين ثقافة المجتمع يبدأ بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة. وستظل وسيلة المعرفة الخالدة هى الكتاب الذي يساهم فى إرساء دعائم التنمية وتحقيق التقدم العلمى المنشود.



